عظماء منسيون
في التاريخ الحديث
محمد موسى الشريف

عظماء منسيون في
التاريـخ الحديث

عظمـــاء منسيـــون
في
التـــاريخ الحديث

تأليف

د. محمد بن موسى الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

السلسلـــة الأولـــى

١. المجاهد البطل أحمد بن عرفان الشهيد.

٢. المجاهد الداعية عثمان بن فودي.

٣. المجاهد الداغستاني الإمام شامل.

٤. الداعية العجيب عبدالرشيد إبراهيم.

٥. الأمير المجاهد محمد بن عبدالكريم الخطابي.

٦. أبو الأحرار محمد محمود الزبيري.

٧. الباحثة عن الحقيقة مريم جميلة.

٨. شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي.

٩. شاعر تركيا محمد عاكف أُرْصوي.

١٠. الشيخ المجاهد سعيد بَيْران الكردي.

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن العصر الحديث مليء بالأحداث الضخمة، بدءاً من الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٩/١٢١١ ثم الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧، ثم الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠، ثم الحملة الفرنسية على تونس ١٨٨١، والحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٨٢، ثم الحملة الإيطالية على ليبيا ١٩١١، ثم احتلال المغرب سنة ١٩١٢، ثم احتلال العراق وفلسطين ١٩١٨، واحتلال سورية سنة ١٩٢٠، وجملة كبيرة من الأحداث وقعت في أثناء تلك السنين.

ثم إنه بعد احتلال أعداء الإسلام لأكثر بلاد المسلمين سقطت الخلافة العثمانية، ونشأت الجماعات الإسلامية.

ثم تخلصت الدول الإسلامية من محتليها، فيما عُرف بالجلاء، وبقيت فلسطين إلى يوم الناس هذا تحت الاحتلال، وبقيت أجزاء من بعض الدول العربية محتلة في الأردن وسوريا ولبنان والمغرب (سبتة، مليلة) إلى يوم الناس هذا أيضاً.

وفي تلك الحقبة الزمنية الطويلة التي تسمى العصر الحديث: القرن الثالث عشر، الرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر، العشرين الميلاديين، في تلك الحقبة برز رجال عظماء، كان لهم أثر ضخم في تلك الأحداث، وبذلوا وقدموا، وعملوا وأعطوا، وهوجموا وابتلوا وصبروا فلم تلن لهم قناة، ولم يؤثر عنهم ضعف ولا ذل ولا هوان.

هؤلاء الرجال يُعدون بالآلاف، لكن أكثرهم ظلت أسماؤهم مجهولة عند أكثر المسلمين، وإن عُرفت الأسماء فقد جُهلت الأعمال، وصار أولئك العظماء الذين كانوا مشاعل هدى في ديارهم وزمانهم معدودين في جملة المجاهيل، فلم تعد الأجيال تسمع بأسمائهم وأفعالهم، بينما كان المأمول أن يُتخذوا قدوات يُقتدى بها، ويرجع إليها، لكن ما الحيلة وأكثر وسائل الإعلام والتثقيف عن أولئك بمعزل.

لذلك رأيت أن أتخير من أولئك العظماء الذين أُسدل عليهم ستار الإهمال والنسيان عدداً ممن حفظ الزمان سيرهم في بطون الكتب لأعرضها على الناس حتى يستفيدوا من العبر والعظات الواردة فيها، وليعرفوا تاريخهم من خلال قراءة تواريخ العظماء، فإن العظماء هم صناع التاريخ حقاً، ومن عداهم إنما هم مشاهدون أو مشاركون -على استحياء- بشيء يسير.

ولقد كنت تكلمت عن جملة من أولئك العظماء في حلقات بُثت من قناة "اقرأ" وسألني عدد من الناس لا أحصيهم من بلاد كثيرة، أن أنقل هذه الحلقات إلى كتب، فكنت لما أسمع ذلك أعهد من نفسي إحجاماً عن هذا العمل، والسبب محصور في أمرين:

الأول: أني كنت قد تكلمت -غالباً- عن سير مشاهير تمتلئ الدنيا بذكرهم فما هي الحاجة لنقل الكلام إلى كتب، ثم إن هؤلاء قد ألفت فيهم كتب كثيرة فما الحاجة لإعادة التأليف؟

الآخر: أن نقل الكلام المُلقى إلى الكتب لهو أمر سهل جداً يستطيعه كل أحد لكن سيكون الكتاب ركيكاً في أسلوبه ضعيفاً مفككاً، وذلك أن المتكلم ربما أعاد بعض الجمل أو الكلمات، أو بتر الكلام لعلة ثم لم يعد إلى السياق الذي كان فيه، أو وهم في موضع من حديثه، أو أتى بالأحداث مختلطة غير مرتبة، أو غير

ذلك من العلل، فإذا نقل الكلام إلى كتاب وهو على تلك الحالة صار المكتوب ركيكاً هزيلاً.

وربما قيل: لم لا يراجع الكلام قبل نقله إلى كتاب وتعالج علله؟

وأقول: قد جربت هذا في حلقات ست هي: عمر المختار، والحسن البصري، وعبدالحميد بن باديس، ومحمد بن عبدالكريم الخطابي، وعبدالعزيز بن باز، وصلاح الدين الأيوبي، ونقل الكلام إلى كتب وأتيت عليها كلها مراجعة وتصحيحاً وضبطاً وتخلصاً من علل الكلام الملقى ارتجالاً وآفاته، وبعد لأي أذنت بطبعها لكن لم يرضني أسلوب الكتابة، بل رأيت أنه يخالف ما عرفته من طريقتي وأسلوبي مخالفة بينة، فعزفت عن نقل باقي الحلقات، ولم أرض ذلك الصنيع على أن بعض تلك الرسائل قد كتب له شيء من الانتشار وأعيد طبعه لكني لا أحب لنفسي أن تكون كتابتي على هذا الوجه، فتوقفت عن هذا الصنيع.

ثم إني عمدت إلى أمر وسط، ألا وهو أن أكتب عن من أريد الحديث عنه كتابة مستأنفة ليست منقولة من الكلام المسجل في الحلقات، وهذه الكتابة على قسمين:

قسم تناولت أصله في الحلقات المسجلة، والقسم الآخر إنما هو شيء جديد لم أتحدث عنه من قبل.

فأخذت في كتابة سير بعض الأشخاص الذين كان لهم يد طولى في العمل للإسلام لكنهم صاروا مغمورين في هذا الزمان، وكتبت هذه الحلقات لمجلة "المجتمع" الكويتية، وعمدت إلى بعض الحلقات المسجلة التي نقلت إلى أوراق والتي تكلمت فيها عن بعض أولئك العظماء فأعدت كتابتها ملخصة مهذبة سالمة من العلل التي ذكرتها آنفاً، وجمعت هذه كلها في كتب رأيت أن تخرج على الناس تباعاً، ولم أشأ أن أجمعها كلها في كتاب واحد يعظم حجمه وتتعدد أجزاؤه فيصعب على الناس قراءته،

فإخراجها على هذا الوجه أيسر على الناس، ثم إني لا أعلم متى يأتيني الأجل ويخترم العمر فالتعجيل بإخراج ما تيسر عمله خير من الانتظار حتى يكتمل العمل كله ثم لا ينـــزل منه شيء بعد ذلك، فكم من شيخ وعالم وطالب علم اخترمته المنية فمات وماتت معه أوراقه التي كتبها، وكتبه التي كان قد أعدها لكن لم يطبعها، فالحزم أن يُعجل في إخراج ما انتهُي منه، والله المسؤول بإتمام الباقي.

ــ هذا وقد أعدت قراءة تلك الحلقات التي أعددتها لمجلة "المجتمع" وأصلحت منها أشياء، وأضفت عليها أشياء رأيتها، حتى رضيتها للناس فأخرجت الجزء الأول من هذه السلسلة التي أرجو من الله تعالى أن يبارك فيها ويعظم لي أجرها، وأن يمد في أجلي لأخرج سائر هذه السلاسل، ولأخرج ما أرى أنه نافع للناس، إن شاء الله تعالى.

هذا وقد اشترطت في هذه التراجم التي كتبتها على نفسي الآتي:

١. الإيجاز، فقد تحقق -عندي- أن هذا الجيل لا يقرأ إلا قليلاً، ولا يقرأ هذا القليل إلا قليلاً، فلذلك عمدت إلى الإيجاز، مع إبراز العبر والعظات.

٢. أن تكون تلك الشخصيات من العصر الحديث الذي يبدأ -عندي- من أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وذلك لأن هذه الشخصيات عاشت في زمن أحواله قريبة من أحوال عصرنا، وأحداثه مشابهة لأحداث زماننا، فذكر هذه الشخصيات -إذن- مفيد لأهل هذا الزمان.

٣. أن تكون هذه الشخصيات قد لحقت بربها؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، واستثنيت الأستاذة مريم جميلة لما في شخصيتها من الجوانب بالغة الأهمية لنساء عصرنا مما لا أكاد أجد مثيلاً

لها في غيرها من النساء غير الشهيرات، ثم إنها الآن في عشر الثمانين وأرجو أن يختم الله لها بخير.

٤. أن يكون أولئك العظماء قد أُسدل عليه ستار النسيان فلم يعد يعرفهم الجمهور الأعظم من الناس، عقوقاً وإهمالاً، فبعث سير هؤلاء من الأمور المهمة جداً لما تنطوي عليه حياتهم من عبر وعظات وتجارب جليلة.

بل أزعم أن هذه الشخصيات التي أوردتها في هذا الكتاب -وسأورد غيرها إن شاء الله تعالى- لم يعد يعرفها الجمهور الأعظم من الدعاة والصالحين والمشايخ وإنا لله وإنا إليه راجعون، وإن عرفوا الأسماء فلا يعرفون الأعمال، وإن عرفوا شيئاً من الأعمال فقد فاتهم جملة مهمة منها.

وإليكم معشر القراء هذه السلسلة التي تحوي تراجم عشراً، وأرجو أن تتبعها سلاسل أخرى يكتب لي فيها كلها أجر إحياء

ذكرها، إذ لا تسألوا معشر القراء عن التعب الذي تعبته في جمع أخبارها المتفرقة خاصة تراجم العظماء من إفريقيا السوداء، لكن الله تعالى هو المستعان، وهو الذي أرجو أن ينيلني على ذلك الأجر والثواب، وإليه سبحانه المرجع والمآب.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

الموقع على الشبكة: www.altareekh.com

البريد الالكتروني: mmalshareef@altareekh.com

١ - المجاهـــد البطـــل

أحمد بن عرفان الشهيد

١٢٠١ - ١٢٤٦

١٧٨٧ - ١٨٣١

لله ما أعظم تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند، وكم في تلك الأراضي الشاسعة البعيدة من عظماء، وإذا قيل "الهند" في التاريخ فإنما هي اليوم الهند وباكستان وبنجلاديش بعد التقسيم السياسي الحديث عقب الحرب العالمية الثانية، فهي إذن أرض شاسعة ضخمة، كان للمسلمين فيها أمجاد عظيمة، وقد غربت شمس المسلمين فيها بانتهاء الدولة التيمورية المغولية التي كان من سلاطينها السلطان أورانج زيب

عالمكير، شمس سلاطين المسلمين في أواخر العصر الوسيط وقبل بداية العصر الحديث[1]، فلما سقطت تلك الدولة نهب الإنجليز ممتلكاتها وذهبت أدراج الرياح، وصارت أثراً بعد عين.

وصار المسلمون بعدها كالشياه بدون راع في الليلة المطيرة المظلمة فلم يعد لهم عقد جامع ولا سلطنة كافة، ولا إمام يسوسهم، وانتشرت فيهم البدع والخرافات، حتى أذن الله تعالى ببروز شمس أحمد ابن عرفان الشهيد الذي أحيا في المسلمين في الهند شعيرة الجهاد، وخلصهم من كثير من البدع والخرافات، وكان له أيادٍ بيضاء عليهم.

وهو من أسرة عريقة شريفة، لها صلة بعظماء الهند من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كان لهم جهد ملحوظ في إقامة الشريعة في الهند وتربية المسلمين.

---

(١) كنت قد تحدثت عنه -بفضل الله تعالى- في حلقة في قناة اقرأ، لكن يمنعني من إيراده في هذه السلسلة أنه ليس من أهل العصر الحديث فقد مات في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، رحمه الله رحمة واسعة لكن سيرته من أحسن السير، وتذكّر بسيرة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وأمثالهم رحمهم الله تعالى.

ولد في بلدة "راي بريلي" بالقرب من لكنو في الهند سنة ١٢٠١ أول القرن الثالث عشر، وتوفي في وادي بالا كوت شهيداً - إن شاء الله- سنة ١٢٤٦-١٨٣١، وعلى أن عمره قصير لكنه حافل بجلائل الأعمال.

ولد والهند في قبضة الإنجليز يمتصون خيراتها، وينهبون ثرواتها، ويذيقون المسلمين صنوف العذاب، ويضيقون عليهم في مدارسهم ومساجدهم ويمنعونهم من المناصب العالية ويقربون الهندوس منها، بل مالأوا الهنادكة والسيخ في عداوتهم للمسلمين، ومكنوهم من رقابهم، ثم إنه رأى كيف تأثر المسلمون ببدع وخرافات السيخ والهندوس حتى خيف على عقيدتهم منها، وعلى هذا فقد عاش في ظل أحوال صعبة، فماذا صنع رحمه الله ؟

طلب العلم في الكُتاب في صغره، لكن نفسه لم تمل إلى الدراسة فسرعان ما غادر المدرسة، وكانت همته في الجندية وأعمال

الفروسية، والضرب والطعن، والرياضة من سباحة وبناء الجسد، وغير ذلك.

ولما بلغ من العمر عشرين سنة ذهب إلى لكنو ليلتحق بمعسكر للجهاد فيها لكن نفسه كانت تتوق للذهاب إلى دهلي -وليس دلهي التي حرف اسمها الإنجليز- حيث مدرسة آل الدهلوي الذين كان على رأسهم مصلح الهند الكبير شاه ولي الله الدهلوي ولم يدركه لكن أدرك ولديه الذيْن رحبا به أعظم ترحيب لما عرفاه.

فمكث ينهل من العلم والعبادة والزهد والتربية حتى تاقت نفسه للجهاد الذي خلق له، فذهب إلى معسكر النواب -أي نائب السلطنة- ميرخان واجتهد في المعسكر هذا وتعلم ألواناً من فنون القتال، لكن نفسه لم تطب فيه بسبب أن ميرخان كان يقاتل للمغنم وليس له هدف واضح، وقد هادن الإنجليز فانسحب من معسكره.

وأقبل على إفادة الناس ودعوتهم إلى الحق، فاستجاب له عدد كبير، وكان منهج دعوته يقوم على إنكار البدع الكثيرة التي كانت في المسلمين بسبب اختلاطهم بالهنادكة، وعلى إرجاع المسلمين إلى كتاب ربهم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتعليم الجهال أصول دينهم وفروع شريعتهم التي يحتاجون لها، وقد أصلح الله على يديه عشرات الآلاف ممن تاب وأناب، وأسلم على يده من الهنادكة جملة كبيرة.

ثم إنه أعلن في كل أنحاء الهند سنة ١٢٣٦ أنه يريد الحج إلى بيت الله الحرام، وأن من لا زاد له فزاده عليه، فاجتمع عنده عدد متوسط يقدر بأربعمائة حاج.

وكان عدد من المشائخ ممن لاوعي له كافياً ولا فقه في واقع زمانه قد أصدر فتاوى بإسقاط الحج عن مسلمي الهند بدعوى عدم الاستطاعة بسبب أخطار الطريق، وفاتهم أن الحج قد قام به ملايين من

الهنود قبل ذلك وفي أحوال مشابهة فلم يضرهم ذلك إلا قليلاً، لكن كان للإنجليز أثر في إصدار عدد من هذه الفتاوى لأنهم -وأمثالهم من المستخربين (المستعمرين)- يحرصون على إبقاء المسلمين بعيداً عن الصلة بإخوانهم عن طريق منعهم من الحج أو التضييق عليهم تضييقاً كبيراً، أو بلبلة المسلمين بنشر شائعات عن أمراض معدية في الحجاز أو أخطار محدقة بالطريق وهكذا حتى لا يحج المسلمون ويتصلوا بإخوانهم.

وانطلق السيد أحمد بن عرفان الشهيد من بلدته راي بريلي بمن اجتمع معه، ومروا في طريقهم بعدد من المدن أقاموا في كل واحدة منها مدة يدعون إلى الله تعالى، ويصلحون بين الناس، ويذكرونهم بالله، حتى تاب آلاف مؤلفة في مرزابور وبنارس وكلكتا وغيرها.

وقد حدث له طرائف في مِرزا بُور فمن ذلك أنهم أرادوا إفراغ حمولة الباخرة فتأخر الحمالون، وكان من العيب أن يباشر

الأشراف والوجهاء والأغنياء الذين رافقوا السيد في الحملة العمل بأنفسهم فشجعهم وابتدأ العمل بنفسه، وأنزلوا حمولة المراكب والناس ينظرون إليهم في دهشة لأن هذا لم يكن معتاداً في الهند، ولما رأى الحمارون -أي سائقو الحمير- ذلك التواضع دعوا السيد أحمد إلى بلدهم فأجابهم، وكان ذلك صدمة للأغنياء والوجهاء والأشراف الذين رجوه ألا يصنع، وأن مؤاكلة الحمارين عيب كبير لكنه بين لهم أن هؤلاء يقومون بخدمة جيدة، وأن الأنبياء كانوا يركبون الحمير فأي ضير في إجابة دعوتهم ؟! وحضر وليمتهم فأثابوه بعدها بأموال وهدايا فرفض أن يأخذ منها شيئاً حتى لا يظن الناس أنه إنما صنع ذلك للدنيا.

وهكذا كان رحمه الله يغير التقاليد البالية بنفسه، حتى أنه لما تزوج أرملة أخيه إسحق قام عليه الأشراف؛ وذلك لأن المسلمين في الهند تأثروا بالهنادكة في عدم التزوج من الأرامل، فأبطل هذه السنة السيئة بنفسه رحمه الله.

وفي كلكتا تأخر ركب الحج قليلاً لإنجاز إجراءات السفر، فاستغل السيد ذلك ودعا إلى الله هو ومشايخ معه حتى تاب على أيديهم ألوف، وتركوا معاقرة الخمر التي كانت شائعة حتى أغلقت كثير من الحانات، وكسد سوق الخمر فجاء تجارها إلى الحاكم الإنجليزي يطلبون منه إسقاط الضرائب عن الخمور لكساد سوقها فوافقهم لكن إلى حين خروج أحمد بن عرفان من كلكتا !!

وفي أثناء تنقله من مدينة إلى مدينة جاءه وفد من مسلمي التبت فقراء يريدون الحج معه فقال لهم: أنتم لا تستطيعون لفقركم ودلهم على خير من ذلك ألا وهو الرجوع إلى التبت للدعوة، فأخبروه أنهم جهال فعقد لهم دورة شرعية وإيمانية عادوا على إثرها دعاة، وجوبهوا في التبت بمحن وشدائد لكن في النهاية انساق كثير من الناس لدعوتهم، وانصلح حالهم، وأسلم من أسلم، وانتقلت الدعوة من التبت إلى الصين، وكان في مشورة ابن عرفان الخير الكثير.

ثم تحرك الركب من كلكتا إلى الحجاز للحج فأدوا المناسك وعادوا فرحين، وامتدت مدة غيابهم قرابة ثلاث سنين بسبب وقوفهم في أماكن عديدة للدعوة وتربية الناس وهدايتهم مدداً طويلة نسبياً، وأعاد الله بهذا الحج الثقة للمسلمين بسلامة درب الحج، وحصل خير عظيم، ولله الحمد والمنة.

ثم إنه لما عاد من رحلة الحج سنة ١٢٣٩ أخذ في دعوة الناس -كعادته هو ومن معه- لكن نفسه تاقت للجهاد خاصة أنه وصلت إلى مسامعه أنباء المجازر التي يقيمها السيخ للمسلمين في البنجاب، فأعد العدة ونادى في ربوع الهند بالجهاد في سبيل الله، واشتاقت النفوس، وسابق الأبناء الآباء، وتحرك بركبه يريد بلاد الأفغان يستنصرهم لكنه وجد من بعض أمرائهم صدوداً فعاد في رحلة شاقة جداً إلى بشاور، واصطدم مع السيخ في معارك انتهت بانتصاره وتأسيس إمارة إسلامية في بشاور، فوطد دعائم الأمن، وجبى الزكاة، وأقام الإسلام حتى تذكر الناس دولة الإسلام الأولى.

وأقام على ذلك أربع سنين تقريباً، لكن خيانة بعض أمراء الأفغان ضيقت عليه حتى أنهم قتلوا القضاة والمشايخ والدعاة الذين أرسلهم السيد أحمد للدعوة في تلك البلاد فكانت صدمة عنيفة له، يضاف إلى هذه الهموم فتاوى مشايخ السوء الذين أفتوا بأنه وهابي، وأن قتاله جائز بل مطلوب، مما جعل عدداً من أتباعه ينفضون عنه، وهاجمه أمراء من الأفغان، فعزم على ترك بشاور واتجه إلى البنجاب وقاتل السيخ بزعامة قائدهم رنجيت سيخ وانتصر عليهم.

لكن المؤامرات ضده كانت مستمرة، فعقد العزم على التوجه إلى كشمير حيث دعاه أمراؤها ووعدوه النصرة، فخرج من البنجاب في طريق محفوفة بالمخاطر، واتجه إلى كشمير لكن خانه بعض جنده المسلمين ودلوا السيخ على قافلته فهاجموها في وادي بالاكوت في ذي القعدة من سنة ١٢٤٦/١٨٣١، وقاتل هو ومن معه قتال الأبطال حتى استشهد وهو لابس كفنه، مقبل على ربه هو ورفيق دربه الشيخ

إسماعيل بن عبدالغني بن شاه ولي الله الدهلوي وعدد من أمرائه وجنده، بعد أن هجم عليهم السيخ بجنود كثيرين.

واعتصم من بقي من جنده بالجبال، وواصلوا الجهاد في أحوال صعبة جداً وبرد شديد وجوع وتعب لكنهم صبروا وثبتوا سنوات حتى قضى على جهادهم الإنجليز، وحاكموهم محاكمات طويلة أظهروا فيها ضروباً من الثبات وصنوفاً من العزة، ما كانت لتخطر على بال أعدائهم، ولقد كان الواحد منهم يقدم على الإعدام أو السجن المؤبد راضياً صابراً ثابتاً، مما يدل على تربية أصيلة، وفهم جليل، وإقبال على الله وتجرد وإخلاص، نحسبهم كذلك والله حسيبهم.

هذا ومن أراد الاستزادة من الاستفادة، فليقرأ الكتاب الفذ الذي ألفه الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى وغفر له: "إذا هبت ريح الإيمان" فمن قرأه مقبلاً بعقله وقلبه يُرجى أن تهب

ريحه، وأن يعظم عمله، وأن يقتدي بفعال ذلك المجاهد الكبير، الذي حركه الله للعمل في وقت مات فيه الأمل، واضمحل العمل إلا من قليل كان منهم ذلك المجاهد الفذ والبطل العملاق.

تلك كانت دعوة أحمد بن عرفان الشهيد: جهاد باللسان تَوّجه بجهاد بالسنان، وهداية وإرشاد، وتربية وتعليم، ونقض العادات السيئة وإبطالها، وإعزاز للمسلمين، وبث للثقة في قلوبهم، وصبر على مشاق الطريق، وتضحية بالنفس والنفيس، فلو لم يكن له بعد ذلك من هذا كله إلا تثبيت رحلة الحج واستمرارها، وجهاد السيخ الذين كان من ورائهم الإنجليز، وهداية عشرات الآلاف من المسلمين والهندوس على يده، لو لم يكن له إلا ذلك لكفاه، فكيف وقد أضاف إليه ما ذكرته، فرحمه الله رحمة واسعة، وتقبله في الشهداء.

٢- المجاهـــد الداعيـــة

عثمان بن فـــودي

١١٦٨ - ١٢٣٢

١٧٥٤ - ١٨١٧

الحديث عن هذه الشخصية حديث ذو شجون، فهو حديث عن داعية، وعن عالم، وعن مجاهد، وليس عن مجاهد فقط بل مجاهد أقام دولة قوية، ومن ناحية أخرى يتطرق الحديث إلى دولة السودان الإسلامية التي تكونت في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، في زمن كانت فيه الدولة الإسلامية الأم -الدولة العثمانية- تجنح إلى الضعف والركود، وسائر الدول الأخرى كانت قد سلكت

الطريق الذي سيؤدي بها إلى التفكك والزوال، إذاً إن الزمن الذي نشأت فيه هذه الدولة وعوامل تكوينها قد غاير تماماً ما كان سائداً في العالم الإسلامي آنذاك من الضعف والتهاوي.

والشيخ عثمان بن فودي من إفريقيا السوداء، وأعلام تلك البلاد هم كالمجاهيل في عصرنا لقلة المصادر التي تحكى سيرهم، ولصعوبة الوصول إلى قول فصل محايد في بعض الأحداث التي تتعلق بهم.

وعثمان بن فودي من أصول فُلاّنية –فلاتية- نزح جده الحادي عشر موسى جُقّل من غرب إفريقيا في هجرات متتابعة للفُلاّن يريدون الحجاز، ولأسباب غير معلومة توقف جده ومعه جماعته في بلاد الهوسا -نيجيريا اليوم- وجده من بطن من الفُلاّن يسمون بالتوروبي، وبلغة الهوسا تُورِنْكاوا، وكان استقرار جده في تلك البلاد في القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

ولد الشيخ عثمان -كما كان يلقب- سنة ١١٦٨ أو ١١٦٩- ١٧٥٤م، في مملكة جُوبَرا إحدى ممالك بلاد الهوسا آنذاك وأقواها، ونشأ بين والدين صالحين وأخذ عنهما طرفاً من العلوم، ودرس الفقه والعقيدة والحديث واللغة على مشايخ الهوسا والبرنو والفلاته ليس بينهم عربي واحد، وهذا من نعمة الله على تلك البلاد في ذلك الزمان أن جعل العلم الشرعي منتشراً بين أهل البلاد أنفسهم، وبرع في العلوم ومهر، وتقدم ونبغ حتى صار مجتهداً في المذهب المالكي السائد آنذاك في كل إفريقيا الشمالية والوسطى والغربية والشرقية، وهو ما يسمونه بالمجتهد النسبي وليس المطلق.

وتسامع به الناس، وأقبلوا على دروسه اليومية، ووعظه الأسبوعي، حتى صار له أتباع سُموا بالجماعة، وصار هو يلقب بالشيخ، وصار علماً عليه حتى أن أبابكر غومي أقضى قضاة نيجيريا ذكر في سنة ١٣٨٣/١٩٦٣ أن الناس في نيجيريا إذا ولد لهم ذكر وسموه بعثمان فإنهم يلقبونه بالشيخ تيمناً بالشيخ عثمان بن فودي.

حال الإسلام في بلاد الهوسا آنذاك:

بلاد السودان كانت تطلق على بلاد شاسعة تمتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي فيما كان يعرف بالسودان الشرقي والأوسط والغربي، ودوله اليوم: السودان وتشاد ونيجيريا والنيجر ومالي والسنغال تقريباً وجزء من الكاميرون.

وقد دخل الإسلام إلى بعض تلك البلاد منذ القرن الأول، لكن الانتشار والتمكين كان في القرن الخامس يوم أن دخل المرابطون من مراكش إلى السودان الغربي وأنشأوا مملكة مالي، وانتقل الإسلام -أيضاً- عن طريق التجار المسلمين من شمال إفريقيا وكانوا من البربر الصنهاجيين، وانتشر الإسلام بجهود الطوارق أيضاً، فاستنارت المنطقة بنور الإسلام منذ ألف سنة تقريباً.

وفي زمن الشيخ عثمان كان الناس على ثلاثة أقسام: قسم مسلمون، وقسم وثنيون، وقسم خلطوا بين الإسلام والوثنية، فكان

لابد له من معالجة هذا الأمر، فكانت طريقته في دعوته ووعظه على الوجه التالي:

١. تعليم العامة أصول الدين وإبعادهم عن البدع الكثيرة المنتشرة آنذاك.
٢. مجالس الوعظ الأسبوعية التي كان يعقدها.
٣. تعليم العامة أمور دينهم من صلاة وزكاة وغيرها ونهيهم عن المنكرات والمعاصي.

وكان الناس يتقاطرون عليه رجالاً ونساءً، وكانت النساء قبله ليس لهن حظ في وعظ ولا درس، فشجع الرجال على إحضار نسائهم حتى يستفدن ويفقهن، وكان حضور النساء مدخلاً لأعدائه ليشنعوا عليه بدعوى أنه يخلط الرجال بالنساء.

وكانت صفاته الشخصية مؤهلة له لأمر عظيم، فقد كان صاحب همة عالية، كثير التجوال في أنحاء بلاد الهوسا لإيصال الدعوة حتى أنه مكث مرة في إحدى النواحي خمس سنوات بعيداً عن وطنه

من أجل تعليم الناس وإرشادهم، وهذه تضحيات جليلة لا يقدر عليها إلا عظماء الرجال، وكان لا يكل ولا يمل من كثرة الدروس وطولها، مثابراً على إلقاء المحاضرات مثابرة تدل على استعداده الكبير للبذل والتضحية.

ومن صفاته العظيمة إخلاصه وحسن صلته بالله، فقد أخبر ابنه والخليفة من بعده محمد بَلُّو أن أباه كان إذا أراد الخروج للناس اعتزل في ناحية وتكلم بكلام لا يفهمه فسأله فقال: يابني إني إذا أردت الخروج للدرس أو الوعظ سألت الله أن يسددني وأن يفهم الناس عني، وأجدد النية، وأعقد العزم على الإخلاص، وهذا منه –رحمه الله تعالى- فهم جليل وعمل صائب.

جهاده:

قد وفق الله هذا العالم لجهاد طويل مرير، وكان سبب ذلك أن سلطان جُوبَرا: باواجن غَوْزُو دعاه في عيد الأضحى مع مجموعة

من العلماء، وأهداهم هدايا كثيرة فرفضها الشيخ عثمان، وطلب من السلطان خمسة أمور: ١- الحرية في الدعوة إلى الإسلام والوعظ. ٢- رفع الضرائب الثقيلة عن الشعب. ٣-الإفراج عن المعتقلين السياسيين. ٤- احترام العلماء. ٥-ألا يمنع من رغب من رعاياه في الانضمام إلى الشيخ عثمان.

فاستجاب له السلطان، وجعله مفتياً لبلده.

ثم إنه خوفه بعض علماء السوء من جماعة الشيخ عثمان وازدياد عددها فضيق عليه وحاول قتله لكن الله تعالى نجى الشيخ عثمان، ثم مالبث باواجن أن مات وجاء من بعده ابنه نافتا الذي استمر على منهج أبيه في التضييق على الشيخ.

ثم جاء بعده ابنه يُونْفا الذي كان من تلامذة الشيخ لكنه انقلب عليه، وأمر في سلطنته بثلاثة أوامر:

١- ألا يعظ إلا الشيخ.

٢- ألا يتعمم الرجال ولا تختمر النساء.

٣- أن كل من أسلم و لم يكن الإسلام دين آبائه وأجداده فيرتد إلى ما كان عليه !! وكانت هذه الأخيرة قاصمة الظهر التي لا يُصبر عليها، فأعلن الشيخ عثمان لجماعته وجوب الخروج من مملكة يونفا هذا وفعلاً خرجوا إلى ولاية أخرى وكان عددهم خمسة آلاف، وانضم إليهم مثلهم فصاروا عشرة آلاف، وسأل الله تعالى أن يريه دولة الإسلام في البلاد السودانية.

وهنا صار يونفا يضيق على الخارجين إلى الشيخ عثمان بأنواع من التضييق حتى انتهى الأمر إلى إعلان الشيخ عثمان وجوب جهاد يونفا وإيقاف مظالمه، وبايعه جماعته على الجهاد واستعدوا بالسلاح فهجم عليه يونفا بجيشه فهزمه الله هزيمة منكرة واستولت الجماعة على بلاده.

ثم إن سلاطين الهوسا تسامعوا بقوة جماعة الشيخ عثمان فضايقوا من كان منهم في بلادهم، وأعلن بعضهم الحرب على الجماعة، فابتدأت سلسلة طويلة صعبة من المعارك انتهت باستيلاء الشيخ وجماعته على كل بلاد الهوسا وأجزاء من بلاد الكاميرون الآن، وأجزاء من تشاد، وأسسوا دولة ضخمة مساحتها تقريباً ١٥٠ ألف ميل، وسكانها قرابة عشرين مليوناً، وبويع الشيخ عثمان خليفة على هذه الدولة التي سميت بمملكة سوكوتو الإسلامية، وكانت هذه سابقة في تاريخ الدعوات الإسلامية الحديثة.

وعين الشيخ عثمان ابنه العالم محمداً بَلُّو أميراً عاماً على شرق البلاد، وأخاه العالم عبدالله على غربها، وقسم بلاده إلى ثلاثين ولاية، وجعل عليها أمراء من أتباعه.

وفي ذلك الوقت برز خلاف بين عبدالله وأخيه الشيخ عثمان في جملة أمور منها: مسألة لبس الأمراء الملابس التي فيها ذهب وحرير

مما غنموه من أعدائهم لكن ليس على وجه الاستدامة بل يلبسونها إظهاراً للفرح ثم يترعونها، ومنها مسألة استعمال الطبول في أفراح الانتصار، ومنها مسألة تصور الأمراء بصورة عظيمة إذا خرجوا إلى رعاياهم، وعدد آخر من المسائل، فأجابه الشيخ عثمان أن عمر رضي الله عنه ألبس سراقة سواري كسرى وتاجه وهي من ذهب ليرى الصحابة تحقق المعجزة النبوية، وهؤلاء الأمراء يلبسون تلك الملابس إظهاراً لنعمة الله ثم يترعونها، وأما المسألة الثانية والثالثة فقد بين له أن البيئة الهوساوية متعلقة بهذه المظاهر ولا تُساس الرعية إلا بها، والأمر فيه خلاف وفيه سعة، وهكذا بين له ما اشتبه عليه في كل المسائل، لكن عبدالله لم يقتنع وأراد الخروج إلى المدينة النبوية المنورة فمنعه أهل كانو وقالوا له إن أخاك بحاجة لمؤازرتك ومساعدتك فبقي.

ثم إن الشيخ عثمان توفي و لم يعين أحداً بعده وكان ذلك في سنة ١٨١٧/١٢٣٢ عن أربع وستين سنة تقريباً، وولى أهل الحل والعقد ابنه محمداً بَلُّو في مكانه، وبَلُّو بلغة الفُلاّني هو المعين والمساعد،

وقد رضي بذلك عمه عبدالله بعد تمنع وبايعه، واستقر الأمر لمحمد الذي حكم قرابة إحدى وعشرين سنة واشتهر باسم أمير المؤمنين.

ثم توفي سنة ١٢٥٣، ثم جاء بعده ابنه، ومن ثم حفيده، وبقيت الدولة مائة عام من سنة ١٨٠٣ إلى ١٩٠٣ حيث أسقطها الإنجليز سنة ١٩٠٣ في عهد الطاهر أحد أحفاد الشيخ عثمان.

آثار دعوة الشيخ عثمان:

١. القضاء على الوثنية في كل السودان تقريباً، والسودان الذي أعنيه هنا هو السودان التاريخي من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي كما بينت سابقاً، وهذا إنجاز ضخم جداً.
٢. أعاد كثيراً من الناس إلى حظيرة الشرع والالتزام بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً، وقضى على كثير من البدع.
٣. أنشأ دولة قوية مترامية الأطراف يهابها أعداء الإسلام، واستمرت شامخة مائة عام، ووضع لها دستوراً محكماً قوياً.

٤. أنتجت دعوة الشيخ عثمان نتاجاً ثقافياً ضخماً، فقد ترك مائة وأربعين مؤلفاً تقريباً في الجوانب العقدية والسياسية والاقتصادية والفقهية وغيرها، وتخرج على يديه مائة عالم مجتهد في المذهب المالكي، وهذا منه عمل عظيم على كثرة مشاغله وتشعب اهتماماته.

٥. ضبط مسألة الغلو في التكفير، وألف خمسين مؤلفاً تقريباً في الرد على من ذهب إلى التكفير بالمعصية ومن ضمنهم شيخه الأثير جبريل بن عمر الذي أحبه كثيراً حتى قال فيه:

إن قيل فيّ بحسن الظن ما قيلا فأنا موجة من أمواج جبريلا

٦. حرر دارفور من الوثنية، ولذلك قصة عجيبة، وذلك أنه قبل أن يموت وصى أتباعه أنه إذا ظهر مهدي السودان فلينصره الفُلاّن ــ الفلاته ــ وكان هذا كرامة له، إذ بعد موته بمدة طويلة ظهر المهدي في السودان، ونصره الفُلان بالهجرة إليه خاصة بعد ضعف دولتهم، واستقروا في وادي النيل ودارفور.

ويقول رئيس السودان السابق إسماعيل الأزهري للشيخ عمر محمد فلاته المجاور في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمدرس بحرمها الشريف: لولا أن الفُلان سكنوا دارفور لتحولت المنطقة إلى الوثنية كما حصل في جنوب السودان.

وقد كان المهدي السوداني يحب هؤلاء الفلاته حباً جماً، وتزوج منهم، وكان خليفته عبدالله التعايشي منهم، رحمهم الله تعالى.

وفي النهاية أقول:

إن هذه الثمرات الجليلة كانت لداعية عظيم، نصر الله تعالى به الدين في تلك البلاد، وقضى على كثير من البدع، وحمى الناس من الوثنية، وجمع بين العلم والدعوة والجهاد ورئاسة الدولة على وجه مبدع جليل، وهو أمر جديد على دعاة العصر الحديث، وصدق الله تعالى:M p q r s t v w x y L.

٣- المجاهد الداغستاني

الإمـــام شامـــل

١٢١٢ - ١٢٨٨

١٧٩٧ - ١٨٧١

هو مجاهد من المجاهدين العظام في زمن اشتدت فيه حاجتنا إلى المجاهدين العظماء، تعرض للشهادة في مواطنها، وأبى إلا أن يغترف من كأسها الطاهر المطهر، لكنه مات على فراشه بعد ملحمة طويلة، ومعارك جليلة أذاق فيها الروس القياصرة الذل والهوان، وهزموا أمامه مراراً، هذا وروسيا آنذاك من القوى العالمية في الطبقة الأولى، وكانت

في أوج عنفوانها وغطرستها، قد هزمت نابليون وتقدمت حتى دخلت باريس سنة ١٨١٦ !!

والإمام شامل من داغستان، ولد في قرية منها سنة ١٧٩٧/١٢١٢، ونشأ فيها نشأة الأبطال الفرسان على أنه درس بعض العلوم على مشايخ من بلاده.

وداغستان جزء من منطقة القوقاز الشمالي الذي يضم معها الشيشان والانجوش وأوسيتيا، وهذه المنطقة مواجهة تماماً للروس، وهناك القوقاز الأوسط الذي هو جمهورية جورجيا الآن وكانت تعرف عند المسلمين بالكرج، وهناك القوقاز الجنوبي الذي فيه أذربيجان وأرمينيا.

والقوقاز غزاه المسلمون الأوائل وثبتوا في جنوبه وفي مناطق في شمال غربه، لكن لوعورة المنطقة ولكثرة طوائف وأديان ومذاهب أهلها لم يستطع المسلمون أن يتحركوا شمالاً، وغاية ما فعلوه أن سراقة

بن عمرو الذي كان في زمن الخليفة الأموي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية استطاع دخول تفليس (تبليس، عاصمة جورجيا اليوم).

ثم إن التتار ورأسهم تيمورلنك في مرحلة تحولهم إلى الإسلام نشروا الإسلام في أجزاء من الشيشان والداغستان وأنجوش.

ثم أرسلت الدولة العثمانية في مرحلة متأخرة نسبياً دعاة إلى الشيشان وأقنعوا جماعات من الشيشانيين بالتحول إلى الإسلام بعد أن كانوا وثنيين وكان هذا من قرابة ثلاثة قرون من الآن، وكان ذاك عملاً رائعاً في منطقة وعرة ضخمة بها أشجار بلوط ضخمة يبلغ ارتفاع بعضها مائتين وثمانين قدماً ومحيطها خمسة وثلاثين قدماً !! والمنطقة مليئة بهذه الأشجار، وبها جبال وعرة مما يصعب أي عمل عسكري فيها، وهذا من فضل الله على أولئك الدعاة.

ومنذ أن دخل الشيشانيون إلى الإسلام عمدوا إلى الدفاع عن الإسلام ورفع لوائه إلى يوم الناس هذا، ولم تفلح معهم كل محاولات التغريب والتنصير، وهناك شعوب دخلت قبلهم في الإسلام لكنها أجبرت على التحول إلى النصرانية عندما اجتاح بلادهم الروس القياصرة مثل شعب الكرج (جورجيا) التي دخلها الإسلام منذ عصر التابعين، لكن الشيشانيين ثبتوا ولله الحمد.

وعظماء القوقاز -منذ دخلها الإسلام إلى هذا العصر- جملة وافرة، وعدد هائل لكن أين تراجمهم؟ وما لنا لا نعرف منهم إلا أفراداً معدودين على أصابع اليد الواحدة؟ أهذا جزاء أولئك العظماء؟ لكن يبدوا أنه قد اجتمع عليهم إهمال المسلمين وقلة اكتراثهم مع عوامل الخراب التي مرت على المنطقة فأفنت تواريخها وجهّلت أهلها.

كان لشامل صاحب يكبره بخمس سنوات يسمى غازي محمد ملا، وكان رفيق دربه، فكانا يدرسان معاً على المشايخ، ويدوران

على المساجد، وابتدآ الجهاد معاً، وكان لبدء الجهاد سبب مؤثر وهو أن غازي ملا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ثلاث مرات وهو يدعوه للجهاد ضد الروس.

والروس آنذاك هم الذين ابتدأوا بالاعتداء حيث كانت القيصرة كاترين تملكهم فأرسلت الجيوش إلى تلك المناطق، وتتابع القياصرة من بعدها على إرسال الجيوش.

ولابتداء الضعف في الدولة العثمانية آنذاك -قبل قرابة مائتين وخمسين سنة من الآن- استطاع القياصرة أن يثبتوا احتلالهم لبعض المناطق هناك، وإضافة إلى ابتداء الضعف في الدولة العثمانية كان هناك انعدام في تنسيق المواقف بينها وبين الدولة الصفوية في إيران بسبب تشيعها، وكان هناك دولة قبرطاي الإسلامية وهم من الشراكسة و لم ينسقوا أيضاً مع الحركة الجهادية ضد الروس، فأدى كل ذلك إلى احتلال الروس بعض المناطق في القوقاز، وكان سائر العالم الإسلامي يغط في نوم عميق أو مشغولاً بمشكلاته الداخلية.

تقدمت الدولة الروسية لتحتل القوقاز وكان يدفعها سببان رئيسان: أولاهما أن القوقاز طريق إلى التركستان فإذا أخذوا القوقاز سهل عليهم الاستيلاء على التركستان، ومن ثم يتقدمون لأخذ الهند من المغول المسلمين –وهذا هو الدافع الآخر- وفعلاً ما إن أسقطوا دولة شامل إلا ودخلوا طشقند عاصمة أوزبكستان إحدى جمهوريات التركستان، ولم يستغرق منهم هذا سوى سنة واحدة فقط بعد سقوط القوقاز.

لما رأى غازي محمد ملا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ثلاث مرات يأمره ببدء الجهاد تحدث إلى الداغستانيين بهذا فأجابوه وجاهد الروس ثلاث سنوات من سنة ١٨٢٩، ثم حوصر في بلدته غمري هو وشامل ومن معهما، فقتل غازي محمد ملا، وهرب شامل.

ثم إن شاملاً استطاع أن يجمع فلول الداغستانيين ويبتدئ الجهاد ضد الروس سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٩، وفي تلك السنة دل

عليه بعض أمراء الداغستان الخونة وحاصره الروس بقوة ضخمة فيها مدافع لم يكن يملك الداغستانيون شيئاً حيالها حيث كان الروس يدكون البيوت بها دكاً، لكن شاملاً استطاع الهرب أيضاً.

وبعد تفكير ومراجعة لأحواله في ظل خيانة أمراء الداغستان قرر التوجه إلى الشيشان، وهو معقل حصين جبلي كان أهله أقوى إيماناً من الداغستانيين وأوفى ذمة، وطبيعة الشعب الشيشاني الصعبة لا تسمح لهم بأن يرضخ بعضهم لبعض فكانوا بحاجة لرجل غريب يُسلسون له قيادهم فكان هذا هو الإمام شامل الذي استطاع أن يصل إلى القسم الجبلي من الشيشان، وجمع حوله فلول أتباعه من الداغستانيين الذين انهزموا من الروس، وبايعه أمراء الشيشان وقبائلهم، وأعلنوه إماماً عليهم له حق السمع والطاعة والجهاد معه في سبيل الله تعالى.

لما سمع القيصر بهروب شامل وما صنعه في الشيشان استشاط غضباً وطلب من قائده حسم المعركة مع شامل، فأرسل الجيوش إلى

الشيشان وعلى رأسها أعظم القادة وأكثرهم خبرة في الحروب مع الداغستانيين ومع نابليون، وقاومهم شامل ومن معه حتى اضطر القيصر لإرسال حملة عرفت بحملة دارجو وهي البلدة التي كان يتحصن فيها شامل وأمراؤه، وكان حولها غابات كثيفة جداً، وكان قائد الحملة يسمى جراد لكنه لم يتمكن من الوصول إلى دارجو حيث كمن له جيش شامل على أشجار البلوط الضخمة التي سبق وصفها، فكان فوق كل شجرة ٤٠ – ٥٠ من العساكر وكانوا يسكبون الزيت المغلي على الروس، ويرموهم بالحراب والبنادق فحصدوا كثيراً منهم وفشلت الحملة وعادت أدراجها بعد خسائر ثقيلة.

ثم جرت مناوشات بين شامل وجراد متفرقة.

وبعد ثلاث سنوات في سنة ١٨٤٥ أرسل القيصر حملة ضخمة قوامها ثلاثون ألف رجل بقيادة ضابط روسي فذّ اسمه روندسوف، فمكر به شامل حيث جعله يتقدم في الأدغال إلى أن وصل إلى البلدة التي كان يتحصن بها شامل، وترك فيها مجموعات

قليلة لمقاومة روندسوف الذي تغلب عليها، وسوّى بيوت البلد بالأرض بمدفعيته الضخمة، وفي طريق عودته وكان فرحاً مسروراً بما صنع كان الشيشانيون ينتظرون جيشه في الليل فانقضوا عليه كالأسود، وقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفاً فلم ينج إلا خمسة آلاف نصفهم جرحى، وقتل قواد روس كبار في المعركة.

ـــ قد كان شامل ومن معه من الصوفية النقشبندية الذين اشتهروا بالجهاد، وهي من أصفى الفرق الصوفية ومن أقلها بدعاً، وكان شامل ومن معه يسمون أنفسهم بالحركة المريدية، وكانت أصول الحركة المريدية تقوم على الشدة والقوة والفروسية وعلى الأذكار والأوراد، ووضع شامل لجيشه نشيداً جهادياً جميلاً ينشدونه في معاركهم، وقد وصفتهم الكاتبة الأمريكية ليزا في كتابها: "سيوف الجنة" وقالت فيه: إن الشيشانيين كانوا يتقدمون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم، وينشدون أنشودة الموت التي تبعث فيهم الحماس والقوة.

بعد حملة دارجو الثانية عمد الروس إلى خطة ماكرة حيث لاينوا أمراء الشيشان ورعاهم، وأمراء الداغستان فكانوا إذا أمسكوا بهم يطلقونهم ويكافئونهم بالأموال، وكانوا في المقابل يقسون على المجاهدين جداً، وبهذا الصنيع تأثر كثير من عامة الشيشانيين والداغستانيين، وكان هذا من أوائل بوادر الإخفاق الذي حدث لشامل بعد ذلك.

ارتكب شامل أخطاء عديدة، فقد كان رجلاً عسكرياً قوياً، شديد الشكيمة، صعب المراس، فكان يقسو أحياناً على أتباعه ويفرض حركته المريدية على الشيشانيين، فكان هذا يوجد نوعاً من التململ، فهذا خطأه الأول.

وثاني أخطائه الكبيرة أنه كان هناك رجل داغستاني اسمه مراد عدو لشامل في الداغستان فأصلح بينهما الشيشانيون وصار نائباً لشامل في الداغستان، وكانت هناك طائفة من أمراء الداغستان حسدة

لمراد فأوغروا صدر شامل عليه وأقنعوه أن يولي ابنه غازي محمداً ولاية العهد من بعده ففعل شامل وأخذ البيعة من الأمراء الشيشانيين والداغستانيين، وهذا الأمر أغضب الحاج مراد جداً فاستقل عن شامل والتحق بالروس، وهذه خيانة كبيرة لكن الحسد والحقد الذين استوليا على مراد وسوء التصرف من شامل أدى بمراد إلى هذا الذي صنعه، على أن الروس بعد ذلك غدروا به وسجنوه ثم قتلوه، وهي نهاية أليمة لرجل دوخ الروس عشر سنوات وكان له عمل جهادي جيد لكن أعوذ بالله من الحقد والحسد.

قسم شامل حركته المريدية تقسيماً بارعاً فكان له مائة نائب وألف مرشد ينتشرون في القوقاز الشمالي، وكان الحاج مراد أحد النواب الكبار والساعد الأيمن لشامل الذي فقده في وقت كان في أمس الحاجة إليه.

استمر المد والجزر بين شامل والروس سنوات طويلة، وقتل منهم جنوداً وقادة كثيرين، وهذا يعد عملاً رائعاً بالنسبة لقوة

الشيشان الصغيرة أمام جحافل الروس لكنه الإيمان الذي يصنع العجائب.

ومن المعارك التي تستحق الذكر -أيضاً- أن الروس أرسلوا ولي عهد القيصر في جيش فيه كبار القادة وثلاثون ألف جندي، كل هؤلاء توجهوا إلى بلدة صغيرة، فغطى الشيشان أبواب بيوتهم ونوافذهم بالطين فصارت البيوت كتلة واحدة، وغيروا سقوف بيوتهم إلى سقوف خفيفة رقيقة وغطوها بالتراب لتبدو كأنها هي السقوف الأصلية، فكان الروس يقفزون فوق السقوف فيقعون في البيوت ليجدوا الشيشانيين المريدين أو المجاهدين في انتظارهم فيعملون فيهم ذبحاً وقتلاً، فرجع الجيش خائباً خاسراً بسبب هذه الحيلة الذكية.

لكن شاملاً لم يكن يستطيع أن يصمد أمام هذه الحملات المتتابعة أكثر مما صمد، فقد بقي في الجهاد قرابة ثلاثين عاماً، لذا كانت نهاية قصة الجهاد العظيمة هذه أن استسلم للروس بعد أن حوصر في خمسمائة من أتباعه فقط من قبل جيش يقدر بأربعين ألف

جندي، لأنه رأى أن حقن دماء من بقي من أتباعه أولى له بعد أنه خانه عدد من أمراء الداغستان وخانته دولة الشراكسة القبرطاي، وسلم نفسه للروس سنة ١٨٥٩ -بعد ممانعة كبيرة من بعض أتباعه- فأخذوه إلى روسيا فبقي فيها مكرماً تسع سنوات من قبل القيصر والقادة.

ثم طلب من القيصر أن يسمح له بالحج فوافق بعد تردد، فرافقته حملة روسية إلى أن خرج من حدودهم، فحج ثم نزل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقر فيها مجاوراً ثلاث سنوات ثم انتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٧١ بعد جهاد دام قرابة ثلاثين سنة، ووقف صخرة شماء أمام أطماع القياصرة ونواياهم التوسعية في المنطقة القوقازية والتركستانية.

وكان من أهم أسباب إخفاق الحركة الجهادية المريدية الشاملية خيانات عدد من أمراء الداغستان، وقسوة شامل على أتباعه

في بعض الأحيان وعلى سائر الشيشانيين فانفض عنه كثير منهم، وهناك عامل مهم هو عدم تنسيق الدولة العثمانية معه لضعفها آنذاك.

بعد استسلام شامل لم يستسلم الشيشانيون بل قاموا بثورات متتابعة، ثم إنه لما جاءت الدولة البلشفية انتقمت من الشيشانيين فاتهمهم ستالين بمساعدة الألمان فهجر كثيراً منهم، ثم عادوا إلى بلادهم سنة ١٩٥٧ بعد هلاك ستالين، واليوم الشيشانيون ما زالوا يكبدون الروس الخسائر الفادحة، و لم تهنأ روسيا بالشيشان بعد شامل إلى يوم الناس هذا !! لكن الشيشانيين سيهنأون بالنصر قريباً إن شاء الله.

٤ - الداعيـــة العجيب

عبد الرشيد إبراهيم

١٢٦٢ - ١٣٦٣

١٨٤٦ - ١٩٤٤

إن الحديث عن هذا الداعية يملأ النفس إيماناً وثقة بنصـــر الله تعالى لعبيده، حيث يرزقهم من آونة إلى أخرى برجال عظماء يعطون للإسلام بلا حدود، ويقدمون عصارة جهدهم ووقتهم وحياتهم لهـــذا الدين، وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن أهلهم وأولادهـــم ووظـــائفهم ومناصبهم لم تظفر بشيء ذي بال، وهذا من أجل إخلاصهم ودأبهـــم وعطائهم كل شيء لدينهم فماذا بقي لغيره ؟! فـــالله الله في أمثـــال

هؤلاء، فلابد للأجيال أن تطلع على سيرهم، وتقف على أعمالهم وآثارهم، وتنهل من معين جهادهم وتضحياتهم، والناشئة اليوم لا تعرض عليهم سير العظماء على الوجه الذي ينبغي وتبرأ به الذمة، إنما يعرض لهم كل تافه وتافهة من الرويبضات المسمين نجوماً وأبطالاً، ومن الواجب أن يحاكموا على ما اقترفوه من جرائم وإفساد في الأرض لا أن يكرموا ويرفعوا على رؤوس الأشهاد !!

هذا الداعية الكبير قرمي قازانيّ تتري عاش في روسيا التي استولت قديماً على بلادهم، ولد سنة ١٨٤٦م ببلدة تارا في سيبريا، وطلب العلم على مشايخ في بلاده، ثم لما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة ذهب إلى الحرمين ليمكث في الأراضي الحجازية عشرين سنة يطلب العلم، وليعلن برحلته تلك ابتداء سلسلة من الرحلات الطويلة على مدار تسعين سنة تقريباً !! فأين ارتحل؟ ولماذا؟ وماذا حصل في رحلاته؟

كل هذا كتبه في جزأين نشرا في تركيا قديماً بعنـــوان "عـــالم إسلام" وصدق الأستاذ الكبير عبدالوهاب عزام حين قارن بين رحلته تلك المليئة بالفوائد ورحلة ابن بطوطـــة المليئـــة بالخرافـــات والمجـــد الشخصي والحكايات التي ليس في أكثرها عبرة وعظة مناسبة لأبنـــاء الزمان، ثم تحسر على اختفاء رحلة عبد الرشيد إبراهيم من المكتبات، وامتلائها برحلة ابن بطوطة !! هذا معنى كلامه رحمه الله الذي نقلـــه الأستاذ الأديب محمد رجب البيومي حفظه الله ونفع بعلمه.

وسخر الله اليوم لرحلته هذه الأستاذ الكبير صالح الســـامرائي العراقي ثم الياباني، فاعتنى بها، وهي في طريقها للخروج إلى القراء بحلة عربية قشيبة إن شاء الله تعالى.

مكث داعيتنا في الحجاز عشرين سنة ينهل من العلوم، ثم عاد إلى روسيا ليدعو إلى الله تعالى، وترامت أخباره إلى أسماع المســـلمين فتوافدوا إليه واجتمعوا عليه فضيقت عليه السلطات الروسية القيصرية آنذاك فهرب إلى تركيا.

ولما هزمت اليابان القياصرة الروس وخفت حـدة ظلمهم وانكسرت شوكتهم عاد إلى بلاده ونشر رسائل تدعو إلى الله تعـالى، وتلقفها الناس وقبلوها.

لكن الأحداث المتتالية في روسيا أوحت إليه بالارتحال، فشد رحاله عازماً الذهاب في رحلة طويلة إلى اليابان ماراً بمنشوريا ومنغوليا والصين وكوريا ثم اليابان، ثم الملايو ولم يكن آنذاك قد حصل التقسيم السياسي لها إلى عدة دول: ماليزيا واندونيسيا وبروناي وسنغافورة، ثم الهند، ثم مر بجزيرة العرب وحج، وارتحل من هناك إلى بـلاد الشـام بالقطار العثماني الذي كان قد افتتح قريباً، ثم سار إلى بيروت وارتحل منها إلى اسطنبول، وكان ذلك سنة ١٩٠٧م.

ومن غرائب رحلته -التي فيها عبر وعظات كثيرة جداً- مـا يلي:

١. مَرّ على كوريا، فوجد الكوريين يعملون حمالين عند الصينيين واليابانيين، ويقضون حاجاهم في الطرقات، فإذا جاء الليل أووا إلى حظائر للنوم، فقابل أحد الكوريين في القطار فسأله عن مستقبل الأمة الكورية، وكان من دأب الشيخ سؤال الناس عن مستقبل أممهم، أو أنه هو الذي ينظر في أوضاع الأمم ويتوقع أحوالاً ستمر بها، فرد الكوري باكياً: نحن أمة كالبهائم، نحن أمة لا مستقبل لها!!

وقد انتابني مشاعر غريبة وأنا أقرأ هذا في رحلته، فكوريا قبل أقل من مائة عام لم يكن أحد يتوقع لها أن تصل إلى شيء من الحضارة المادية، واليوم كوريا تصل إلى مستويات عالية في عالم التقنية والإنتاج، وهي أمة صغيرة قليلة بلا تاريخ ولا دين ولا حضارة سابقة، وكدت أبكي وأنا أتذكر أمتي ذات الحضارة العظيمة والتاريخ الرائع، والدين السامي الجليل، والتراث الذي ليس مثله تراث في الدنيا، تذكرت كل ذلك وقارنته بما نحن عليه اليوم من تخلف وضعف، وأين حالنا المتردي من حال كوريا، وللمقارنة فقط أقول إن براءات الاختراع التي ثبتت لكوريا من سنة ١٤٠٠-١٤٢٠/ ١٩٨٠-

٢٠٠٠ كانت قرابة أربع عشرة ألف براءة، أما الدول العربية مجتمعة فكان ما ثبت لها في المدة نفسها قرابة أربعمائة براءة اختراع !! إنا لله وإنا إليه راجعون.

٢. مكث مدة في اليابان، وأعجب بها أيما إعجاب، بنظافتها، وأخلاق أهلها وأدبهم، وحسن استقبالهم للضيف، وصراحتهم وعدم خديعتهم، والنظام الذي يسود حياتهم، والأهم من ذلك كله استعدادهم الكبير للإسلام، وقد استقر ذلك في نفسه بعد مقابلات عديدة لأمراء ووزراء وكبراء.

وهذا الداعية العجيب لم يهدأ في رحلته اليابانية، فقد زار المرافق والسجون والبرلمان، وزار الجامعات والمدارس والمراكز التجارية والبريد والأسواق والجمعيات، واطلع على علوم اليابانيين وحرفهم وطرائق عيشهم وزار الناس على مختلف طبقاتهم، وكان يجلس إليهم، ويتحدث الساعات الطويلة معهم، ويقبل دعوتهم، وهذا شأن الداعية الذي يريد أن يؤثر في العقول والقلوب، وقد حسّن إليهم الإسلام بذكر محاسنه وفضائله، وكان لكل ذلك أثره فيما بعد، وقد أسلم عدد

يسير من اليابانيين في هذه الرحلة الأولى، وتعلم بهمته مـــن اللغـــة في وقت يسير ما استطاع بها أن يتفاهم مع القوم هنالك.

ثم غادر اليابان وفي عزمه الرجوع إليها، وعاد بعد مدة ليقيم فيها إقامة طويلة وليتوفى فيها سنة ١٩٤٤/١٣٦٤ رحمه الله تعالى عن قرابة مائة سنة، وكان من آثار عمله أن اعتـــرف اليابـــان بالـــدين الإسلامي، وأنشئت عدة مساجد فيها، وأسلم عدد من أهلها، وكان له فيها قصة جليلة طويلة أحيل من يريد معرفتها إلى مذكراته، رحمـــه الله تعالى، لكني أجتزئ هذا النص الجليل من ترجمة الأستاذ الـــدكتور محمد رجب البيومي له حيث قال:

"إذا ذهب مصل إلى مسجد الإسلام بطوكيو عجـــب حـــين يرى الرجل الأسطورة في الخامسة والتسعين من عمره ينهض قبـــل شروق الفجر فيقيم صلاة التهجد، ثم يؤم الناس في صلاة الصـــبح، ولا يكاد يفرغ من تسبيحه حتى يتحلق عليه جماعة من حوارييـــه ليشرح لهم سور القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا

أشرقت الشمس انتقل إلى حجرة الدراسة الملحقة بالمسجد ليجد نفراً من صبيان المسلمين يستقبلونه فيقوم لهم بدور المعلم، يكتب لهذا لوحه، ويسمع من ذلك سورته، ثم لا يستنكف أن يكون في هذه السن المتقدمة وبعد هذا الجهاد المتواصل معلم صبيان تُقرأ على يديه مبادئ اللغة العربية ويُحفظ الناشئة قصار السور من جزء عم، وبعض المأثور من حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو من كبار زعماء الإسلام في ثلاثة أجيال ناهزت القرن!!"

٣. كتب بعض القساوسة العاملين في الصين إلى وزارة خارجية بلاده يخبرها أن النصرانية تعاني من جهود عدو يزحف عليها بقوته، فبعثت وزارة الخارجية تسأل عن هذا العدو فإذا بالإجابة المفاجئة أنه عبدالرشيد إبراهيم الذي حقق بعض المكاسب في الصين أمام النصرانية الزاحفة!! هذا وقد دار الرجل في الصين، والتقى ببعض المسلمين فيها، وكانت له جهود هنالك جيدة، فرحمه الله وغفر له.

٤. شارك في حرب طرابلس مع الليبيين ضد الإيطـاليين الغـزاة الذين أقبلوا كالجراد المنتشر ينشرون الخـراب والفسـاد في الأرض، وكان ذلك سنة ١٩١٢، وكان آنذاك قريبـاً مـن السبعين من عمره !! لكنه كان من صنف من الرجال عظـيم لا يقنع بشيء إلا أن يرى انتصار الإسلام وعلو رايته في كل مكان.

٥. ثم ذهب إلى ألمانيا ليكون بجوار أسرى الترك في الحرب العالمية الأولى ليخفف من أحزانهم، ويضمد جراحهم.

٦. كل هذا كان يعمله بقروش قليلة، وقد عانى كثيراً بسبب فقره المدقع، ولم يكن يجد ما يركب به في الباخرة أو القطار أحياناً، وإذا ركب ففي الدرجة الثالثة، وقد ظـل في سـبيل نشـر الإسلام بعيداً عن أهله سنوات طوالاً، فما أعظم هذا الرجـل وما أحسن سيرته.

هذه شذرات من سيرة هذا الإمام الداعية الكبير الذي بخلت أكثر المصادر بإيراد سيرته، والتعريف بعمله، وهذه علة كـبيرة في كتـب وتراجم الرجال المعاصرين وسير حياتهم الجليلة، وأرى -والله أعلـم-

أن السبب هو قعود همة أكثر الباحثين والمنقبين عــن التــراث، وإلا فكيف يُغفل عن عظيم مثل هذا، ألا وإن في رحلته الجليلــة "عــالم إسلام" -التي ننتظر خروجها بالعربية بفارغ الصبر- معالم كثيرة مــن جهاده واجتهاده، وتجرده وإخلاصه، وأقواله وأعماله، وأحسب أنــه مات يوم مات وهو في ذروة سامقة من العمل والجــد والاجتــهاد أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً، فاللــهم أعــل درجته، وارفع مترلته، وأسبغ عليه من شآبيب رحمتــك ومغفرتــك، وعرف المسلمين بسيرته، وانشر عطر عمله، وأريج كلامه.

٥- الأمـــير المجاهـــد

محمد بن عبدالكريم الخطابي

١٣٠١ - ١٣٨٢

١٨٨٣ - ١٩٦٢

قاض شرعي، ومدرس، وصحفي، ومجاهد، وأمير، ورئيس دولة، نعم هذه الصفات اجتمعت كلها في شخصية فريدة هي شخصية الأمير الكبير عبدالكريم الخطابي رحمه الله تعالى، ولئن سألت الناس عنه في زماننا هذا لما عرفه إلا القليل، وهذه مصيبة كبرى من مصائبنا؛ إذ كم للإسلام من أبطال عميت سيرهم على أكثر أهل زماننا هذا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولد في بلدة أَجْدِير في الريف المغربي بين مِلِيْلَة وتطوان سنة ١٨٨٣/١٣٠١ ودرس القرآن والعربية، وذهب لإكمال دراسته، إلى مليلة وجامعة القرويين بفاس، وعاد منها ليعين نائباً للقاضي في مليلة ثم قاضياً ثم صار أقضى القضاة (قاضي القضاة) هذا وعمره آنذاك لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، وهذا دليل على نبوغ مبكر، وكتب في الصحف، ودرس في بعض المدارس، وكان أبوه أميراً على البربر الذين في الريف المغربي، وجاهد مع أبيه في الحرب العالمية الأولى مع الدولة العثمانية وذلك سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥.

واعتقل الاسبان الذين كانت بأيديهم سبتة ومليلة -وهي إلى الآن بأيديهم، وهذه من المصائب التي لا يعرفها أكثر المسلمين- اعتقلوا الخطابي ٤ أشهر ليضغطوا على أبيه حتى يكف عن الجهاد، وذلك أن الاسبان كانوا يريدون أن يتوسعوا ويخرجوا من سبتة ومليلة ليحتلوا باقي مناطق المغرب الأقصى الشمالية، لكنهم لما حققوا مع الابن فاجأهم بألوان من العزة والثبات، وأخبرهم أنه لا مناص له ولا

لأبيه إلا أن يقاتلوا مع الدولة العثمانية، فاضطروا لسجنه لكنه تدلى بحبل من السجن ليفر إلا أن الحبل كان قصيراً فتأرجح في الهواء فرمى بنفسه فانكسرت ساقه وأغمي عليه من الألم فعثر عليه الإسبان فأعادوه إلى السجن حيث مكث أربعة أشهر ثم أطلقوا سراحه.

قتل والده في معركة مع الإسبان سنة ١٩٢٠ وقيل مات مسموماً فالله أعلم بما كان من ذلك.

وابتدأ الأمير محمد سلسلة المعارك مع الإسبان وكان معه أخوه الذي نفي معه فيما بعد، وعمه عبدالسلام، فابتدأهم الأمير بمناوشات أسفرت عن انتصاره وطرد الإسبان من حاميتين مهمتين بل كانت إحداهما ذات موقع استراتيجي فريد، فغضب الإسبان وأرسلوا له جيشاً من ستين ألف جندي وطائرات وعتاد ضخم لكنهم حذروا القائد العام للحملة من قوة الخطابي وبأسه فاستهزأ قائلاً: أنا ذاهب لأمسح حذائي في الريف !! وإسبانيا آنذاك ثالث قوة أوروبية، وهي

وسائر حليفاتها الأوروبيات قد انتصرت في الحرب العالمية الأولى مما جعل زهوها وغرورها يعظم ويتضاعف.

ــ ولما اقتربت الحملة من بلدة أنوال بالريف كمن لها الخطابي في قوة من ثلاثة آلاف فمزق جيش الإسبان تمزيقاً مدهشاً، حيث قتل منهم ما يزيد على ثمانية عشر ألفاً، وأسر الباقي حتى لم يسلم من الجيش سوى ستمائة فقط، وغنم عشرين ألف بندقية، وأربعمائة رشاش ومليون طلقة، وطائرتين !! وتفرق القتلى على مساحة خمسة أميال.

ونصر الله عبده الخطابي نصراً عجيباً في وقت غريب، في زمن لا يتوقع فيه أحد أن ينتصر المسلمون على جيش أوروبي مسلح بسلاح حديث، لكن الحماسة الإيمانية الدافقة التي كانت في قلب الخطابي وجيشه، ونَصْر الله تعالى له أولاً وآخراً قلب كل المعادلات، وأخرس كل الألسنة.

وكان وقع الهزيمة في أوروبا مدوياً، واستغل الخطابي الفرصة فطهر الريف المغربي من الاسبان وحصرهم في سبتة ومليلة فقط وهذا باقٍ كذلك إلى يوم الناس هذا، وأقام إمارة إسلامية مساحتها ٢٠.٠٠٠ كم٢ وسكانها قرابة نصف مليون !!

ـــ وأقام في إمارته أحكام الإسلام، ووطد دعائم الأمن، وأنشأ المدارس والمستشفيات، وأرسل البعثات إلى أوروبا، وقلل جداً من حوادث الثأر بين القبائل حتى أن الرجل كان يلقى قاتل أبيه وأخيه في المعارك مع إسبانيا فلا يمسه بسوء؛ وذلك لأن الخطابي عمل مجلس شورى لإدارة الإمارة من ثمانين من رجال القبائل وأوكل إليه إدارة الأموال الجزيلة التي حصل عليها من فداء أسرى الاسبان، ومن الزكاة الشرعية التي يجمعها من رعيته، وكان يحاول إفهام رؤساء القبائل مؤامرات اسبانيا وفرنسا، وأنهما سبب كبير من أسباب تجهيل المغاربة، وهذا حديث يسمعه أولئك للمرة الأولى، فإنهم كانوا مشغولين

بالثارات والقتال من أجل سفساف الأمور ودناياها، فتركوا الثأر بهذه الطريقة.

وأرسى الأمير دعائم نظام تجنيد فريد حيث أوجب على كل الذكور الذين أعمارهم ما بين ١٦-٥٥ أن يتجندوا كل شهر خمسة عشر يوماً ويعودوا إلى وظائفهم وأهليهم خمسة عشر يوماً وهكذا دواليك كل شهر، فضمن وجود الجند وضمن أيضاً حسن سير الإمارة واطمئنان الناس على أهليهم وأولادهم.

هذا كله عمله الخطابي في وقت كان المسلمون فيه في غاية من الضعف والهوان ليس بعدها غاية، واستطاع -وهو قاض شرعي- أن يفاجئ الاسبان بطرق عجيبة من القتال، فكان يحفر الخنادق، ويباغتهم في جبال الريف حتى أن هوشي منه الشيوعي المشهور الفيتنامي الذي قاوم أمريكا مقاومة ضارية في الثمانينات الهجرية

وأوائل التسعينات/ الستينات والسبعينات الميلادية، كان هوشي منه يقول إنه استفاد من طريقة الخطابي.

وهنا اجتمعت أوروبا لتجهض الإمارة الناشئة التي لو بقيت لغيرت مسار التاريخ، وسبب هذا أن الاسبان توجهوا سنة ١٣٤٣/١٩٢٤ إلى أَجْدير عاصمة الخطابي في مائة ألف وحاصروه ثلاثة أسابيع فأظهر الخطابي ومن معه بطولات رائعة جداً ونادرة في وقت عزت فيه البطولة وانعدم النصر أمام الغرب في العصر الحديث، واستطاع الخطابي ومن معه أن يقتلوا من الاسبان أربعة آلاف في أقل الروايات، واضطر الجيش الاسباني للانسحاب ذليلاً إلى مدريد.

وهذه وقائع جرت في العصر الحاضر وهي لا تكاد تصدق؛ لأن كل المعارك التي دخلناها مع الأوروبيين آنذاك كنا ننهزم فيها على وجه مهين، فأن ينهزم الإسبان الذين خرجوا ظافرين من الحرب العالمية الأولى على هذا الوجه فإن هذا يستدعي تحركاً من أوروبا،

فأرسل المارشال المتجبر المتكبر الفرنسي ليوتي -الذي كان حاكماً في الجزائر آنذاك- إلى فرنسا يقول لهم:

إن انتصار العرب في الريف الإسباني وعلى سواحل البحر المتوسط يعني إنشاء امبراطورية عربية إسلامية وفتحاً جديداً لأوروبا من قبل المسلمين، وهذا أمر لا يمكن القبول به، وبهذا التخويف دخلت فرنسا الحرب ضد الخطابي على رغم أنف البرلمان الذي كان معارضاً، فاجتمعت اسبانيا وفرنسا عليه في جيش عدده زهاء نصف مليون، وحاصر الأسطول البريطاني الخطابي -والأسطول البريطاني كان أعظم أسطول بحري في العالم آنذاك- وكانت الطائرات التي حاربته منتظمة في أربعة وأربعين سرباً !! وصارت تقذفه وجنده بأنواع القنابل وهو صابر محتسب في خندقه، وأوقع بهم في أوقات خسائر جسيمة وصبر صبراً جميلاً حتى أن صحفياً أمريكياً كان موجوداً آنذاك في ساحة المعارك يتابعها وهو فانسن شين قال:

دخلت على عبدالكريم في خندق أمامي، والطائرات الاسبانية والفرنسية تقذف المنطقة بحمم هائلة فوجدته متبسماً مرحاً مقبلاً -الله أكبر ما أجمل وأحسن نفوس الصالحين- يضرب ببندقيته الطائرات، فتعجبت من هذا الرجل الذي استطاع أن يحافظ على إيمانه وعقيدته في خضم الظروف المحيطة به، وكنت أتمنى أن أمكث أكثر فأكثر مع هذا الرجل العظيم الذي تحيطه هالة من الوقار والجلال، وأقارن به ساسة أوروبا التافهين المشغولين بأمور تافهة فلا أكاد أجد وجهاً للمقارنة، وتمنيت أن أظل أكثر مما ظللت مع هذه الظاهرة البشرية الفريدة التي تأثرت بها أيما تأثر اهـــ.

أرأيتم كيف يؤثر المسلمون الصادقون في الناس عامة وفي أعدائهم خاصة ؟!

ويقول كورتي عضو مجلس العموم البريطاني:

إن هذا الرجل الذي ينادي باسمه أهل آسيا وإفريقيا والهند ويتغنون باسمه إن هذا الرجل الذي يزعم هؤلاء أنه يقاتل باسم الإسلام ويعيد إمارة المؤمنين والخلافة الإسلامية إنه لخطر عظيم على البلاد الأوروبية !!

هكذا كان يؤثر فيهم الخطابي الذي لا يعرفه ولم يسمع باسمه أكثر المسلمين اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان المسلمون يستقبلون انتصارات الخطابي بدموع الفرح والاستبشار الشديد في الهند وعموم آسيا وإفريقيا، وذلك أنه كان يجاهد أثناء وبعد إلغاء الخلافة العثمانية فكانوا يأملون عودتها على يديه.

لكن الكثرة الكاثرة تغلب الشجاعة، فجيش عبدالكريم كان عشرين ألفاً فقط وهؤلاء مئات الآلاف ومعهم الطائرات وكل الأسلحة التي هزموا بها ألمانيا وإيطاليا والدولة العثمانية، وخانت بعض

الطرق الصوفية الخطابي حيث كانوا يوزعون منشورات تقول إن القتال معه ليس من الجهاد !! وخانه بعض رؤساء القبائل الذين اشتراهم الفرنسيون وكانوا ينهون شبابهم عن القتال مع الخطابي !! ولم يجد الخطابي الدعم من الدول العربية والإسلامية التي كان حكامها بين عميل ومشغول بمحنة بلاده، حيث كانت أكثر الدول العربية والإسلامية قد سقطت في قبضة الصليبيين أو الشيوعيين أو عملائهما فلم يجد مفراً من التسليم بعد أن بقي في مائتين فقط !! لكن كان التسليم تسليم الأبطال فقد بقي يفاوض للصلح زماناً طويلاً: من منتصف سنة ١٩٢٥ إلى منتصف سنة ١٩٢٦ تقريباً/ ١٣٤٥ هجرية، أي سنة تقريباً !!

وكان يرفض الاستسلام رفضاً باتاً ابتداءً لكنه لما استشار المائتين الذين بقوا معه أشاروا عليه بحقن الدماء فالطائرات كانت تقذف بالغازات السامة والقنابل وتقتل الرجال والنساء والأطفال،

فأشاروا عليه بعقد صلح مشرف والبقاء في البلد والاستعداد للقتال في أقرب فرصة.

وهنا لم يجد بداً من إمضاء الصلح، لكن الفرنسيين واصلوا قذف القرى بالطائرات بعد التسليم، فقال لهم عبدالكريم: سيكون من المدهش أن تصيب طائراتكم الرجال في هذه المرة؛ إذ كانت العادة ألا تقتل إلا النساء !! إن حضارتكم حضارة نيران، فأنتم تملكون قنابل كبيرة إذن أنتم متحضرون، أما أنا فليس لدي سوى رصاصات بنادق وإذن فأنا متوحش!! وكان بهذا يستهزئ بهم، ويقيم الحجة عليهم لأنهم كانوا يتهمونه بالبربرية والتوحش!!

سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة، فدعاة الإسلام اليوم يُتّهمون بالإرهاب قلباً للحقائق وتخذيلاً للمسلمين.

أوصى الأمير أتباعه بالاستمساك بالدين وعدم الركون إلى المستخربين المحتلين، ولما سلم نفسه للفرنسيين -بعد كتاب صلح موثق

وعلى أن يبقى في الريف- خانوا عهدهم معه كعادتهم وكعادة كل المستخربين الذين سموا زوراً وبهتاناً بالمستعمرين، فنفوه إلى جزيرة رينيون في المحيط الهادي شرق مدغشقر لمدة إحدى وعشرين سنة !!

وكانوا قد منعوا عنه في السنوات العشر الأولى كل وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، فحرموه من الجرايد والمجلات ومن كتبه التي أتى بها معه، ثم سمحوا له بعد ذلك بها، فقضى هذه المدة الطويلة في التأمل والذكر والدعاء والصلاة، فسبحان الله كم يُصبّر عباده؛ إذ لو كان غيره لأصابه الجنون أو أمراض نفسية مزمنة لكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فيصنع حينئذ ما يشبه المعجزات.

الفرج بعد الشدة:

ثم بدا لدولة الطغيان الفرنسية أن تعيده إلى فرنسا، فأتت به سفينة من الجزيرة ومرت بعدن للتزود فتسامع الصالحون من اليمنيين والعراقيين والفلسطينيين في عدن بمرور سفينة الخطابي فأبرقوا لمصر

وطلبوا من المكتب المغربي فيها أن يحتالوا لإنزال الخطابي من السفينة، وكانت سفينة تجارية، فدبر الأستاذ عبدالرحمن عزام الأمر -وهو أول رئيس للجامعة العربية، ومن العاملين نحسبه كذلك والله حسيبه- دبر الأمر مع الملك فاروق وكان ذلك سنة ١٩٤٧، وصعد برجال إلى السفينة وطلبوا من قائدها أن يترل الخطابي لمقابلة الملك والسلام عليه هو وأخوه وعمه عبدالسلام، فمشت الحيلة على القبطان، وسمح بنــزول الخطابي، فأبقته مصر عندها، وهنا قامت قيامة فرنسا وثارت لكن بعد فوات الأوان، ومن الطريف أن فرنسا اقمت مصر بالخيانة والغدر، سبحان الله فهم أهل الخيانة والغدر الذين نكثوا عهدهم مع الخطابي ونفوه إحدى وعشرين سنة.

واتصل الخطابي بدعاة مصر وفضلائها وكبارها وعلى رأسهم الأستاذ الإمام حسن البنا رحمه الله، وأعجب به وبدعوته، ولما وصله خبر اغتياله بكى وقال: يا ويح مصر والمصريين مما سيأتيهم من قتل البنا، قتلوا ولياً من أولياء الله، وإن لم يكن البنا ولياً فليس لله ولي !!

واتصل بمكتب المغرب العربي في القاهرة حيث عينوه رئيساً له، وأخوه كان نائباً له، وعمل مع أعضائه لتخليص بلادهم من الاستخراب الأجنبي البغيض، وهكذا الداعية لا يفتر ولا يقعد، فبعد إحدى وعشرين سنة من النفي والعزل عاد الأسد إلى عرينه، واتقدت الشعلة التي أطفأها الطغيان، واتصل بالمغاربة، وبالحاج أمين الحسيني وجميعة الشبان المسلمين وجماعة الإخوان المسلمين.

ثم لما جاء الطاغية الهالك جمال عبدالناصر في انقلاب يوليو المشؤوم سنة ١٩٥٢ بمصر فترت العلاقة بين الخطابي والثائرين، وكيف يلتقيان وهؤلاء منهجهم الارتزاق من موائد الشيوعية والرأسمالية، وطريقهم هو القهر والاستبداد، وعملهم هو إفساد البلاد والعباد، وهذا طريقه الجهاد في سبيل الله، ومنهجه الإسلام، وعمله دعوة في سبيل الله ؟ فكانت النتيجة أن أهمله المسؤولون المصريون وضيقوا عليه الخناق فمات يوم مات سنة ١٣٨٢/١٩٦٢ ولم تذكره وسائل الإعلام بكلمة، ولم يؤبّن التأبين اللائق به.

لكن هكذا كل عظيم من الرجال يموت في هذا الزمان فقلما ينال ما يستحقه من إبراز لعمله، وإظهار لمآثره، وبيان لجهاده ودعوته، لكن لا يضره أن العبيد أهملوه وملائكة السماء -إن شاء الله- استقبلوه، ولا يؤثر فيه إهمال سيرته إذا كانت مكتوبة في الملأ الأعلى بحروف من نور بإذن العزيز الغفور.

ونحن لن نيأس أبداً إن شاء الله تعالى، ففي الإسلام عشرات الآلاف من الأبطال من أمثال الخطابي، وسيكون للإسلام دولة بإذنه تعالى على أيدي هؤلاء الأبطال، B A @!> = < M

. L D C

٦- أبو الأحـــرار

محمد محمود الزبيري

١٣٣٧ - ١٣٨٤

١٩١٩ - ١٩٦٥

هو أبرز الشخصيات اليمنية في القرن الرابع عشر / العشـــرين الميلادي ، ولد سنة ١٣٣٧/١٩١٩ ، وقتل ســـنة ١٣٨٤/١٩٦٥ ، فعاش سبعاً وأربعين سنة فقط لكنها كانت حافلـــة بجليـــل العمـــل وعظيمه.

كانت اليمن أكثر البلاد العربية تخلفاً في القرن الماضـــي ، في كل جوانب الحياة تقريباً ، إلا أنها كانت مختلفة عن سائر تلك البلاد

بأمرين اثنين : بقاء أكثر أهلها على فطرة سـليمة ، وأن أرضـها لم يطأها مستخرب أجنبي قط (في قسمها الشمالي)، وحالها مثل حـال البلاد السعودية آنذاك، وكان يعم البلادَ جمود ثقافي وفكري ، وكانت تدار بنظام غريب ، فلا وزارات ، ولا نظام مـالي ، ولا تخطـيط ، واقتصادها ضعيف ، وجنوب اليمن كانت مستخربة بريطانية ، وأهل البلد موزعون على طبقات : طبقة السادة آل البيت ومنهم الحكـام، ثم القضاة والعلماء، ثم التجار ، ثم الزراع ، ثم طبقة العمال الدنيا.

والمدارس قليلة جداً ، والخدمات الصحية تكاد تكون منعدمة ، والتنقل على الجمال والبغال والحمير في الأغلب ، واليمنيون يعانون من الأمية (٩٧%) والأمراض تفتك بهم ولا مستشـفيات ، والبلـد تعاني من مجاعة في كثير من أجزائها ، وقد قال أحد الغربيين يصـف اليمن آنذاك : "إن مصر متخلفة عن أوروبا مائة عام ، أما اليمن فإنها لا زالت تعيش في عصر ما قبل التوراة !!" وكلامه وإن كـان فيـه مبالغة لكنه يصف جوانب من الواقع وصفاً صادقاً.

وكان الزبيري رحمه الله تعالى من طبقة الشباب المتطلعين للإصلاح ، وهي طبقة جهودها متصلة بجهود المصلحين اليمنيين ابتداء من إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠ مروراً بالمَقْبَليّ والحسن الجلال والأمير الصنعاني وانتهاء بخاتمة المصلحين من العلماء العاملين ألا وهو الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ ، وكان أولئك المصلحون قد حاولوا بكل جهدهم التقليل من العصبية الزيدية الشيعية ونشر الوعي في المجتمع ، فتطلع إلى عملهم الزبيري وأصحابه ممن يتطلعون إلى الإصلاح.

وهناك عامل آخر مؤثر في مسيرتهم الإصلاحية ألا وهو اطلاعهم على تجارب الإصلاح في العالم الإسلامي وعلى رأسها تجارب الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والبنا وغيرهم من الدعاة والمصلحين.

وتأدب الزبيري وصحبه بأعمال شوقي وحافظ إبراهيم والرافعي والعقاد وغيرهم.

ولد الزبيري في بستان السلطان في صـــنعاء ســـنة ١٣٣٧ / ١٩١٧ ، وبستان السلطان حي منسوب إلى السلطان طغـــتكين بـــن أيوب أخي صلاح الدين الذي أرسل أخاه حاكماً على الـــيمن أواخـــر القرن السادس الهجري ، وأسرته أسرة عريقة في التأليف والقضاء ، وأبوه قاض في تهامة ، ومات وعمر ابنه عشر سنوات فنشأ الزبيري يتيماً.

والزبيري ينتمي إلى قرية الزبيرات من أرحب من قبيلة بكيل.

حفظ القرآن وجوده على قراءة نافع وعلى رواية حفص منذ سن مبكرة ، وكان له صوت حسن في الإمامة يجذب الناس إليـــه في مسجد التقوى ، ودرس علوم اللغة على عدد من العلماء.

ولما بلغ عشرين سنة رافق الأمير علي بن عبدالله الـــوزير إلى الحجاز للحج ، ثم إلى القاهرة حيث حدث تحول كبير في حياته لأنـــه رأى فيها نشاطاً سياسياً وأدبياً كبيراً ، ونزل طالباً في دار العلوم فيها ، ونظم قصائد شعرية وقد كان شاعراً فحلاً ، شعره من الطبقة الأولى،

ومن مميزات شعره التي ميزته حتى عن شوقي أنه كان يفيض بالمقـــت للطغيان والتنديد بالاستخراب واليهود والمطالبة بالإصلاح ، وكـــان يلقي شعره في الكلية والمحافل الأدبية.

واتصل بالبنا الذي قربه وكان يرى فيه أملاً لإقامـــة الحكـــم الإسلامي الصحيح في اليمن ، هذا كله وعمره ٢٢ سنة ، وفي هـــذا دليل كبير على نبوغه المبكر.

مكث في القاهرة ثلاث سنوات عاد بعدها إلى اليمن منتصف سنة ١٣٦٠/١٩٤١ مرحباً به من طلابها وعلمائها ، واستقبله الإمام يحيى في مجلسه، وقدم له الزبيري مشروعاً عن الأمر بالمعروف والنـــهي عن المنكر في ٢٢ صفحة تحوي ٣٧ مادة ، وأحاله الإمام للسيد زيـــد بن علي الديلمي الرئيس الأول للاستئناف العالي ، وشـــكلت هيئـــة قضائية لدراسته ورفع تقرير عن البرنامج وصاحبه.

وفي ذلك الوقت خطب الزبيري خطبة بليغة في الجامع الكبير في صنعاء نقد فيها الظلم والأوضاع السائدة فأمر الإمام بسجنه ، وسجن مجموعة معه من المطالبين بحقوق الشعب ، فمكث في السجن قرابة عشرة أشهر.

ثم كتب من سجنه قصيدة استعطف بها الإمام وولي عهده أحمد بن يحيى حاكم تعز فأطلقه الإمام يحيى.

ثم طلبه الأمير أحمد ليكون إلى جواره هو وزيد الموشكي والشامي وخطيب اليمن أحمد محمد نعمان ، وكان أحمد يشاطرهم همومهم ظاهراً ويطارحهم الشعر ، ويأمر بإخراج المساجين من رواد الإصلاح تودداً وتقرباً إلى الإصلاحيين ، ولقب الزبيري بأمير الشعراء ونعمان بأمير الخطباء ، لكن سرعان ما اختلفوا وقال أحمد: أريد أن أتقرب إلى الله بدماء هؤلاء الأدباء الجدد !! فهرب الزبيري ومن معه إلى عدن أوائل سنة ١٩٤٣/١٣٦٣ حيث اجتمع الإصلاحيون

وانتخبوا الزبيري رئيساً لحركتهم في عدن ، وأفاض في شعره في عدن بالمطالبة بالإصلاح والحرية ورفع المظالم.

أنشأ الجمعية اليمينة الكبرى، وكان للإصـــلاحيين اجتمـــاع باسم نادي الأحرار اليمنيين، وكان في الشمال تنظيمان: هيئة النضال في صنعاء وهيئة الإصلاح في إب، وكان للتنظيمين اتصال بالحركة في صنعاء فجمعهم الزبيري كلهم في الجمعية اليمنية الكبرى ، وفي تلـــك الأثناء زار الإمام أحمد عدن وأبدى استعداده للإصلاح ، لكن الحركة طالبته بجملة أمور كبرت عليه ، ولم تنجح محاولة التوفيق بين أحمـــد والإصلاحيين.

أنشأت الحركة عدة صحف في عدن والقاهرة، وانضم إليهـــا الأمـــير سيف الحق إبراهيم بن يحيى في عدن ، وألقى بياناً قويـــاً في افتتـــاح الجمعية اليمنية الكبرى ينعي فيه اليمن وجهه إلى الشعب وإلى الجامعة العربية ، فاتصل الإمام يحيى بجورج السادس ملك بريطانيا وشكا إليه

ما يجري فسحب الإنجليز ترخيصهم لحزب الأحرار فانشـــق الحـــزب على نفسه، وعاد بعض أفراده إلى تعز حيث سجنهم أحمد ، ثم ولاهم مناصب صغيرة.

ثم في ثورة سنة ١٩٤٨/١٣٦٧ أعدم أحمد منهم جماعة منهم زيد الموشكي ، وبعض المؤرخين يبرر خروج البعض بأنه أمر مخطط له وليس انشقاقاً.

وفي ذلك الوقت جاء من القاهرة المناضل الجزائري الفضـــيل الورثلاني بتنسيق وتوجيه من الإمام البنا، وأنشأ شركة للســـيارات في صنعاء أتاحت له الاتصال بيحيى والتردد إلى عدن حيث يقيم الزبيري ، وأثر الفضيل في الزبيري تأثيراً بالغاً ، وعده الزبيري واحـــداً مـــن عمالقة الإصلاح ، واستطاع الفُضيل أن يجمـــع بيوتـــات مهمـــة في الأحرار : آل الوزير وآل المتوكل وآل النعمان وآل شرف الـــدين ، وشارك الفضيل والبنا والزبيري ومن معه في إعداد الميثـــاق الـــوطني

المقدس الذي أظهر الإسلام شريعة مصدراً وحيداً للحكم ، والشورى أساسه والنظام أسلوبه.

قامت الثورة على الإمام يحيى وقتـــل ســـنة ١٣٦٧/ ١٩٤٨ استعجالاً من بعض أفراد الإصلاح وكان هذا أكبر خطأ وقـــع فيـــه رجال الثورة ، ذلك لأن حكم الأئمة قد رسخ في اليمن قروناً فـــأن يقتل هذا الإمام على هذا النحو فهذا لا يرضي أحداً حـــتى الـــزبيري نفسه ، وقتلوا يحيي بعد أن جاز الثمانين وهذا عامل كبير في تأليـــب القبائل على رجال الثورة بعد ذلك.

وقام عبدالله الوزير وسمى نفسه إماماً على اليمن وسمى عليـــاً ابنه ولياً للعهد ، وأرسل طلباً للجامعة العربية بإرســـال وفـــدها إلى صنعاء من أجل تثبيت حكمه، لكن أحمد استطاع تأليب القبائل على الوزير ورجال الثورة، وحوصر في صنعاء، وفشلت الثورة، وقتل أحمد عدداً كبيراً من الأحرار، وقتل عبدالله الوزير.

وهرب الزبيري إلى باكستان التي قضى فيها خمس سنوات صعبة، ومن العجيب أنه كان قد اضطرته الأحوال لبيع الأقفال والمفاتيح في صندوق يضعه على صدره.

وفي ليلة من الليالي وهو يجول بصندوقه لقيه الشاعر الكبير عمر بهاء الدين الأميري سفير سوريا في باكستان فرجاه الزبيري أن يكتم الخبر لكن الأميري أخبر الرفاعي سفير الأردن في باكستان فأبلغ الملك عبدالله بن الحسين فاتصل بالإمام أحمد في اليمن وعرض عليه العفو عن الزبيري فوافق أحمد لكن الزبيري رفض العفو إلا أن يشمل الجميع.

واتصل بالزبيري شيخ الإسلام شبير العثماني الباكستاني، والقاضي محمد العمري من قبل الإمام أحمد يطلبان منه العودة وأقسم أحمد أن يضعه في أحسن المراكز لكنه رفض واشترط للرجوع إطلاق السجناء وإصلاح الأوضاع.

ثم عمل بوساطة شيخ الإسلام شبير العثماني أستاذاً بجامعة كراتشي، وعمل مذيعاً بصوت باكستان العربي وأقلع عنه الفقر برهة من الزمن، لكن وفاة شيخ الإسلام ووفاة وزير التعليم أرجعتاه إلى سابق عهده من الفقر والضنك والعيش في كوخ حقير.

ولما قامت الثورة في مصر سنة ١٣٧٢/١٩٥٢ اتصل بسفيرها الشاعر عبدالوهاب عزام ووافقت مصر على عودة الزبيري إليها ، ومن صوت العرب تحدث إلى اليمنيين ، وأنشأ الاتحاد اليمني الذي عطله عبدالناصر سنة ١٣٧٦ /١٩٥٦ لكن لما عارض أحمد الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٣٧٨/١٩٥٨ بأرجوزة مشهورة سمح عبدالناصر للاتحاد باستئناف نشاطه الصحفي والإذاعي ، لكن فترت العلاقة بينه وبين عبدالناصر فيما بعد؛ وذلك لأن الزبيري كان مسلماً صحيح الإسلام ، داعية إلى الله، مكافحاً عن دينه ومثله لا يطيقه ذلك الطاغية.

مكث الزبيري في القاهرة عشر سنوات احتضن فيها الطلبة اليمنيين منفقاً وقته وأكثر مرتبه عليهم ، شاداً لهم إلى دينهم وقضايا وطنهم ، وكان الشيخ الزنداني من أحب الطلبة إليه وقد لازم الزبيري حتى استشهاده ، يقول عنه الشيخ الزنداني وكان معه في القاهرة(٢):

"لقد وجدنا شيخنا، لقد وجدنا من يصلح أن يكون قائداً لنا وموجهاً، وتعرفنا عليه، واطمأنت نفوسنا إليه، وأخذنا نزوره في بيته وإذا بنا نكتشف عملاقاً من العمالقة".

هذا وقد قال له الزبيري:

"لقد كنا نتحرك في الحركة الوطنية وكنا نرجو من شبابنا أن يكونوا هم المدد لنا ولكن سبقتنا الأحزاب هذه إليهم ، وأصبحنا زعماء بغير جنود؛ لأن الجنود -وهم أبناؤنا- أخذهم الأحزاب ونظمتهم في الخلايا، وأصارحكم وأقول إن سبب ذلك أننا قصرنا في

(٢) استقيت هذا من شريط مسجل للشيخ الزنداني ترجم فيه للزبيري.

تربية أبنائنا في الاتحاد اليمني تربية إيمانية إسلامية ، لـــذلك مـــن الآن سنصلح ما أفسدنا".

وكان يأخذ الشباب من الدقي إلى الأهرام مشياً على الأقـــدام وهـــي مسافة طويلة فيقولون له : لماذا يا أستاذ ؟ فيقول : لا بد من الخشونة ، لا بد من الرجولة ، لا بد من الزهد والتقشف.

ثم يقول الزنداني:

وجدنا شيخاً أنشط من الشباب فطاوعناه، ثم صرنا نذهب إلى بيوت الطلاب نطرقها باباً باباً مشياً لا نركب لنـــوفر الفلـــوس، ثم استجاب له عدد من الطلاب الذين كانوا يدرسون في القاهرة وبايعوه أميناً عاماً لهم ، وكانت حركة سرية.

بعد ثورة سنة ١٣٨٢ /١٩٦٢ على البدر رجع الـــزبيري إلى اليمن بطلب من الضباط الثوار الذين كانوا بحاجة لشخصـــية مثـــل

الزبيري تضفي على حكمهم شرعية يحتاجونها وسط أجـــواء مليئـــة بخصوم الثورة من الملكيين.

واستقبل في صنعاء استقبال الزعماء ، وعين وزيراً للمعارف ، لكنه وجد في اليمن خليطاً من الأحزاب التي هي امتـــداد لأحـــزاب الجنوب الضالة ، ووجد شعباً ممزقاً ، ووجد خللاً في الثورة وضبطها، فاعتزل الوزارة، وآلى على نفسه ألا يهدأ حتى تنصلح الأوضاع.

وقرر ضباط الثورة أن يجندوا الشعب في تنظيم شعبي، وأوكلوا أمر إنشائه للزبيري، فقال: التنظيم لا بد له من مقـــرات ومـــوجهين فمقراتنا المساجد وأعضاء التنظيم هم المصلون، والموجهون هم الأئمة والخطباء والعلماء، وجعل قاعدة الانطلاق الجامع الكبير في صـــنعاء ، وكان يدخل الحارات وينادي الناس فيجتمعون في المســـجد فيأخـــذ عليهم اليمين ، ويطلب منهم أن يختاروا أميناً للتنظيم وأميناً للـــدعوة

وأميناً للاتصال، فأمين الدعوة عالم، وأمين الاتصال شاب، ثم هنـــاك جلستان في الأسبوع: الاثنين والخميس، فاستقطب بهذا علماء صنعاء.

وعمل أعمالاً شعبية جيدة من تنظيف الحارات، واســتقبال متطوعي الأطباء ، وإقامة حلقات تحفيظ القرآن، وتســامع بــذلك القبائل فطلبوا من الزبيري أن يدخلهم في هذا التنظيم الشعبي إعجابــاً بأعماله.

وقد انزعج الروس من هذا التنظيم الجديد فطلبوا من القيــادة العربية (المصرية) إيقافه فصدر الأمر بوقف العمل بــالتنظيم فــانزعج الزبيري لكنه لم ييئس ، وطلب عقد مؤتمر شــعبي يضــم الملكــيين والجمهوريين ، واستطاع أن يجمعهم في عِمْران -إحدى مناطق اليمن الشمالي القريبة من صنعاء- حيث أرسلت القبائل ممثليها ، وأرســل العلماء ممثليهم ، وأرسلت سائر النواحي من يمثلها.

وعقد المؤتمر وحضر ممثلون من الجيش ، وقرر المؤتمرون إلغاء المحاكم العسكرية وتكوين المحاكم الشرعية ، وتكوين جيش شعبي من ٢٨ ألف مقاتل يؤازر الجيش الرسمي ، وصدر قرار بتكـــوين مجلـــس للشورى وقرارات أخرى لضبط القضايا المالية وبعض الأمور السياسية الداخلية والخارجية.

واتفق المؤتمرون على كيفية لتحويل القرارات من الـــورق إلى الواقع عن طريق تكوين حكم برلماني تكون المسؤولية فيـــه لـــرئيس الوزراء، وفوض المجتمعون الزبيري لاختيار رئيس للوزراء، ووافق جميع أركان الدولة اليمنية على قرارات مؤتمر عمران لكن السلال كـــان في القاهرة، فلما عاد كان مخالفاً لبعض القرارات لكنه تحـــت الضـــغط الشعبي استجاب في الظاهر وماطل مماطلة كبيرة فلم ينفذ مـــا اتفـــق عليه، والسبب في هذا أن المصريين لم يكونوا يرغبون في تنفيذ هـــذه القرارات وهم قوة السلال واعتماده كان عليهم.

ولما خاب أمل الزبيري في السلال أنشأ حزب الله ليجمع فيه الجمهوريين والملكيين لكنه لم يستمر إلا ثلاثة أشهر انتهت باغتياله ، واغتيل وهو مستعد لعقد مؤتمر في خَمِر عاصمة قبائل حاشد التي كان زعيمها عبدالله الأحمر -رئيس مجلس النواب اليمني السابق- من أجل كتابة دستور جديد لليمن، فاغتيل في جبال بَرْط وهو خـــارج مـــن المسجد بعد صلاة الجماعة في ذي الحجة سنة ١٣٨٤/ ١٩٦٥ فأرجو أن يكون قد نال الشهادة رحمه الله، قتل بعد أن خافه الملكيون الـــذين فاجأهم بالدعوة في معاقلهم ، وبعد أن كرهه الجمهوريون وشـــنعوا عليه في وسائل إعلامهم ، وبعد أن ضايقه المصريون أيمـــا مضـــايقة ، ووفاء للزبيري اجتمع الشعب في مؤتمر وقرروا أن يكون الدســـتور قائماً على الإسلام ، ثم أصبحت الثورة بين مد وجزر إلى أن قيض الله لليمن رجالاً ثبتوا فيه الإسلام وأبعدوه عـــن النـــــزعات الناصـــرية والقومية والشيوعية.

كانت حياته قصيرة إذ عاش حوالي ست وأربعين سنة فقـــط لكنها كانت مليئة بجلائل الأعمال، وكان زاهداً يؤثر الزهد في شـــأنه كله ، فقد أحضر له الضباط بعد الثورة أثاثاً من مترل الإمام فـــرفض

أخذ شيء منه، وأصر في وزارته ألا يأخذ من مرتبه شيئاً فوق حاجته فمات وهو مدين ، ومنحته الجالية اليمينة في السودان -الذي كـــان يزروه من أجل الدعوة والإصلاح- مبلغاً يستعين به على العيش فأصر على إرجاعه، ولما حج مع علي بن عبـــدالله الـــوزير مـــدح الملـــك عبدالعزيز بقصيدة اهتز لها ابنه سعود فأعطاه بضعة آلاف من الريالات وكانت مبلغاً كبيراً آنذاك فرفض العطية وأرجعها.

والزبيري رائد كبير من رواد الإصلاح في اليمن فهو أول من تقدم إلى الإمام يحيى ببرنامج إصلاحي، وأول من قاد معارضة منظمة، وأول وزير للتربية والتعليم، وأول من أنشأ حزباً، وقد رأى نفســـه في الرؤيا أنه يهز بيده جبلاً ضخماً فيتساقط فهو -إذن- من ساهم بقوة في إسقاط الحكم الإمامي.

له أربعة كتب يتضح فيها فهمه للمنهج الإسلامي وشموليـــة دعوته، وسموها على الوطنية والحزبية، وفيها تحدث عن الغزو الفكري وضرورة الأخذ بالعلوم الحديثة، وله ديوانا شـــعر، وآلاف المقـــالات

والبحوث والخطب ، قال عنه الشيخ عبدالمجيد الزنداني وكانا مصاحباً له مدة طويلة:

"له قدرة بارعة على تجميع الناس على اخـــتلاف انتمـــاءاتهم الحزبية أو القبلية ، يبش في وجوههم، ويستمع إلى آرائهـــم، أحبـــه خصومه وأصدقاؤه".

ومن ريادته الواضحة أنه أنشأ أول مؤتمرات شعبية يشـــهدها العالم العربي كله وربما الإسلامي أيضاً وهذا عجيـــب أن يكـــون في اليمن آنذاك، وكان الشعب يجتمع ويقرر بنفسه ماذا يريـــد وترفـــع القرارات للتنفيذ إلى رئاسة الجمهورية وتوافق رئاسة الجمهورية علـــى ما يريده الشعب، كان هذا حدثاً فريداً وريادة جليلة من الزبيري رحمه الله الذي أنشأ هذا النظام الفريد، ولو قُدر للزبيري أن يمتد به العمـــر ويمضي في مشروعه هذا لتغير وجه اليمن، وربما المنطقة العربية كلها.

هكذا كان الزبيري رحمه الله، وهكذا صنع وقـــدم، وبـــذل وضحى، فالذي يفهم الإسلام فهماً صحيحاً لا يمكن لـــه أن يقبـــع مكانه في ذل وهوان يأكل ويشرب وينام، لا يتحرك لفضائل الأعمال

ولا لعظائم الأمور، إن الذي له هدف في الحياة سام كالزبيري لا يمكن إلا أن تكون حياته سلسلة متواصلة متشابكة من العطاء والبذل والتضحية، رحم الله الزبيري، وأعلى درجته، وأعظم أجره.

٧- الباحثة عن الحقيقة

مريـــم جميلـــة

إن أقدار الله في خلقه عجيبة، وتصاريفه مدهشـــة، وهدايتـــه لخلقه تحار فيها العقول، ولا تدركها الأبصار، فمهما أراد من شـــيء حصل، وإذا قدر شيئاً وقضاه لا بد من وقوعه كما أمضاه، ســـبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

كانت هذه مقدمة لا بد منها للحديث عن مريم جميلة ، تلك اليهودية الأمريكية التي هداها الله تعالى للإسلام في سياق عجيـــب ، وجذب مدهش ، وفي زمن لم يكن فيه للإسلام رواج ، ولا للمسلمين سوق نافقة ، ولكنها الهداية ، لا تعرف الحواجز ، ولا تقف دونهـــا

العقبات ، وتنفذ إلى القلوب نفاذ الشمس إلى الأرض ، وتسري إلى العقول سراية الضياء إلى الظلام.

ولدت هذه المرأة العظيمة في نيويورك ١٩٣٤ ، لأبوين يهوديين من أصل ألماني ، واسمها كان "مارجريت ماركوس" وكان لطريقة نشأتها في تلك البيئة المتلوثة بركام الجاهلية دليل على عناية الله تعالى بها ، فهي لم تذق الخمر في حياتها و لم تلتق بالرجال ، و لم تحضر حفلات القوم ، وكل هذا عجيب من مثلها.

وكانت وهي في طفولتها تحضر الدروس التي تقيمها مدرسة الأحد اليهودية ، وتسمع الحاخام وهو يخبرهم بأن العرب واليهود هم أولاد إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم ، فصارت تتمنى أن تذهب إلى فلسطين لرؤية أولاد عمها والاجتماع بهم ، ثم إنها صدمت بعد ذلك يوم رأت أبويها يحتفلان بقرار التقسيم سنة ١٩٤٧، ويجمعان التبرعات لإقامة الدولة المسخ ، ثم يحتفلان

بانتصار اليهود سنة ١٣٦٧هـــ ١٩٤٨، فصارت تناقش أبويها بقوة في إقامة دولة اليهود على أحزان العرب وآلامهم ، فعجبا من كلامها.

ثم إنها أقبلت على القراءة المطولة والعجيبة من فتاة مثلها، فقد قادتها هذه القراءة إلى الهداية، وأبعدتها عن الغواية، وقـــرأت أول مـــا قرأت ترجمة القرآن للبريطاني المسلم محمد بيكتهول فتأثرت بما قرأت، وكان لقوة الترجمة أثر في حياتها لم يزل، وقد قارنت بين هذه الترجمة وترجمة يوسف علي التي وصفتها بأنها ضعيفة وتبريرية، أي أن المترجم لم يستطع أن ينفك عن أسر النظرة الغربية وهو يترجم معاني كتـــاب الله تعالى، وهذه ملاحظة جيدة منها تدل على تعمق وفهم.

ثم إنها عثرت في مكتبة نيويورك العامة على كتاب مشـــكاة المصابيح مترجماً إلى الانجليزية وهو كتاب في الحديث النبوي الشريف فعكفت عليه حتى فرغت منه !! ولو سألت كثيراً من طلاب العلم منا اليوم ومثقفينا عن هذا الكتاب فلربما جهلوا عنوانه -دع عنك قراءته-

ومن رحمة الله بها أنها اطلعت على هذا القدر الكبير من الأحاديث في مرحلة مبكرة ، فهذا الاطلاع الواسع حماها من القرآنيين وضلالاتهم، واستطاعت أن تفهم الإسلام فهماً جلياً باطلاعها على مصــدريه، والاغتراف من معينهما.

واصلت مريم دراستها الجامعية في جامعة نيويــورك، كليــة الآداب لكنها مرضت فانقطعت عن الدراســة ســنتين، وتناوشــتها الوساوس في مرضها من كل جانب حتى ألحــدت مــدة، لكــن الله تداركها بمزيد من القراءة والاطلاع الذي أوصلها إلى الهدايــة بعــد ذلك.

والعجيب أنها استطاعت بهمتها ودأبها أن تتصل بشخصــيات إسلامية رفيعة القدر في عصرها ، فقد أرسلت للبشير الإبراهيمــي في الجزائر، وسعيد رمضان في جنيف، ومعروف الــدواليبي في ســوريا،

والأستاذ سيد قطب في سجنه بالقاهرة، رحمة الله عليهم جميعاً، وقد دلها الأستاذ سعيد رمضان على الأستاذ سيد وطلب منها أن تراسله.

وأرسلت رسائل عديدة لشخصيات أخرى، لكن كانت نقطة التحول في حياتها هي صلتها بالأستاذ المودودي رحمه الله تعالى، وقد عرفته بقراءتها مقالة في مجلة إسلامية كانت تصدر في جنوب أفريقيا وأيضاً كان الأستاذ سيد هو الذي نصحها بالاتصال بالمودودي، وقد أعجبت بالمقالة جداً، وأرسلت للأستاذ رسالة على عنوانه في باكستان، فما راعها إلا مجيء الجواب بعد قرابة شهرين فسرت به أيما سرور، واستمرت المراسلات بينهما قرابة ثلاثة سنين وكانت تنقل له في مراسلتها ما يقال عنه في إعلام أمريكا وكندا.

وهذه المراسلات اتضح منها عمق ثقافة مريم جميلة إلى الحد المدهش، فقد سألته أسئلة متنوعة عن عدة شخصيات وناقشته مناقشة مطولة في أشياء بدرت منهم ، فعلى سبيل المثال سألته عن شاه ولي

الله الدهلوي وهو من الأعلام الكبار في تاريخ الهند ويعد من جملة المجددين، حيث إنها ظنت أنه أراد اختراع مذهب جديد خارج عن المذاهب الأربعة، فبين لها المودودي أن الشاه أراد أن يجتهد في تقرير المذاهب الأربعة والاستفادة منها جميعاً و لم يكن كما ذهب ظنها.

وسألته عن إقبال الشاعر المشهور، وقالت له: إن إقبال نصر القومية والوطنية في شعره ، فصدقها الأستاذ المودودي وأخبرها أن هذا من الأمور التي بالغ فيها إقبال رحمه الله.

وسألته عن عبدالناصر وقالت إنه شخص يريد أن يعمل لنفسه ولمجده الشخصي، وأن كل مساعداته لأفريقيا وغيرها تصب في مصلحته الشخصية، وهذا منها فهم دقيق في ذلك الوقت العصيب الذي طغت فيه سمعة عبدالناصر على مفاهيم كثيرة وكانت شخصيته القوية ودعاواه القومية قد ضللت أكثر الناس، فأن تفهم مريم جميلة شخصية عبدالناصر بهذا الوضوح في آخر الخمسينات فهذا يعد فهماً متقدماً.

وسألته عن أتاتورك والمآسي التي صنعها في تركيا، ولها قـــول جميل في النورسي حيث قالت عنه: "إنه ليس بمبالغة أن نقول إن مـــا تبقى من الإيمان الإسلامي في تركيا إنما يرجع إلى الجهود المثابرة لبديع الزمان النورسي".

وسألته عن القاديانية التي كانت آنذاك في بدايـــة انتشـــارها وتأسيسها مساجدها الضرار في أمريكا، وهذه الأسئلة والمناقشـــات كلها قد جرت في زمن يهوديتها، وهذا عجيب، فهي قد وصلت إلى مستوى رفيع من الفهم والنضج والوعي والثقافة وهي يهودية لم يصل إليه أغلب المسلمين !!

وانظروا إلى همة المودودي -رحمه الله تعالى- حيث لم يهمـــل الرد على رسالة امرأة يهودية على كثرة أشغاله، فكان في الرد علـــى الرسالة، وعلى رسائلها كلها بعد ذلك خير كثير؛ فقـــد شـــرح الله صدرها للإسلام في سنة ١٣٨١-١٩٦١ فذهبت إلى إمام مسجد في بروكلين في نيويورك وهو داود فيصل وأسلمت على يديه، وسمـــت

نفسها بمريم جميلة، وابتدأت في حياتها مدة عجيبة كلها ابتلاءات ومحن، فعلى سبيل المثال كانت تذهب إلى المسجد وتناقش المسلمين الذين كانوا يغضبون من آرائها عن عبدالناصر وأتاتورك !! وجاءها طالب سعودي في الجامعة ليخبرها أن على كل المسلمين أن يصلوا مع النصارى في كنيسة الجامعة ، فإن لم يستطيعوا فعلى الأقل يحضرون دروس الأخلاق النصرانية في الجامعة !!!

ورأت المركز التجاري التونسي في نيويورك فولجته سعيدة به لتفاجأ بالخمور تملأ المركز من أرضه إلى سقفه !! وفوجئت بامرأة فرنسية موظفة في المركز أخبرتها أن بورقيبة بدأ مرحلة جديدة في تونس ترك فيها الدين خلف ظهره !!

وكانت بعد تخرجها في الجامعة تبحث عن عمل فذهبت إلى المركز العربي في نيويورك فما إن عرفوا أنها كانت يهودية فأسلمت وأنها تعارض أعمال وأفكار عبدالناصر حتى أعرضوا عنها بعد مقابلة باردة.

وكانت تصلي الجمعة في المسجد، وقد اتفق الطلبة علـــى أن يتداولوا الخطب فيما بينهم، فلما وصلتها النوبة كتبت خطبة بديعـــة رائعة عن وضع المسلمين وكيفية علاج أمراضهم، وألقاها أحد الطلبة نيابة عنها فقامت عليها قيامة سائر الطلاب لأنها ذكـــرت القوميـــة ورموزها بسوء وبينت أنها علة العلل في الجسم الإسلامي !!

وكان هناك من الطلاب من يشكك في الحديث النبـــوي !! ومن كان يزين لها طريقة أتاتورك ونهرو!!

وهكذا تعرضت لمحن كثيرة في عقيدتها وفكرهـــا وثقافتـــها وخذلها المسلمون الذين كانوا حولها في أمريكا أيما خذلان، وكانـــت تخبر الأستاذ المودودي بكل هذا.

ثم بعد ذلك أخبرها والداها بأنهما سيتقاعدان قريبا ويتركـــان شقتهما ذات الغرف الأربعة التي ولدت فيها ويسكنان في شقة أخرى

صغيرة ، وأنها ليس بوسعها أن تكون معهما ولا بد أن تدبر أمرها !! وقد كان عمرها آنذاك سبعة وعشرين عاماً فضاقت عليها الدنيا.

وكان الأستاذ المودودي قد عرض عليها مراراً أن تنتقل إلى باكستان لكنها كانت مترددة ثم بعد كل الذي جرى عليها قررت الذهاب، وأقنع المودودي أمها وأباها برسالة لطيفة أرسلها إليهما وطمأنهما أن ابنتهما ستجد كل الرعاية والاهتمام، وفعلاً حزمت حقائبها وتركت نيويورك سنة ١٣٨٢- ١٩٦٢ واتجهت إلى لاهور بالباخرة !! فيا لها من رحلة شاقة لكن الإيمان العظيم يذلل المصاعب والمشاق ، والغريب أنها وقفت في الإسكندرية ونزلت من الباخرة ، فصادفت مسجداً فصلت فيه ، فسألها الإمام عن وجهتها فأخبرته أنها ذاهبة إلى باكستان فما كان منه إلا أن قال لها غفر الله له : هل أنت غبية لتتركي أمريكا ؟!

فانظروا رعاكم الله إلى هذا الإمام ومقدار فهمه وإلى صبر مريم جميلة على ما واجهته.

ثم إنها وصلت لاهور وأحسن إليها الأستاذ المودودي وأسكنها في بيته سنتين، ثم إنه زوجها لأحد أتباعه وهو محمد يوسف خـــان ، وهو متزوج وعنده خمسة من الأولاد، لكن هذه المرأة العجيبة لم تمانع في التعدد ، وقد اقتنعت به وهي ما زالت في أمريكا ، وكانت تغضب من المانعين له مثل بورقيبة أو من المبررين له تبريراً ضعيفاً، ثم طبقتـــه بنفسها في لاهور، ومن الطريف أنها عرضت على المودودي الـــزواج منها لكنه اعتذر !! ولها ابنان وبنتان واثنا عشر حفيداً.

وهي تعيش اليوم مع ضرتها في بيت واحد، وهـــي ســـعيدة بحياتها، وراضية، فافهمن هذا يا أيتها النسوة اللاتي تقمن الدنيا علـــى أزواجكن ولا تقعدنها إذا اقترنوا بغيركن.

وعاشت في لاهور من سنة ١٣٨٣ – ١٩٦٣ إلى يوم الناس هذا ولم تخرج أبداً ، ولم تعد إلى أمريكا التي يتمنى كثير منا الـــذهاب إليها والعيش فيها !!

وعاشت حياة إسلامية رائعة ، وهي مشرفة على حلقات نسائية في بيتها ، وما زالت تكتب الكتب وترسل الرسائل إلى الآن حفظها الله ، وقد كلمتها بالهاتف ورجوتها أن تأتي للحج لكنها اعتلت علي بضعفها وكبرها ، وقلت لها إن مجيئك إلى المملكة سيكون له أثر كبير على المسلمات اللواتي سيعرفن قصتك أو عرفنها لكنها اعتذرت حفظها الله، فقلت لها: ما هي وصيتك للمسلمين فقالت: ادرسوا القرآن والحديث، ولا تتبعوا الحضارة الغربية، وادرسوا الثقافة الإسلامية.

وقفات مهمة في حياتها:

١. بقيت بضع سنوات وهي ملحدة تماماً بسبب أنها لم تجد ديناً يشبع نهمها الثقافي والفكري والروحي حتى أضاء حياتها الإسلام.

٢. لبست الحجاب الكامل والتزمت به، فلقد رأيت لها صورة وهي بالجلباب الأسود السابغ ولا يظهر من جسدها شيء، وهذه أعظم رسالة لكل المسلمات اللواتي يتساهلن في لبس الحجاب،

ويتهاونّ به، فهذه كانت يهودية أمريكية فأســلمت والتزمــت بالحجاب الكامل السابغ.

٣. حاولت أن تدعو والديها للإسلام مراراً عندما كانت في أمريكا وبعد وصولها إلى لاهور برسائل متعددة لكنهما رفضا، وماتــا كافرين سنة ١٤٠٥ / ١٩٨٥، وهكــذا الإيمــان إذا تمكنــت بشاشته من القلوب لا يستطيع صاحبه إلا أن يدعو من يحب إليه ولا يتصور قعوده عن تلك المهمة الجليلة.

٤. عدد كتبها التي ألفتها قرابة ١٤ كتاباً -وما زالت تؤلف حفظها الله- وكلها تفيض بروح وثابة ، وفهم متميز ، واطلاع وثقافة واسعة وأفردت كتاباً في مأساة الفلسطينيين سمته أحمد خليــل، ونشره الأستاذ المودودي في باكستان.

٥. تَعُد المودودي أعظم مفكري القرن على أنهــا كانــت تراســل شخصيات مثل الأساتذة سيد قطب وجملة غيره ذكرهم لكم في ثنايا ما كتبته آنفاً ، وهذه شهادة محترمة من امرأة واسعة الثقافة عظيمة الاطلاع مثلها.

٦. أظن أن القراء الكرام يوافقوني على عدّ هذه المرأة مثلاً كبيراً ومهماً في الوصول إلى الهداية عن طريق الاقتناع الكامل الذي تولد إثر قراءة مطولة وثقافة واسعة ومراسلات مع عدد كبير من الشخصيات الإسلامية رفيعة المستوى، وهي بهذا تصلح أن تكون مثلاً رائعاً لبنات جنسها اللواتي يقرأن قليلاً، وثقافة الكثرة الكاثرة منهن ضعيفة، بل ضعيفة جداً.

وأخيراً أقول ما أعظم التبعة الملقاة علينا في إيصال الإسلام لكل البشر؛ إذ كم فيهم من أمثال مريم جميلة ممن يبحث عن الحق ويريده ؟!!

وهذا هاتف ابنها حيدر خان في أمريكا لمن أراد أن يتصل به، وهذا رقمها في لاهور وأرجو من كل القراء أن يتصلوا بها ويهنئوها التهنئة المتأخرة !!

٠٠١٤٢٣٤٨٥١٤٣

٠٠٩٢٤٢٧١٥٥٧٠٢

وهذا بريد ابنها الالكتروني Haiderkhan@hotmail.com

٨- شيخ الإســـلام

مصطفى صبري التوقادي

١٢٨٦ - ١٣٧٣

١٨٦٩ - ١٩٥٤

كانت تركيا عاصمة للخلافة والسلطنة أربعة قرون ونيف، ومن قبل ذلك ظلت قرنين ونيف شوكة في حلق الكفار، وفتح السلطان محمد عاصمة الدنيا آنذاك القسطنطينية، وحمى الله بالعثمانيين الإسلام والمسلمين قروناً طويلة، ونفع بهم كثيراً، وأدخل في الإسلام على أيديهم ملايين من الضالين، ووصل الأذان والتكبير على أيديهم

إلى قلب أوروبا "البلقان"، ولهذه الدولة مآثر لا تحصى، وأعمال لا تحصر ولا تستقصى.

لكن سنة الله تعالى لا تتخلف، فقد ضعف السلاطين وأخلدوا إلى الأرض، ونسوا أن الجهاد عليهم فَرْض، ورضوا بالتمدد اليهودي والماسوني والقومي الطوراني في أراضيهم تهاوناً ثم ضعفاً، وحاول السلطان عبدالحميد إنقاذ الدولة لكن الرياح لم تكن مواتية، والعقبات كانت كبيرة وصعبة.

ثم عزل السلطان وتولى بعده من لا حول له ولا طول، وتربعت جمعية الاتحاد والترقي الماسونية على عرش البلاد، ومن ثم جاء الذئب الأغبر، والضال الأكبر مصطفى كمال الذي ألغى السلطنة سنة ١٩٢٢ ثم الخلافة سنة ١٩٢٤، وأعلن البلاد جمهورية إلحادية ضالة، وأمر بإلغاء الأذان بالعربية وإجبار النساء على السفور والرجال على لبس القبعات، وألغى الحرف العربي الذي كانت تكتب به اللغة

التركية وألغى كثيراً من الكلمات العربية من اللغة التركية، ومنع الحج، وغرب الشعب التركي تماماً.

وفي هذه المدة الكالحة عاش شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي رحمه الله تعالى.

ولد في توقاد من الأناضول سنة ١٢٨٦/١٨٦٩، ونشأ طالباً في كنف المذهب الحنفي الغالب في تركيا، وصار مدرساً في جامع السلطان محمد الفاتح وهو في الثانية والعشرين من عمره وكان أصغر المختارين لتولي هذا المنصب، وهو دال على نبوغ مبكر لاشك، وأجاز خمسين طالباً وهو عدد ضخم.

واختاره السلطان عبدالحميد رحمه الله تعالى ليكون أميناً لمكتبة قصره قصر يلدز، وهذا أتاح له أن يطلع على الكتب الثمينة التي كان قانون حفظ التراث يمانع من إخراجها خارج القصر.

ثم اختير نائباً عن بلدته توقاد في مجلس المبعوثان العثماني ومجلس المبعوثان هو مثل مجلس الشعب الذي يمثل فيه نواب مختارون من كل البلاد التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية.

وكان آنذاك قد رأس تحرير مجلة "بيان الحق" وهي مجلة تصدرها الجمعية العلمية التي كان يرأسها.

وعين عضواً في "دار الحكمة" وهي تضم صفوة علماء الدولة العثمانية آنذاك.

وعينه السلطان في مجلس الأعيان العثماني.

وعين مدرساً للحديث الشريف في دار الحديث.

وعين عضواً في هيئة تدقيق المؤلفات الشرعية التابعة لدائرة المشيخة الإسلامية سنة ١٣٢٣ إلى غير ذلك من الوظائف.

لكن الذي لفت النظر إليه هو مقدرته الخطابية التي وظفها في بيان عورات القوميين الطورانيين ونزعاتهم الإلحادية، وعورات الاتحاديين عموماً -نسبة إلى جمعية الاتحاد والترقي الماسونية التي أمسكت بزمام البلاد عملياً بعد خلع السلطان عبدالحميد، رحمه الله تعالى-.

والكلام في هذه الجمعية والاتحاديين يطول لكن خلاصة أمرهم أنهم أغرقوا البلاد في قومية طورانية تركية مفرطة، وعدوا المسلمين من غير الأتراك كالعرب والأكراد والألبان في مرتبة تلي مرتبة الأتراك، وأذكوا نار العصبية الهائجة التي عجلت بإسقاط الدولة العثمانية، وإذهاب ريحها، وتفريق قوتها، وخُدع المسلمين بنيازي وأنور وشوكت ومدحت وغيرهم من زعماء الاتحاديين ومدحهم مثل الشاعر حافظ إبراهيم وأثنى عليهم طائفة ثم تبين للناس سوء صنيعهم لكن بعد فوات الأوان.

وكان الشيخ قد أسس حزباً اسمه الائتلاف والحرية، أسسه مع بعض إخوانه، وكان نائباً لرئيس الحزب والناطق الرسمي باسمه ورئيس المعارضة البرلمانية، ولمقدرته الخطابية الفائقة صار أبرز الدعاة للحزب المروجين للسياسات المناهضة للاتحاديين والفاضحة لهم ولصلاتهم المشبوهة باليهود، وقد استفاد الشيخ مصطفى صبري من موقعه في المبعوثان –البرلمان- ليكشف عورات هؤلاء الاتحاديين القوميين، فدبروا لاغتياله، فهرب إلى مصر سنة ١٩١٣ ثم إلى أوروبا ليواصل التحذير من هؤلاء وكشف عوارهم وكانت إقامته ببوخارست برومانيا.

ثم قبضت عليه الجيوش التركية أثناء غزوهم رومانيا في الحرب العالمية الأولى وأرسلوه إلى استانبول، وظل معتقلاً إلى أن انتهت الحرب بهزيمة الاتحاديين الأتراك وفرار هؤلاء الاتحاديين.

وعينه السلطان وحيد الدين شيخاً للإسلام في الدولة العثمانية، وعضواً في مجلس الشيوخ، وناب عن الصدر الأعظم – رئيس الوزراء- أثناء سفره لباريس للمفاوضات ستة أشهر، وهذا كله يدل على المكانة العلية التي كانت له آنذاك، ومنصب شيخ الإسلام يلي في الأهمية منصب الصدر الأعظم حسب أنظمة الدولة العثمانية آنذاك.

ثم جاء الكماليون بعد الاتحاديين، وعاث مصطفى كمال في الأرض فساداً، فاضطر مصطفى صبري أن يترك تركيا بعد قرار إلغاء السلطنة سنة ١٣٤١/١٩٢٢ وذهب إلى اليونان، وهناك حشد الأتراك حوله، وأصدر صحيفة تركية كشف فيها عن الوجه القبيح لمصطفى كمال وسياساته، فطلبت الحكومة التركية من اليونان إبعاده، فاضطر للسفر إلى مصر والاستقرار فيها، وكان ذلك في السنة نفسها ١٣٤١/١٩٢٢.

واستضافه الشريف حسين مدة في مكة ثم عاد إلى مصر وبقي فيها إلى أن مات سنة ١٣٧٣/١٩٥٤ -رحمه الله تعالى-.

وكان له في القاهرة جهود ضخمة تمثلت في التالي:

أولاً: فضح مخططات الكماليين –نسبة إلى مصطفى كمال- ضد الإسلام والمسلمين في تركيا، وكان في ذلك مخالفاً لكثير من مثقفي المصريين الذين وقفوا مع مصطفى كمال ورأوا فيه منقذاً لتركيا، لذلك توالت هجمات الصحف على شيخ الإسلام تتهمه بالرجعية والحنين إلى منصبه الذي فقده في تركيا، ومنعت كثيراً من مقالاته، وهنا وضع كتاباً سماه "النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة" طبعه في لبنان التي خرج إليها بعد معارضة كثير من المصريين له، وقد فضح في هذا الكتاب الكماليين وأعمالهم المعادية للإسلام والمسلمين في تركيا، وذكّر بأفعال الاتحاديين وأن أفعالهم وأفعال الكماليين تنطلق من مشكاة واحدة، وذكر أيضاً علاقة الاثنين باليهود، وقد كان وزير مالية الكماليين يهودياً، ووزيرة المعارف خالدة ضياء من أصل يهودي أيضاً.

ولما ألغى مصطفى كمال الخلافة بعد قرابة عام من وجود شيخ الإسلام في مصر تبين للمخدوعين من المصريين صدق ما أخبرهم به شيخ الإسلام، ثم سافر من لبنان إلى رومانيا ثم اليونان التي أصدر فيها جريدة باسم "الغد" ثم أخرجه اليونانيون بناء على طلب الأتراك فلجأ إلى مصر ثانية سنة ١٩٢٩ واستقر فيها إلى أن مات سنة ١٣٧٣/١٩٥٤.

ثانياً: كشف عوار الكتابات الخبيثة التي انتشرت في مصر آنذاك:

وقد كانت تلك الكلمات الخبيثة تكتب في مقالات في الصحف السيارة وفي كتب، كان على رأسها :"الإسلام وأصول الحكم" للشيخ علي عبد الرازق، وقد ثبت فيما بعد أن طه حسين شاركه في تأليف الكتاب، وفيه ذكرا أن الإسلام دين لا دولة، فتصدى شيخ الإسلام لهذا الكتاب وبين عواره.

ثم واجه شيخ الإسلام منكري المعجزات والكرامات أو مؤوليها إلى حد إخراجها من أن تكون خوارق للعادات، وكان منهم في مصر نفر من ذوي المكانة والوجاهة، وإنما فعلوا ذلك مسايرة للعقل —فيما زعموا- ولتبدو متفقة مع طبائع الأشياء، فرد على الأستاذ محمد عبده ومحمد فريد وجدي ومحمد حسين هيكل وجماعة غيرهم، والحق أن رده كان شديداً صعباً لكنه متفق مع طبيعته الحادة وشخصية القوية، ثم إن الملأ في مصر آنذاك كان قد انجرف فريق منهم مع هذه الدعاوى فكان لابد من ظهور صوت قوي لينذر ويحذر ويعيد الحق إلى نصابه، ولعل كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين" هو أهم مؤلف له في هذا الباب، الكاشف لهذه الأخطاء، وهو ضخم جاء في أربعة أجزاء وفي بعضه نزعة فلسفية.

ثم أصدر كتاب "قولي في المرأة" في سنة ١٣٥٤/١٩٣٤، رد فيه على اقتراح قدم إلى مجلس النواب المصري طلب فيه مقدموه تعديل قانون الأحوال الشخصية والأخذ بمبدأ تقييد تعدد الزوجات وتقييد

الطلاق والتساوي في الميراث بين الذكور والإناث، إلى آخر المنظومة المكرورة المكروهة.

وله كتاب رد فيه على مسألة ترجمة معاني القرآن الكريم التي أثارها الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، وكان الشيخ مصطفى صبري معارضاً لها كل المعارضة، وقد استقر المسلمون اليوم على جواز ترجمة المعاني بلا نكير، لكن لعل رده على الشيخ المراغي كان—إضافة إلى ما سبق- بسبب أن المراغي أجاز الصلاة بالقرآن المترجم إلى التركية وغيرها، وهذا هو الذي أثار الشيخ مصطفى صبري لأن هذا كان صنيع الكماليين في تركيا وكأن المراغي بهذا يبرر صنيعهم ويجوز فعلتهم.

وله عدة كتب غير هذه، وله مئات المقالات بالعربية والتركية.

وقد كانت الحكومة التركية قد وضعت اسمه في قائمة الممنوعين من الرجوع إلى تركيا، وجردته من الجنسية التركية، فعاش

في مصر في شدة وشظف عيش، وقاسى كثيراً مادياً ومعنوياً حتى أنه اضطر لبيع كتبه ليسافر من استانبول إلى مصر بالباخرة مع أسرته في الدرجة الثالثة لكنه ثبت فلم يضعف ولم يهن ولم يتراجع عما رآه حقاً، وأزعم أن مصر آنذاك كانت بحاجة إلى عالم رباني قوي مثله في مدة تنازعتها الأهواء من كل جانب، وقَلّ فيها العلماء الربانيون الذين يقومون بما أخذه الله عليهم من القيام به.

معالم في شخصية شيخ الإسلام:

في شخصية شيخ الإسلام مصطفى صبري معالم مهمة تعد بمثابة أركان البناء، وصبغت بها كتاباته صبغة ظاهرة، فمن هذه المعالم:

أولاً: الاستقلال الفكري:

فلم يكن يتبع جهة ما كائنة ما كانت، ولا يقيم لشخصية ولا لهيئة وزناً إلا بقدر اتباعها للحق وخضوعها له، وهذا في زمانه أمر صعب لا يقوى عليه إلا القليل، والشيخ رشيد رضا يشبهه في هذا

الباب -بعد وفاة شيخه محمد عبده- إلا أنه لم يصل إلى مرتبته في هذا الأمر خاصة، وبسبب هذا الاستقلال في فكر الشيخ مصطفى فقد نقد كثيراً من الشخصيات القديمة والحديثة، إسلامية وغير إسلامية ، ولما قيل له : كيف تنقد هؤلاء الأعلام ؟ قال : إن كتابي كتاب مبادئ لا كتاب تراجم.

ثانياً: صلابته في الحق وفي الدعوة إليه:

فقد كان ينبري للدفاع عما يراه حقاً بأسلوب قوي وعبارات شديدة أحياناً وربما وصلت إلى حد الاتهام لبعض الأعلام، وهذا أثار عليه نقمة أشخاص كثيرين ووجه بمضايقات كثيرة لكن هذا كان طبع الرجل لا يستطيع الانفكاك عنه.

وأزعم أنه -فيما قرأته له- قد أصاب في كثير من نقده، وجانبه التوفيق في القليل، وذلك لأن زمانه كان حافلاً بالمتفلتين والعقلانيين والمسايرين لركاب الغرب وأفكاره وتصوراته، وكان منهم

أعلام وشخصيات كبيرة مصرية، وكان من ينقد هؤلاء مثل الكبريت الأحمر في قِلّته، فقام الرجل بما رآه حقاً وواجباً لا يلوي على شي، ولا يداري أحداً.

وقد كان هؤلاء النفر –غفر الله لهم- قد تكلموا بكلمات فيها تجاوز وفيها خطورة، فكان لابد أن يُردَّ عليهم رداً قوياً مفحماً، وكان بعض هؤلاء قد التبست بعض أحوالهم إلى الحد الذي ينبغي أن يتكلم في شأنهم متكلم ما، فكان هذا المتكلم الجريء هو شيخ الإسلام مصطفى صبري، ومن أجل ألا أغرق في التعمية أحيل القارئ إلى المجلدين: الأول والرابع من كتاب "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" ففيهما تفصيل وتصريح وتوضيح، ولولا أن حال بعض هؤلاء الذي رد عليهم الشيخ لازال ملتبساً علي وليس عندي كلمة فصل فيهم لذكرت أسماءهم اللامعة وبعض أحوالهم الشاطحة.

ولا ينُسى أيضاً أن مصر في أوائل القرن الماضي حتى الثلث الأول منه بل إلى قريب من منتصفه كانت معتركاً كبيراً بين المتغربين والمستشرقين والمشبوهين وبين المخلصين، وكان في بعض هؤلاء المخلصين -على قلتهم- قدر غير قليل من الخلط والخطأ في فهم هذا الدين وتفنيد بعض الشبهات حوله، وكان في بعض أحوالهم ما يدعو إلى العجب والتساؤل، ولذلك كان ما كان من موقف شيخ الإسلام.

وأزعم أن الله أنجد مصر بعد ذلك برجال مفكرين عظماء صححوا مسيرة الفكر الإسلامي عموماً بعيداً عن التهاون والشطح والتنازل، وطووا بذلك صفحة أولئك الذين كان لهم جهد مشكور في الدفاع عن الإسلام لكن امتزجت جهودهم تلك بشوائب من الأحوال والأقوال كان لابد من تنقيتها وتهذيبها فأتى الله بكوكبة من المشايخ من مصر نفسها عدلت المسار، وضبطت الأفكار، وكتبت كتابات رائعة أزعم أن شيخ الإسلام لو اطلع عليها لقرّت بها عينه، والمقام لا

يتسع للتفصيل، وفيما ذكرت كفاية، ولعلي أعود إلى ذلك في مقام آخر متوسعاً مفصلاً إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: تضلعه من علم الكلام:

وهذا ظهر بوضوح في مؤلفه :"موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين"، وقد كان في زمن انتشر فيه الإلحاد، وعم وطم، وكان الرجل متحمساً لإثبات وجود الله تعالى بأدلة عقلية كلامية، وبنـــزعة فلسفية أحياناً.

رابعاً: شجاعته:

كان شيخ الإسلام ذا شجاعة عظيمة مكنته من مواجهة الاتحاديين ثم الكماليين ثم المتغربين في مصر –خاصة- وفي غيرها، ولم يأبه بما قد يتعرض له من أذى أو اغتيال، ونبرته الشجاعة واضحة كل الوضوح في كتاباته.

خامساً: حماسته وهمته:

كان شيخ الإسلام ذا حماسة واضحة، وهمة عالية، وقد ثبت على هذه الحماسة والهمة دهراً طويلاً حتى توفاه الله تعالى فلم ينتكس أو يضعف أو يلن رحمه الله.

سادساً: وعيه الكبير بمخططات الأعداء، وشبهات المستشرقين والمستغربين:

وهذا الوعي في زمانه يعد متقدماً جداً بالنسبة إلى أكثر علماء عصره آنذاك، وقد ظهر هذا الوعي جلياً واضحاً في كل كتاباته، وأذكر منها قوله في دعوة العلماء للاشتغال بالسياسة: "فالعلماء المعتزلون عن السياسة كأنهم تواطأوا على أن يكون الأمر بأيديهم – أيدي السياسيين- ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام".

شيخ الإسلام مصطفى صبري في عيون معاصريه:

قال عنه الأستاذ محب الدين الخطيب :"فحل الفحول الصائل الذي يعد فضله أكبر من فضل معاصريه".

وقال عنه الأستاذ الكوثري: "قرة أعين المجاهدين".

وقال عنه الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة: "إن كتابه موقف العقل هو كتاب القرن بلا منازع".

وقد قيل عنه غير ذلك، ويكفي في هذا المقام أن أورد كلام الأستاذ محمد رجب البيومي -الذي ناله تقريع كبير من الشيخ لأمر صدر عنه- حيث قال الأستاذ محمد حفظه الله:

"إني ما ذكرت الشيخ الكبير إلا توافد على ذهني مع هذا الوصف العربي القديم لصاحب الصيحة المجلجلة في المأزق الضائق وهو النذير العريان؛ إذ كان من عادة الأسلاف حين تلوح بوادر الخطر

ويتنبه لها ذو بصر سديد أن يخلع ثيابه ويقف صائحاً فوق مرتفع من الأرض ويقول مشيراً إلى ثوبه المخلوع وقد جعل يحركه عن يمين وشمال: لقد حانت الكارثة: أنا النذير العريان، فيعلم السامعون أن الأمر جد، ويسرعون للتأهب العاجل دون انتظار".

رحم الله شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي وعوض المسلمين عنه خيراً فنحن بأمس الحاجة لأمثاله في هذا العصر الذي أصبح كثير من المشايخ فيه موظفين لا قيمة لهم ولا وزن، ولا هيبة ولا كلمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٩ - شاعـــر تركيـــا

محمد عاكف أُرْصوي

١٢٩٠ - ١٣٥٥

١٨٧٣ - ١٩٣٦

قد بينت في ترجمة شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي حالة تركيا في أواخر الخلافة العثمانية وكيف تمالأ عليها الأعداء والشامتون والمتربصون، وكيف توالى عليها الماسونيون من جمعية الاتحاد والترقي ثم خلفهم الكماليون وكان لليهود يد طولى في كل ذلك، ثم ألغيت السلطنة سنة ١٩٢٢ فالخلافة سنة ١٩٢٤ وأُعلنت تركيا جمهورية علمانية ملحدة، وقطعت صلتها بالإسلام وسائر

المسلمين تماماً، فصار المسلمون في تركيا وخارجها كالشياه بلا راع في الليلة المطيرة المظلمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يكن في العالم الإسلامي آنذاك قوة تستطيع قيادة الجموع المسلمة ولا إرشادها، وفي الوقت نفسه حورب علماء الإسلام ودعاته والمخلصون في تركيا حرباً شعواء لا تبقي ولا تذر، وعُلِّق الآلاف على أعواد المشانق، وكلح وجه تركيا، وأدارت ظهرها تماماً للإسلام والمسلمين.

وفي ذلك الوقت فر جماعة من هذا البطش الكافر والهجوم السافر فروا إلى مصر، كان بينهم علماء مثل شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي، ووكيل المشيخة الإسلامية محمد زاهد الكوثري، وفر فيمن فر الأديب الشاعر محمد عاكف أرصوي، فوجدوا في مصر ملاذاً وملجأً آمناً.

ولد الشاعر محمد عاكف في اسطنبول سنة ١٨٧٣، من أب تركي يسمى محمد طاهر وأم بخارية تدعى أمينة هانم، وتعلم العربية على يد والده الذي كان مدرساً في مدرسة الفاتح، ودرس الابتدائية والمتوسطة.

ثم لما مات والده درس في مدرسة البيطرة، وتخرج فيها سنة ١٨٩٣ ليعمل مفتشاً في وزارة الزراعة.

ولم ينس أن يغترف من مصادر الإسلام فحفظ القرآن وهو مازال بعد في التاسعة من عمره، على يد إمام جامع الفاتح، ودرس الحديث، واللغة العربية، ودرس أيضاً الفارسية والفرنسية.

وبعد تخرجه في مدرسة البيطرة دار في الأناضول والبلقان وسوريا والجزيرة العربية، واقترب من الناس فعرف أحوالهم، وسَيْر شؤونهم، ثم صار مدرساً في اسطنبول سنة ١٩٠٦- ١٩٠٧.

وبعد إعلان الحكم الدستوري سنة ١٩٠٨ شارك في إصدار مجلة "الصراط المستقيم" ونشر فيها أكثر أعماله الأدبية والفكرية، وفي السنة نفسها عُين مدرساً للأدب في دار الفنون "جامعة اسطنبول"، وأسند إليه تدريس الأدب العربي وأصول الترجمة بين العربية والتركية.

انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي التي خدعته بشعاراتها، فلما وقف على حقيقتها فترت علاقته بها فتوراً بيناً، وعارض أفكار ضياء آلب الذي كان بمثابة الأب الروحي لتلك الجمعية المشبوهة.

وفي سنة ١٩١٥ زار ألمانيا في مهمة من قبل الدولة فبقي في برلين ثلاثة أشهر، ورأى هنالك أسرى للمسلمين تابعين للدولة الروسية والإنجليزية فتفقد شؤونهم، ثم عاد إلى بلاده.

ولما هزمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ودخل الحلفاء تركيا شارك في تحرير بلاده بقصائد شعرية ملهبة.

وانتخب بعد ذلك في مجلس النواب في دورته ١٩٢٠-١٩٢٣ ممثلاً عن محافظته، وفي تلك السنوات كتب نشيد الاستقلال الذي أقره البرلمان التركي ليكون نشيداً رسمياً لتركيا في ١٢ مارس سنة ١٩٢١، وكان هناك سبعمائة متسابق قدموا أناشيدهم قبله فلم يفز أي منهم، ومما جاء في هذا النشيد:

أنت ابن شهيد حذار من أن تؤذي أباك، لا تتخل عن هذا الوطن الجنة وإن امتلكت العوالم، أيها الهلال الجميل لن تُمزق سأفديك بنفسي ...

إلى آخر ما جاء في النشيد الذي ردده ويردده مئات الملايين من الأتراك منذ قرابة تسعين سنة إلى يومنا هذا.

ثم لما انتهت مدته في مجلس النواب عاد إلى اسطنبول من أنقرة، ولم يُدع من الحزب الحاكم لخوض الانتخابات مرة أخرى؛ ويبدو أن هذا كان بسبب اتجاهه الإسلامي الظاهر.

ولما ألغى مصطفى كمال السلطنة فالخلافة، ونكل بالشعب التركي كل التنكيل صُدم عاكف صدمة بالغة، وذلك لأنه كان يدعو إلى الوحدة الإسلامية في أشعاره وكتاباته، فرأى ذلك قد ذهب أدراج الرياح، ورأى أن التركي المسكين كان يعدم من أجل إصراره على الطربوش ورفضه القبعة، ورأى الإسلام يحارب حرباً شعواء، فلما وقف على ذلك كله آثر الخروج من تركيا.

فيمم وجهه شطر مصر، التي زارها من قبل مرتين مدعواً من قبل صديقه الأمير عباس حليم باشا، سنتي ١٩١٤، ١٩٢٤، ووصلها في المرة الثالثة سنة ١٩٢٥، وتوطدت صلته فيها بالأديب المصري عبدالوهاب عزام الذي مهد له الطريق إلى تدريس اللغة التركية في جامعة فؤاد: "القاهرة"، وهيأ له الصلة بمثقفي مصر.

لكنه عانى في مصر من زوجه التي أصبحت حادة المزاج، وعانى من الفقر والوحدة، وعانى كثيراً من غربته، وفي سنة ١٩٣٥

-بعد عشر سنوات من إقامته بمصر- غادرها إلى لبنان للاستجمام ومن ثم إلى اسطنبول ليموت بها في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦.

وكان محرر مجلة "يدي كون" التركية الأستاذ قندمير قد اجتمع بالأستاذ في المستشفى، وإليكم أهم ما دار بينهما من الحديث الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد يلماز مدرس اللغة العربية بكلية الإلهيات بجامعة أولوداغ التركية:

ــ استغرق السفر من مصر إلى هنا ثلاث ليال غير أنها كانت بالنسبة لي ثلاثين قرناً، أمضيت هناك أحد عشر عاماً إلا أني شعرت في لحظة من اللحظات أني لو بقيت هناك أحد عشر يوماً أخرى لجن جنوني.

ــ الشوق؟

ــ مؤلم جداً.

ــ طيب، ماذا عن فرحة اللقاء؟

ـــ لا تسألني عن ذلك يا بني فأنا لا أجرؤ على طرح السؤال حتى على نفسي، لكني مع الأسف الشديد وجدت نفسي على هذا السرير بمجرد ما خرجت من الباخرة فلم أتمكن من مشاهدة أي شيء.

ـــ ثم تحدث عن أيام الجهاد ضد الكفار الذين وطئوا أرض تركيا في الحرب العالمية الأولى فقال:

ـــ غادرت اسطنبول حيث أقلتنا سيارة من أُسكدار إلى قرية لا أتذكر اسمها في الوقت الحالي ... كنا نستقل في رحلتنا تارة عربة تجرها الثيران وأخرى تجرها الأحصنة حتى وصلنا إلى أنقرة ... كانت تلك الأيام ما أشد هياجها خصوصاً يوم سقطت بورصة ... لكننا لم نفقد ثقتنا ولو يوماً واحداً و لم نسمح لليأس أن يتسرب إلى قلوبنا أبداً، فهل كان هناك مناص أمامنا غير الجد؟

لم نكن نمتلك مدافع ولا بنادق لكننا كنا نمتلك إيماننا الراسخ في قلوبنا والحمد لله.

ـــ كيف قمتم بكتابة نشيد الاستقلال؟

ـــ حقاً إنما يكتب هذا الكلام بالإيمان والأمة المؤمنة فقط، فكروا معي قليلاً: هل كان بإمكاني أن أكتب كل هذا لو لم أمتلك الإيمان الراسخ وقتذاك ... ولا بد لي أن ألفت الانتباه إلى أنه لا قيمة لنشيد الاستقلال على اعتبار أنه مجرد شعر وإنما تكمن قيمته في كونه أنه يعكس صفحة من صفحات تاريخنا بما فيها من آلام.

ـــ وماذا عن النصر العظيم؟

ـــ كنا في فرحة غامرة.

ـــ ألم تقوموا بكتابة شيء ما عند ذلك ؟

ـــ نفدت كل طاقاتي في تلك اللحظات فلم أعد أقدر على التفكير في أي شيء ولا على سماع أيّ شيء، ولا كتابة أي شيء ...

ـــ كيف قضيتم الوقت في مصر؟

ــ هناك مدينة اسمها حلوان تقع على بعد خمسة وعشرين كيلاً من القاهرة، وهي مدينة هادئة كنت أقطنها، فأنا بطبعي إنسان هادئ لا أحب الضجيج، وكذلك في اسطنبول كنت على الحال نفسها من قبل، ففضلت العيش في مدينة حلوان لغاية ما كلفت بمهمة في دار الفنون، وفي الأيام الأخيرة حللت بالقاهرة.

ــ فهل أحببتم مصر؟

ــ نعم فهناك جوانب جميلة بمصر خصوصاً في فصل الشتاء، وكذلك في فصل الصيف لم أكن أتضايق من الطقس الحار ... والبيوت بنيت على طراز يتناسب مع الطقس هناك فلا تتعدى الحرارة داخل الغرف في أشد الأيام حرارة ثمانياً وعشرين أو ثلاثين درجة ...

ــ هل تسهل عليك الكتابة؟

ــ لا، أبذل مجهوداً كبيراً وأُعمل ذهني حيث أدرس الموضوع بكل تفاصيله في ذهني وأخيراً عندما أنقله على الورق أتعب كثيراً.

من أعماله:

قد كتب عاكف كثيراً من المقالات السياسية والأدبية في مجلته "الصراط المستقيم" والتي صار اسمها بعد ذلك "سبيل الرشاد"، ومما كتبه:

"لم يكن أمام مسلمي الأناضول التركي بعد أن رأوا حجم مصيبة الاعتداء على حرمة أراضيهم غير العودة مجدداً لحمل السلاح والعمل على صد حملات أهل الصليب في حضارة القرن العشرين".

وكتب منتقداً القومية التي شاعت في تركيا آنذاك:

" ياجماعة المسلمين:

أنتم لستم بعرب، ولا ترك، ولا بلقانيين، ولا أكراد، ولا قوقازيين، ولا شركس، أنتم فقط عبارة عن أفراد في أمة واحدة هي الأمة الإسلامية، وكلما حافظتم على الإسلامية لم تفقدوا قومياتكم"

وقد شغف في صدر شبابه بالشاعر الفارسي سعدي الشيرازي وترجم أكثر شعره إلى التركية، وأعجب بالشاعر المصري ابن الفارض ولعله لم يتنبه لما في بعض شعره من ضلالات وذلك لأنه -أي عاكفاً- لم يكن متضلعاً من العلوم الشرعية، والله أعلم.

وأما شعره فمجموع في دواوين سبعة ما زالت تروج بين الأتراك، وقد أبصر ديوانه الأول النور سنة ١٩١١ وسماه بـــ"صفحات" وفي سنة ١٩١٢ صدر ديوانه الثاني بعنوان "في منبر السليمانية" جمع فيه مقطوعات من شعره الديني والأخلاقي، وفي سنة ١٩١٣ صدر ديوانه الثالث "أصوات الحق" الذي حوى إشارات في تفسير القرآن العظيم وبيان بعض الأحاديث الشريفة، وفي سنة ١٩١٤ صدر ديوانه الرابع "في منبر الفاتح" الذي أورد فيه شعره عن ثورات البلقان ضد الأتراك ونتائجها السيئة، وفي سنة ١٩١٧ صدر ديوانه الخامس: "الخواطر" الذي حوى شعره عن رحلته إلى مصر وألمانيا، ثم صدر ديوانه السادس: "عاصم" سنة ١٩١٩ الذي حوى شعره عن

حرب الاستقلال، ثم صدر ديوانه السابع: "الظلال" الذي حوى أعماله من سنة ١٩١٨-١٩٣٣.

كتب قصيدة بعنوان "من صحراء نجد إلى المدينة المنورة" تحدث فيها عن زيارته للمدينة المنورة سنة ١٩١٤.

ومن شعره الذي ترجمه صديقه الدكتور عبدالوهاب عزام رحمهما الله تعالى:

ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولي، و لم يكن لي بد أن أنوح لأوقظ الإسلام، إنما أريد أن تفور القلوب المرهفة الحس، الراسخة الإيمان ...

إني أنوح ولكن لمن ؟ أين أهل الدار ؟ أقلب طرفي فلا أظفر إلا بأمم نائمة.

ومن شعره لما زار الأقصر فوجد فيه سياحاً أجانب فرنسيين وإنجليزيين وألمانيين يحتسون الخمر، ورأى أمامه آثار الفراعنة فقال:

"رأيت أمامي نحو ثلاثة عشر نفراً من السائحين ما بين فرنسيين وإنجليز وألمان، مجتمعين زرافات ووحداناً وللكؤوس بينهم رنين، فالفرنسيين يضحكون لأن كيسهم المملوء يهز الدنيا المدينة لهم هزاً عنيفاً، وليس في الدنيا ما يحزنهم إلا هزيمة "سيدان" ومع ذلك فإن الرغد والرفاهية ينسيان الإنسان أنكى الجروح.

والإنجليز يضحكون وما أجدرهم بالضحك لأن الدنيا كلها رهن إشارتهم ... يؤلبون شعوب الأرض بعضها على بعض وينظرون عن بُعد فرحين ...

والألمان يضحكون لأن قوة عضدهم كفيلة بأن يصدق العلم جميع ما يقولون، وما دام البشر لا يعطى الحق إلا للقوة، فما الحيلة في الوصول إلى الحق بغير القوة.

أضعيف أنت إذن ؟ فالنحيب أولى بك، نعم في هذه الساحة من الصخب: صخب الحبور، وجلبة السرور، أنا وحدي اليائس الذي

لا يتسم، قد أخذت أبكي وما أجدرني بالبكاء، فأنا كالقريب من ديار ديني ... هذه السهول لا ترجع حديثي، أيها الشرق العظيم، أيها العالم المترامي الأطراف: ليت شعري في أي بقعة من بقاعك نجد أبناءك السعداء، إن رأسك ترزح تحت الشدائد وعضدك واه، وذراعيك مغلولتان، ولما يهب نسيم الاستقلال على قلبك بعد، قد طفت في أرجائك كلها لأرى أمامي داراً للإسلام فكلّت قدماي.

وكلما تناهت إلي من سبيلي أصوات الأجانب لم تفض روحي الباكية إلا بخيبة الأمل، فهل كان نصيبي أن أكون غريباً في قلب الإسلام؟ إن هذه العاقبة لأقصى انتقام للأيام، والآن وقد تقدمت بي السنون ووهت قدماي فعلى بنيّ أن يجاهدوا ويأخذوا بثأري".

وفي كلامه تشاؤم لا يوافق عليه، لكن أنى لمثله أن يتفاءل وهو يرى الأكثرية الساحقة من ديار الإسلام آنذاك محتلة ومسحوقة، وهو يرى أكثر المسلمين آنذاك في صدٍّ عن الإسلام وهجران لشريعته

وشعائره، لقد كان يعيش في مدة مظلمة، لم يكن فيها بصيص من نور يبشر بعودة الإسلام من جديد، وأقول دائماً لبعض إخواني: احمدوا الله -تعالى- على أنكم لم تعيشوا في ذلك الزمان وجئتم في زمان كل ما فيه يبشر بعودة الإسلام من جديد، ولله الحمد والمنة.

ومن أعماله ترجمة معاني القرآن إلى التركية، صنع ذلك في مصر أيام منفاه فيها، لكنه –على حذره في الترجمة واهتمامه بها- لم يرض عن عمله هذا فطواه و لم ينشره حتى ذهب أدراج الرياح.

أشخاص تأثر بهم:

وكان قد تأثر كثيراً بالأستاذ جمال الدين الأفغاني –رحمه الله تعالى- ودعوته لنبذ الاستبداد ونيل الحريات ولو بالقوة، وكان يردد آراءه وآراء تلميذه الأستاذ محمد عبده –رحمه الله تعالى- وترجم كثيراً من تلك الآراء إلى اللغة التركية، وأفراد لمقالات الأستاذ محمد فريد

وجدي رحمه الله تعالى حيزاً كبيراً من جريدته، وترجم كتاب الأستاذ فريد "المرأة المسلمة".

وتأثر بالشاعر الكبير محمد إقبال وصيحاته الثائرة، وقد أخبر عنه صديقه الأديب الدكتور عبدالوهاب عزام:

"كم تحدثنا وقرأنا في سيرنا وجلوسنا في الآداب الثلاثة: العربية والفارسية والتركية، وكنت أحب أن أقرأ عليه شعره، وكان يسره أن يستمع إليه، وكانت كل أحاديثنا وقراءاتنا متعة نجتمع فيها على الفكر والذوق والأمل والألم.

وكان أطيب المجالس مجلساً نفرغ فيه إلى شعر محمد إقبال، فقد عرّفني رحمه الله بإقبال يوم أعارني ديوانه "بيام مشرق" فإذا صفا الوقت عمدت إلى أحد كتب إقبال فقرأت، واستمع مقبلاً مستغرقاً، يقطع إنشادي في الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجب أو التأوه وأذكر أننا بدأنا كتاب إقبال "أسرار خودي" فوالينا

الجلسات حتى أنهيناه إنشاداً ثم أتبعنا به أخاه "رموز بي خودي" فختمناه على شوق إلى الإعادة.

قال عنه: الأستاذ الألماني ريتشارد هرتمان:

"هو مع إحاطته –على العموم- بالحياة الثقافية والسياسية يتعمق من الوجهة الإصلاحية في الدين، وما يعنيه من الرجوع إلى الإسلام يعني به الرجوع إلى الإسلام القديم لا بإبعاد الأمور التي غيرت منه أثناء تطوره التاريخي فحسب بل أيضاً وقبل كل شيء يريد الوقوف ضد هؤلاء العصريين المندفعين في تيار الغرب، وضد دعاة المذهب القومي، فهي حركة دينية تريد أن يكون الدين قوة تخضع لها كل الحياة المدنية في غير إضرار بحركة الفرد".

ولم يكن له كبير ذكر في بلاده إلى أن قرر مجلس الأمة التركي في ٤ مايو ٢٠٠٧ قراراً باعتبار يوم ١٢ مارس من كل عام

يوماً وطنياً للاحتفال رسمياً بذكرى قبول النشيد الوطني التركي والاحتفاء بشاعره، ولعل في هذا شيئاً من التكريم له والوفاء.

تلك كانت سيرة عاكف الشاعر التركي الكبير بإيجاز، وقد عاش في مدة صعبة جداً، ولم يكن فيها للإسلام رجال يعملون له إلا القليل، فلذلك غلب على شعره التشاؤم والبكائيات، لكن حسبه أنه حاول أن ينصر الإسلام ويوقظ المسلمين من باب الشعر والأدب، ولعل ذلك كان أقصى ما يستطيع عمله وهو غريب نائي الدار عن وطنه وأهله، ولنسأل الله له الرحمة والغفران.

١٠- الشيخ المجاهـــد

سعيد بيران الكـــردي

١٢٨٢-١٣٤٣

١٨٦٥-١٩٢٥

عندما أسس مصطفى كمال جمهورية تركيا الحديثة أقامها على بتِّ الصلة بالإسلام، وقطع صلاتها بالمسلمين، وأرغم الأتراك على التفرنج في الهيئة والسلوك، وشجع النـــزعات الإلحادية، وقمع الصوت الإسلامي تماماً، وكلح وجه تركيا، وكان العلماء آنذاك يدورون بين خيارات: إما السكوت على مضض والانحناء أمام تلك العاصفة الهوجاء، وإما المهادنة والرضا، وإما الاعتراض، وإما الثورة

والعصيان، وقد واجه مصطفى كمال اعتراضات العلماء بوحشية وصفاقة، فأعدم منهم عدداً كبيراً، وسجن آخرين، أما العلماء الذين عصوا وثاروا -وكانوا قلة نادرة- فقد واجههم الجيش التركي الجرار الذي لم يبق ولم يذر، وقضى على ثورتهم بسرعة، ومن هؤلاء الشيخ سعيد بيران.

وهو سعيد بن محمود بن علي البالوي نسبة إلى بالو وهي منطقة من المناطق الكردية، وكان جده علي قد استقر فيها ونُسب إليها، ولد الشيخ سعيد في بالو هذه سنة ١٨٦٥ في قرية بيران، وتعلم على يد والده، فحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ثم درس الفقه، وكان والده زعيماً دينياً يلتف حوله الناس، وكان نقشبندياً، فلما مات ورثه ولده سعيد هذا في الزعامة الدينية والتف حوله الأكراد وبعض الأتراك، ومن المعلوم أن الطريقة النقشبندية تقل فيها البدع وكثير من زعمائها مجاهدون لهم أيادٍ بيضاء في الجهاد، وكان منهم الإمام شامل في داغستان والشيشان.

وكان عدد من اجتمع حول الشيخ سعيد قرابة اثني عشر ألفاً، وهو عدد ضخم يغري بعمل شيء لوقف الإلحاد، ولا يُنسى في هذا المقام حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة".

بذل الشيخ سعيد جهوداً كبيرة في نشر العلم في مناطق الكرد، وكان مجلسه يضم العلماء والعبّاد والرجال الأشداء الذين يرغبون في الجهاد، وكان لا يقبل من أحد أن يقبل يده أو ينحني له كما كان الناس يفعلون بالمشايخ آنذاك.

وكان للشيخ جولات استقطب فيها بعض العائلات الكردية، وشارك في جمعية "آزادي" وهي جمعية كردية جعلت من أهدافها نيل الأكراد حقوقهم، وكان من المنتظر أن تقوم جمعية كهذه في خضم الصيحات المجنونة التي كان يطلقها الطورانيون الأتراك، والأعمال ذات الصبغة القومية التي كانوا يقومون بها، ونحن نعلم أنه لا ينبغي -في ظل الإسلام الوارف- أن تقوم جمعية للكرد وأخرى للترك وثالثة للعرب، فهذا الصنيع قاصم للوحدة الإسلامية وقاصم لظهر الإسلام القوي.

وقد هم الشيخ رحمه الله تعالى أن يؤسس جامعة إسلامية في منطقة "وان" الكردية تكون على غرار جامعة الأزهر في القاهرة لكن بعض المشايخ الأكراد وقفوا ضد هذا المشروع فلم يكتب له الظهور.

وكان للشيخ صلات مع بعض المثقفين الأكراد في اسطنبول عن طريق ابنه علي رضا والشيخ عبدالقادر أفندي نجل الشيخ عبيد الله النهري، لكن لا ندري ما الذي استفاده من صلاته هذه، فإن المعلومات عن الشيخ سعيد بقيت شذرات قليلة ليس فيها تفصيلات.

موجز تاريخي لمناطق الأكراد آنذاك:

في سنوات الحرب العالمية الأولى احتل الروس كثيراً من مناطق الأكراد، وتركوا الأرمن يعيثون في بعضها فساداً، وفي سنة ١٩١٧ انتصرت الثورة البلشفية في موسكو وانسحبت القوات الروسية من مناطق الأكراد وسلمتها إلى الميليشيات الأرمنية، وكان القائد خالد جبري آنذاك هو الشخص المحبوب المطاع لدى الأكراد، وكان قائداً

لإحدى الفرق العسكرية للجيش العثماني وكان حميدياً مؤيداً للسلطان عبدالحميد وداعياً للخلافة العثمانية، فدعا إلى قتال الأرمن وإخراجهم من المنطقة الكردية، وفعلاً استطاع خالد جبري ومن معه أن يخرجوا الأرمن، وفي سنة ١٩٢٠ حرروا أرض الكرد وطهروها من الأرمن تماماً.

ولما عقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ نصّت على بقاء ديار الكرد في الجمهورية التركية، وهذا لم يعجب خالداً جبري فخطط للثورة هو ومجموعة من القواد في ديار بكر، لكن هذا الأمر انكشف وأعدم خالد جبري ونائبه في التنظيم السري قبل أن تنطلق الثورة.

وفي شهر فبراير من سنة ١٩٢٥ اجتمع أعضاء التنظيم من تركيا والعراق وسوريا في حلب وقرروا انتخاب الشيخ سعيد قائداً عاماً للثورة خلفاً لخالد جبري، ورئيساً لجمعية آزادي، وعين المؤتمرون الجبهات الثورية وقياداتها على النحو التالي:

جبهة بالو بقيادة الشيخ شريف ومعه ١٨ ألف مقاتل.

وجبهة فارتو بقيادة الضابط عبدالله ملكان وعلي رضا نجل الشيخ سعيد والعقيد خليل حتو ومعهم ١٢ ألف مقاتل.

وعلى هذا المنوال عينت جبهات القتال الأخرى في ديار بكر وباخر ومادن وبوتان وساسون إلى آخره ...

وقد حدث خطأ عقب هذا التوزيع نشأت بسببه الثورة مبكراً، أي أن الأكراد ثاروا قبل اكتمال استعدادهم، وسبب هذا أن الشيخ سعيداً قام بجولة واسعة في مناطق الأكراد لتهيئتها للثورة، وكان معه مئات من مناصريه، وكانت الثورة قد خُطط لها أن تبدأ صبيحة عيد النوروز في ٢١ مارس/آذار سنة ١٩٢٥ وهو يوم العيد القومي للكرد، ووصل الشيخ إلى قريته بيران، وصادف قدومه دخول مفرزة من الجيش التركي لاعتقال بعض الشباب الأكراد، فطلب الشيخ سعيد من رئيس المفرزة -حسني أفندي- احترام وجوده وتأجيل اعتقال من

يريد بعد أن يغادر الشيخ القرية فرفض رئيس المفرزة، فنشب صراع مسلح بين الطرفين أدى لمقتل بعض الجنود الأتراك وأسر القائد وبعض من معه، فظن بعض قادة الجبهات الكردية أن الشيخ سعيداً بدأ الثورة فهاجموا القوات التركية المنتشرة في مناطقهم، واندلعت الثورة في مناطق الأكراد بسرعة، وانضم إليهم بعض العرب والشركس والأرمن.

وسيطر الشيخ عبدالرحيم أخو الشيخ سعيد على محافظة "كينجو" التي أُعلنت عاصمة مؤقتة للأكراد.

وقام طاهر بيران -أخو الشيخ سعيد أيضاً- بالاستيلاء على البريد من ليجة إلى سردي، ووصل بمائتي مقاتل إلى كينجو وسلم للشيخ سعيد الوثائق والأموال.

وبهذه الأحداث ابتدأت حركة الشيخ سعيد الثورية قبل أربعين يوماً تقريباً من الوقت المقرر لها، وتولى فقي حسن رئيس

عشيرة مودان إدارة محافظة "كينجو"، وألغى الشيخ سعيد ضريبة العشر، وهذا جلب رضا السكان، وسُجن المحافظ التركي والموظفون الأتراك.

ـــ عقد مجلس الوزراء التركي جلسة عاجلة في ١٩٢٥/٢/٢٢ شارك فيها رئيس الأركان فوزي باشا، وأعلنت حالة الطوارئ في منطقة الانتفاضة.

ـــ في ١٩٢٥/٢/٢٥ عقد البرلمان التركي جلسة عدل فيها القانون رقم ٥٥٦ الخاص بالعقوبات على خيانة الوطن ليصبح كالتالي:

"منع إنشاء المنظمات السياسية على أسس دينية، وكذلك استخدام الدين في سبيل تحقيق الأهداف السياسية، واعتبار الأشخاص القائمين بمثل هذه الأعمال أو المنتسبين إلى مثل هذه التنظيمات خونة"، ولعل هذا القانون هو الأول في البلاد الإسلامية وهو السابق إلى تأسيس هذا الفهم الخاطئ ألا وهو فصل الدين عن السياسة.

ـــ في ١٩٢٥/٢/٢٨ أحرزت الثورة انتصارات، والتف حولها عشرون ألفاً تقريباً من المقاتلين الأكراد، واستولت على ليجة وخاني، وارتبكت الحكومة التركية.

ـــ في ٢/مارس/آذار سنة ١٩٢٥ استقالت حكومة فتحي بك وتولى عصمت إينونو رئاسة الوزراء، وأعلنت الحكومة تدابير جديدة لقمع انتفاضة الشيخ سعيد، وسن البرلمان قانوناً يسمح بإنشاء محكمتين: إحداهما في أنقرة والأخرى في الولايات الشرقية -مناطق الأكراد- أما الأولى فصلاحيتها محدودة ولابد من مصادقة البرلمان على أحكام الإعدام، أما الأخرى فصلاحياتها مطلقة.

ـــ في ١٩٢٥/٣/١١ أمر الشيخ سعيد بالهجوم على مدينة ديار بكر الحصينة من جميع الجهات لكن القوات التركية المتفوقة عدداً وعدة أفشلت الهجوم فأصدر الشيخ سعيد أمره بالانسحاب.

ـــ في ١٩٢٥/٣/٣١ هاجمت القوات الحكومية مناطق الانتفاضة وحصل تحول في موازين القوى ضعف على إثره الأكراد.

ـــ في ١٩٢٥/٤/٦ تراجع الشيخ سعيد ومعه مئات من مقاتليه إلى صالحان.

ـــ وفي ٤/١٠ حوصرت قوات الانتفاضة في "كينجو" وحُطمت، وقبض على الشيخ سعيد وعدد من أتباعه.

ـــ في ٥/٢٩ بدأت محاكمة الشيخ سعيد ورفاقه، واستغرقت شهراً كاملاً.

ـــ في ٦/٢٩ صدر حكم بالإعدام شنقاً على الشيخ سعيد ورفاقه ونفذ في اليوم التالي في ساحة المسجد الكبير في ديار بكر، وفوق منصة الإعدام قال الشيخ سعيد:

"إن الحياة الطبيعية تقترب من نهايتها و لم آسف قط عندما أضحي بنفسي في سبيل الله، وإننا مسرورون لأن أحفادنا سوف لن يخجلوا منا أمام الأعداء".

عقب إخماد الثورة نكل الكماليون بالأكراد تنكيلاً فظيعاً استمر إلى سنة ١٩٢٨.

جوانب مهمة في ثورة الشيخ سعيد رحمه الله تعالى:

ـــ حاول الشيخ سعيد إقناع بديع الزمان سعيد النورسي الكردي المشهور بأن يثور معه لكن بديع الزمان رفض ورأى أن يخدم الإسلام على النحو الذي صنعه، ولكل منهما أجر اجتهاده إن شاء الله تعالى.

ـــ يمكن أن يعد الشيخ سعيد أول شيخ في القرن الماضي يقود ثورة وينجح في إدارة أجزاء من بلاده برهة من الزمن، وحركته جديرة بالدراسة من قِبَل كل من يريد معرفة الحركات الثورية على الحكام

الظلمة والكفرة في العصر الحديث وتأصيلاتها الشرعية وفقهها الحركي.

ـــ لم تكن ثورة الشيخ سعيد لأجل القومية الكردية كما أشاع مصطفى كمال وأنصاره، إنما كانت لوجه الله تعالى، ويمكن أن بعض أنصاره ثاروا ثأراً لقوميتهم لكن هذا كان رد فعل متوقع في ظل السياسة القومية الطورانية الهوجاء التي كانت تدير بها حكومة أنقرة البلاد، لكن الشيخ سعيداً كانت منطلقاته إسلامية محضة، ويدل على هذا ما ذكره الملا أبوبكر في موقع جريدة "الاتحاد" في شبكة المعلومات حيث قال ما ملخصه:

ظن بعض الناس أن الشيخ سعيداً قاد الثورة من أجل حقوق الكرد القومية، وهو ما ادعته الحكومة الكمالية وأعلنته أثناء محاربة الشيخ، وهو نفس ما تدعيه بعض الحركات القومية الكردية إلى يومنا هذا إذ نسبوها إلى جمعية "آزادي" وجمعية "تعالي وترقية كردستان"،

وهو أيضاً ما ركز عليه بعض المستشرقين في كتاباتهم التاريخية عن الثورة.

إلا أن الوثائق التي ظهرت في السنين الأخيرة أثبتت إسلاميتها وقيامها لأجل إعادة الخلافة وتطبيق الشريعة الإسلامية.

وكانت الحكومة التركية تعد وثائق حركة الشيخ سعيد بيران إلى سنة ١٩٧٧ وثائق سرية وتحظر الاطلاع عليها.

وقد ظهرت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي دراسات ووثائق توضح حقيقة الثورة وأهدافها، وأن الشيخ أعلن الثورة باسم الله، واتخذ لها راية خضراء هي راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمل شعاراً لها: لتحيا الخلافة ولتسقط الجمهورية، وكان يتلقب بخادم المجاهدين.

وقد نشرت وثيقة سرية لمجلس الأمن التركي تبين أن ثورة الشيخ سعيد إسلامية، ومما جاء في وثائق محاكمات الشيخ سعيد أن

القاضي عندما اتهمه بأن دوافعه قومية قال له: يشهد الله أن الثورة لم تكن من صنع السياسيين الكرد -القوميين- ولا بسبب تدخل الأجانب.

وقد سأله القاضي: هل تريد أن تصبح خليفة؟

فقال: إن وجود الخليفة ضمانة أساسية لتطبيق قواعد الدين، وإن المسألة مطلوبة شرعاً.

وسأله: هل كان إعلانكم للعصيان يعني أنكم وصلتم إلى قناعة تامة بأن الشريعة غير مطبقة في البلد؟

فأجابه: إن القرآن الكريم يؤكد على الخروج على الحاكم في الظروف التي أشرنا إليها أعلاه، وتطبيق الشريعة يعني منع الهَرْج والمرج: القتل والزنا وشرب الخمر إلخ ... وبحمد الله كلنا مسلمون ولا يجب التمييز بين الكرد والترك، وحسب اعتقادنا أن هذه الأمور حالياً متروكة، إننا انطلقنا من هذه القناعة وعلى أساس القرآن الكريم.

واتُهم الشيخ سعيد بأن الأجانب ساعدوه أي الإنجليز والفرنسيين، وقد تبين أن الإنجليز لم يساعدوه بل ساعدوا مصطفى كمال الذي قاتل الشيخ سعيداً بمدافع الإنجليز، وتبين أن الأتراك طلبوا من الفرنسيين المحتلين لسوريا آنذاك أن يسمحوا بمرور ٤ قطارات يومياً على الخط الحديدي بغداد-حلب-اسطنبول لنقل خمسة وعشرين ألف جندي تركي مع عتادهم إلى مناطق القتال.

ـــ كانت الثورة في الجملة غير ناضجة، ولم يسبقها إعداد كاف ولا تربية جهادية واضحة لسائر الأكراد، وقد ذكرت أن الشيخ سعيداً وجد نفسه في مواجهة الجنود الأتراك قبل الموعد المخطط له بأربعين يوماً، كل هذه العوامل أدت إلى إجهاض مبكر للثورة.

لكن يكفي الشيخ أنه ثار لوجه الله تعالى، وترك تراثاً جهادياً ناصعاً يستمد منه المجاهدون إلى قيام الساعة معاني جليلة وقيماً عظيمة، ويكفيه أنه أول شيخ -فيما أعلم- ثار في القرن الماضي أمام

الحكومات الظالمة أو الكافرة وترك بذلك تجربة مهمة تستضيء بها الأجيال.

كان الشيخ سعيد واعياً بمتطلبات زمانه، فاهماً لفقه الواقع، وهذا ما ميزه عن كثير من المشايخ الذين كانوا في غفلة، وكان مخلصاً -كما أحسبه إن شاء الله- وهذا ما ميزه عن بعض مشايخ السوء الذي باعوا دينهم بدنيا غيرهم.

وكان يفهم الإسلام بشمول جامع بين النواحي الدينية والسياسية على وجه غير مسبوق إلا من قلة قليلة من المشايخ الذين جاؤوا في العصر الحديث وكان لهم محاولات إصلاحية، بينما كان كثير من المشايخ في عمى عن هذا الشمول في تناول القضايا الإسلامية والتعامل معها.

تلك كانت سيرة الشيخ المجاهد سعيد بيران الكردي، وأزعم أن سيرته بحاجة إلى دراسة شاملة وواسعة من قبل مؤرخي الإسلام

عامة ومؤرخي الكرد خاصة فما هو موجود منها إنما هو شذرات قليلة لا توفي بحق هذا المجاهد العظيم الذي لم يصبر على إعلان الكفر في تركيا وتحويلها عن قبلتها الإسلامية وماضيها المجيد، والله الموفق.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٤
المجاهد البطل أحمد بن عرفان الشهيد	١٥
المجاهد الداعية عثمان بن فودي	٢٧
المجاهد الداغستاني الإمام شامل	٤٠
الداعية العجيب عبدالرشيد إبراهيم	٥٥
الأمير المجاهد محمد بن عبدالكريم الخطابي	٦٥
أبو الأحرار محمد محمود الزبيري	٨١
الباحثة عن الحقيقة مريم جميلة	١٠١
شيخ الإسلام مصطفى صبري التَوْقادي	١١٦
شاعر تركيا محمد عاكف أُرْصوي	١٣٥
الشيخ المجاهد سعيد بيران الكردي	١٥٤
فهرست الموضوعات	١٧٥

عظماء منسيون

الجزء الثاني

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى

١٤٣١هـ — ٢٠١٠م

دار الاندلس الخضراء

جدة / هاتف : ٠٢/٦٨١٠٥٧٧
/ فاكس : ٠٢/٦٨١٠٥٧٨
الرياض / هاتف : ٠١/٢٤٨١٧٠٥
/ فاكس : ٠١/ ٢٤٨١٩٠٥
التوزيع / ٠٥٥٤٤٨١٩٠٥ - ٠٥٤٤٠٤٦٠٦٢

المكتبات : حي السلامة
هاتف - فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
حي الثغر - شارع باخشب
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب : ٤١٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو وسيلة سواء كانت إلكترونية أو يدوية أو ميكانيكية بما في ذلك جميع أنواع التصوير المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو أنظمة الاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر بذلك.

عظماء منسيون

الجزء الثاني

تأليف

د. محمد بن موسى الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة "عظماء منسيون في التاريخ الحديث"، يحوي تسعاً من تراجم عظماء الرجال الذين كان لهم أثر ظاهر في التاريخ المعاصر، وسرت في منهج سرد تاريخهم على الطريقة نفسها التي سرت عليها في إيرادي تراجم الجزء الأول، الذي فصلت في مقدمته أهمية هذه التراجم وطريقتي في إيرادها وسرد تواريخها، ولا أعود هاهنا لذكر شيء مما ذكرته في مقدمة الجزء الأول لكني أؤكد على شيء واحد فقط ألا وهو الأهمية البالغة للتراجم في تنشئة وتربية الأجيال على الفضائل والكمالات، وأن هذه الأجيال في حاجة ماسة إلى قدوات تقتدي بها، وليس هناك أعظم ولا أجل من أعلام الإسلام ليُقتدى بها ويُتأسّى.

والله أعلم، وهو الموفق، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

البريد الالكتروني mmalshareef@hotmail.com

الموقع على الشبكة www.altareekh.com

السلسلة الثانية

١. "رجل الحماسة والهمة" عبدالعزيز الثعالبي.

٢. "العالم المجاهد" محمد أمين الشنقيطي.

٣. "القائد البطل" ساموري توري.

٤. "أمير البيان" شكيب أرسلان.

٥. "المجاهد" عمر الفوتي.

٦. "الداعية الأديب" محمد البشير الإبراهيمي.

٧. "المفسر العامل" أبو الثناء الآلوسي.

٨. "المجدد السلفي" محمود شكري الآلوسي.

٩. "الإمام المجاهد الصومالي" محمد بن عبدالله حسن.

١- رجل الحماسة والهمة

عبدالعزيز الثعالبي

١٢٩٣-١٣٦٣

١٨٧٤-١٩٤٤

عبد العزيز الثعالبي علم من أعلام تونس الخضراء، كم في تونس من أعلام، وكم ظهر فيها من رجال عظام منذ أَنِسَتْ بالفتح الإسلامي إلى يوم الناس هذا، ولئن نكبت في هذا الزمان ببورقيبة وابن علي فإن فجرها قادم بإذن الله تعالى، وضياءها منتشر عما قريب، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.

كانت تونس إلى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي ولاية تابعة للخلافة العثمانية، ولما ضعفت الدولة العثمانية في أوائل ذلك القرن بدأت الأخطار تتهدد تونس من جهتي فرنسا وبريطانيا، وابتدأ التدخل الأجنبي يؤثر في تونس منذ الثلث الأول من ذلك القرن، وظهر ذلك فيما يعرف بالامتيازات التي منحت لفرنسا ثم انجلترا، وفي عدد الأجانب الكبير الذي انتشر في البلد، وصبغ الحياة هناك بالصبغة الغربية، وأحاطت الدسائس بتونس التي كانت قد خطت خطوات إلى الحضارة والعمران على يد خير الدين التونسي الوزير، والشيخ محمود قابادو وآخرين.

لكن ذلك لم يدم إذ سرعان ما سقطت البلاد في قبضة الفرنسيين سنة ١٨٨١ إثر مناوشات قبلية حدودية بين تونس والجزائر اتخذتها فرنسا ذريعة لاحتلال تونس ومن ثم إعلان الحماية عليها سنة ١٨٨٢ في الثاني عشر من مايو، وعلى إثر ذلك عينت فرنسا فرنسياً مستعرباً يدعي لويس ماشويل رئيساً لإدارة المعارف وأطلقت يده في البلد فاستولي على كل ما له علاقة بالتعليم والثقافة، واستولي على التعليم في الجامعة الزيتونية، ووضع قوانين تقدم الفرنسية على العربية في مناهج التدريس، وأوقف النهضة العلمية في الزيتونة التي كانت قد جمعت آنذاك بين العلوم الشرعية والعصرية[١].

وقيدت فرنسا حريات التونسيين في التعبير والنشر، وحولت الإدارة إلى النظم الفرنسية، وجعلت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلد، وأهملت المؤسسات التي خطت خطوات في الطريق إلى الحضارة والعمران كالزيتونة ومدرسة باردو الحربية التي جمعت بين العلوم العسكرية والهندسية والرياضية.

---

(١) ما أشبه صنيعه بصنيع اللورد كرومر في مصر، وما أقربهما زماناً وكيداً وتضليلاً.

وكان غياب خير الدين التونسي عن تونس مؤثراً في الروح المعنوية لأهلها، فقد استقال من الوزارة قبل الاحتلال الفرنسي لتونس وصار صدراً أعظم -رئيساً للوزراء- في الدولة العثمانية وبقي فيها إلى وفاته سنة ١٨٩٠.

وظهر على إثر ذلك في تونس رجال يريدون الإصلاح والارتقاء مستمسكين بحبل الإسلام والعربية، ومقابل هؤلاء ظهرت فئة تريد السير في ركاب فرنسا، وهي فئة مستغربة أنشأت جمعية سمتها "قدماء الصادقية".

وظهرت فئة ثالثة هي فئة المشايخ المعتزلين لذينك الفريقين، وهم بين سلفي وصوفي.

أما الفئة الأولى التي بنت دعائم إصلاحها على أسس إسلامية وعربية وعلى إرادة الخلاص من فرنسا واحتلالها البغيض فقد برز فيها الشيخ سالم بو حاجب، والبشير بن مصطفى صفر تلميذ خير الدين التونسي، وقد كان لهم جمعية سموها "الحاضرة" وأصدروا جريدة أسبوعية لها الاسم نفسه، ومن ثم أسسوا المدرسة الخلدونية سنة ١٨٩٦.

وفي تلك المدة برز الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي ولد سنة ١٢٩٣ /١٨٧٤ في تونس، وهو من أصول جزائرية، واهتم به جده المجاهد عبد الرحمن الثعالبي الذي قاوم الفرنسيين في الجزائر، وقام على تعليمه وتحفيظه القرآن ومبادئ النحو والعقيدة.

ومن المواقف التي أثرت فيه في صغره أنه لما كان في السابعة من عمره رأى أمه تبكي، فسألها عن السبب فقالت:

أما رأيت الفرنجة يمرون من هنا؟ إنهم يحتلون تونس ولن يخرجوا منها إلا بالحرب.

ثم التحق بمدرسة باب سويقة الابتدائية بتونس ثم بجامع الزيتونة، واختلف المؤرخون هل أكمل دراسته أوْ لا، وكان كثير الانتقاد لطرائق التدريس ومناهجه وكتبه، وهذا أدى إلى تبرم بعض المشايخ منه.

ولما تألف في تونس الحزب الوطني الذي كان أول حزب يطالب بتحرير تونس سنة ١٨٩٥ انضم إليه، ثم أسس الحزب الوطني الإسلامي، وكتب في الصحف داعياً إلى الاستقلال فعطل الفرنسيون جريدتين: المنتظر والمبشر، فأسس جريدة

سبيل الرشاد التي استمرت عاماً ثم عطلت، ومن بعدها ضيقت الحكومة على الصحافة.

وهنا رأى أن تونس ضاقت عليه فقرر الخروج منها ، لكن الفرنسيين منعوه فهرب إلى طرابلس التي كانت لا تزال تحت الحكم العثماني، فعمل السفير الفرنسي في طرابلس على إخراجه منها فخرج إلى استانبول عن طريق اليونان وبلغاريا فوصلها سنة ١٨٩٨ وتحدث مع رجال الدولة وناقشهم في القضية التونسية، ومن ثم غادرها إلى مصر واجتمع بكثير من كبارها ، ثم عاد إلى استانبول ومنها عاد إلى تونس فوصلها سنة ١٩٠٢ بعد أن بقي أربع سنوات خارجها ، ومنذ ذلك الوقت أحاطت به محن وبلاءات أوجزها في الآتي:

قبض عليه سنة ١٩٠٦ ووضع في السجن بتهمة محاربته للأولياء، وأُخذ سيراً على الأقدام من السجن إلى المحكمة وكان هناك عدد كبير من أهل البلاد قد اجتمعوا حوله رافعين علماً أبيض وكتبوا فيه: اقتلوا الثعالبي الكافر!!

فسجن شهرين ثم خرج لينادي بالإصلاح الذي لم يرض عنه الفرنسيون ولا بعض المشايخ.

ولما احتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ حاول مساعدة المجاهدين وإرسال المساعدات فنقم عليه الفرنسيون صنيعه.

سنة ١٩١٢ قبض عليه الفرنسيون وأخرجوه خارج البلاد فأضربت البلاد ثلاثة أيام وأصر الشعب على رجوعه فأبى أن يرجع حتى يحقق الفرنسيون الإصلاح المنشود فقال له الفرنسيون: إن الحرب العامة على الأبواب فإذا انتهت الحرب قاموا بذلك، فعاد إلى تونس سنة ١٩١٤.

وظل عاملاً في مجالات الإصلاح إلى أن أعتقل سنة ١٩٢٠ وسجن في تونس.

ثم خرج من البلاد سنة ١٩٢٣ وبقي خارج تونس حتى عام ١٩٣٧، وكان سبب إخراجه هو مطالبته المستمرة بالحريات وعداؤه مع الباي -الحاكم- الجديد محمد الحبيب الذي كان من أصفيائه ثم لما تولى الحكم انقلب عليه وعلى مبادئه التي كان ينادي بها من قبل، فغادر تونس إلى إيطاليا ففرنسا، ثم إلى مصر، فالحجاز.

ثم استقر به المقام في العراق حيث درّس في جامعة آل البيت ببغداد منذ سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٠.

وقد نظم الشاعر العراقي المشهور معروف الرصافي قصيدة قوية في استقباله سنة ١٩٢٥:

أتــونسُ إن في بغــدادَ قومــاً ... تَــرِفُّ قلــوبهم لــك بــالوداد
ويجمعهــم وإيــاك انتســاب ... إلى مَنْ خُص منطقهم بضاد
وديـنٌ أَفْصـحَتْ للنـاس قَـبلاً ... نواصـعُ آيـة سـبلَ الرشـاد
فتحن على الحقيقة أهلُ قُربى ... وإن قضـت السياسـة بالبعـاد
ومـا ضَـرّ البعـادَ إذا تـدانت ... أواصـرُ مـن لسـان واعتقـاد
وإن المسـلمين علـى التـآخي ... وإن أغـرى الأجانب بالتعادي

ثم قال عن الثعالبي:

وكـان طوافـه شـرقاً وغربـاً ... لغير تكسُّب وسوى ارتفادِ[1]
ولكن ساح لاستنهاض قوم ... حَكَوْا بجمودهم صفة الجماد
يغـار علـى العروبـة أن يراهـا ... مهـددة المصـالح بالفسـاد

---

(١) الارتفاد طلب الرِفْد وهو العطاء.

ولقد استفاد منه العراق فانتدبه للإشراف على البعثة الطلابية العراقية إلى مصر، ومثّل العراق في مؤتمر الخلافة بمصر سنة ١٩٢٥ الذي دعا إليه شيخ الأزهر عقب إسقاط الخلافة في اسطنبول، وقد قيل إن ترشيحه ليشرف على الطلاب في مصر هو لإبعاده عن العراق التي كان له فيها مكانة عالية أخافت ذوي الأمر من الإنجليز وأذنابهم.

ثم ترك العراق إلى مصر، ومنها سافر إلى الصين وسنغافورة وبورما والهند، ثم عاد للقاهرة ومنها إلى تونس حيث استقبل استقبالاً حافلاً من الشعب وكاد الشعب يُتَوِّجه عليه لكن قطعت فرنسا عليه الطريق حيث أعلنت حالة الحصار على البلاد، وأنشأت المحاكم العرفية، وهذا أدى إلى أن ينزوي في بيته ويتفرغ للتأليف والمحاضرات –أحياناً– إلى أن توفي سنة ١٩٤٤ قبل أن يمتع ناظريه برؤية الاستخراب الفرنسي مطروداً من أرضه، لكنه كان بلا منازع من أهم العوامل التي أسست لهذا الاستقلال وعملت له بجد واجتهاد.

أهم أعمال الثعالبي رحمه الله تعالى:

أولاً: فضح مخططات الفرنسيين وادعاءاتهم الباطلة:

فقد وقف عقبة كَأْدَاءَ أمام مؤامرة تجنيس فرنسا للتونسيين بعد الحرب العالمية الأولى، وظل يكتب في الصحف المصرية وغيرها مفنداً هذا الأمر ومبيناً خطورته.

ـ وقد استطاع أن يُظهر بوضوح أن تونس قبل الاحتلال الفرنسي كانت تملك مقومات النهضة وقد قطعت خطوات مهمة في ذلك الطريق فجاء الفرنسيون ليهدموا كل ذلك، وليس الأمر على العكس الذي يريده الفرنسيون ويذيعونه، وقد نشر في ذلك مقالات جيدة.

ـ وفضح المخططات التنصيرية الفرنسية، وكشف زيف ادعاءاتهم بأن مسلمي شمال إفريقيا كانوا نصارى ثم دخلوا في الإسلام، وبين أن هذا غير صحيح تاريخياً، وبين أيضاً أن ادعاء الفرنسيين أن أهل شمال إفريقيا من أصل غربي ادعاء عار عن الصحة.

ـ وبين كيف استولى الفرنسيون على خيرات تونس فذكر أن مساحة تونس تبلغ ٩ ملايين هكتار ـ والهكتار ألف

متر مربع– منها مليون هكتار أراض جبلية، ومليون ونصف المليون غابات وأحراش، ومليون غير صالح للزراعة، وهناك خمسة ملايين ونصف المليون أراض صالحة للزراعة استولى الفرنسيون على أكثرها، واستولوا كذلك على مناجم الفوسفات والرصاص و الحديد والفحم الحجري وغير ذلك.

– وأراد الفرنسيون كتابة تاريخ تونس باللهجة العامية، واعتمادها لغة رسمية للتعليم والخطابات الرسمية، وكان الثعالبي وراء إفشال هذا المشروع ومشروع آخر له صلة به وهو إصدار معجم اللغة العامية، وكانت جهوده تلك من خلال كتابته المقالات الكثيرة ضد هذه المشاريع في صحيفة "التونسي".

– وكشف عوار سياسة التعليم الفرنسية، وبين أنها ترمي إلى إيجاد أيد عاملة وليس عقولاً مدبرة، وأوضح أيضاً كيف عملت فرنسا على محاربة اللغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخية، وهذا الذي أزعج فرنسا فأخرجته من تونس وضيقت عليه خارجها، وقد أوضح كل هذا وغيره في كتابه "تونس الشهيدة" الذي نشره بالفرنسية ثم عُرّب بعد

ذلك، وعَدّت فرنسا كل من يقرأ الكتاب عدواً لها، وجعلت من قراءته جُنحة يعاقب عليها القانون الجائر.

ثانياً: الدراسات التي قام بها عن المسلمين في أقطار كثيرة:

كان الثعالبي قد ارتحل طويلاً، وجال في بلاد كثيرة، وهذا ساعده على أن يقف على أحوال المسلمين في بلاد عديدة، وكتب كل ذلك بالتفصيل، وإني لأعجب من مثقفينا وذوي الرأي منا كيف لم يستفيدوا من تلك الكتابات ومن ثَمّ يبنون عليها ويطورونها، فمن جهوده في بيان أحوال المسلمين وأوضاعهم:

ـ التقى عشرات من زعماء المسلمين وكبارهم ومثقفيهم وأعلامهم، واقترح عليهم أموراً من شأنها أن ترتقي بالمسلمين، وقد قابل زعماء منهم الملك عبد العزيز والإمام يحيى، والنحاس باشا في مصر.

ـ وصف أحوال الخليج العربي العلمية والثقافية في مسقط ودبي والبحرين والكويت، وبين أن تجارة اللؤلؤ تجلب الرزق الوفير لأهل الخليج لكنهم لا يستفيدون من ذلك المال

حق الاستفادة في عمل مشاريع في البلاد إنما يودعونه في المصارف الهندية، وقد ذكر الأستاذ عبد العزيز الرشيد في كتابه "تاريخ الكويت" أنباء الاحتفالات به وما أُنشد من القصائد ابتهاجاً بقدومه إلى الكويت.

ـ وتحدث عن اليمن وأحوالها الاقتصادية، وبين أنها بلاد ذات حضارة ومدنية ووصف ما رآه فيها وصفاً جيداً.

ـ وبين أحوال المسلمين في الهند، وكيف انتشر الإسلام هناك بدون دعوة مخطط لها أو حركة قوية من المسلمين، وقد قدم تقريراً عن مسألة المنبوذين في الهند إلى رئيس المؤتمر الإسلامي محمد أمين الحسيني، وكان تقريراً جليلاً مفصلاً غاية التفصيل وبين فيه رغبة المنبوذين في اعتناق الإسلام، وقد بين في تقريره حقيقة تخفى على أكثر المسلمين إلى يومنا هذا ألا وهي أن حركة الاستقلال في الهند كانت بيد زعماء المسلمين وهم الذين ابتدأوها إلى أن خطفها غاندي منهم ثم نسبت إليه !!

وذكر أحوال المسلمين -على هذا المنوال- في مناطق كثيرة، واقترح اقتراحات عديدة اقتصادية وسياسية وثقافية

لكن أين من يأخذ بكلامه واقتراحاته ؟! إن إهدار أعمال الدعاة المثقفين، وأولي العلم العاملين لهو تضييع لجهود كثيرة وأعمال عظيمة، وإضاعة لتجارب كان يمكن الاستفادة منها ، لكن بمن نستعين وبمن نستغيث؟! اللّه المستعان.

ثالثاً : جهوده السياسية في العالم الإسلامي:

لم يكتف الثعالبي بجهوده السياسية في تونس، إنما امتد عطاؤه إلى البلاد العربية والإسلامية، فقد شارك في مؤتمر الخلافة الإسلامي في القاهرة استجابة لدعوة شيخ الأزهر المسلمين للنظر في قضية الخلافة ، وقد كان الثعالبي في العراق آنذاك مدرساً فاختاره العراق ممثلاً له ، وكان ذلك سنة ١٩٢٥.

وكان عضواً مؤسساً في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس سنة ١٩٣١ في المسجد الأقصى، وقد اختير مفتى فلسطين محمد أمين الحسيني رئيساً لهذا المؤتمر، واختير الثعالبي رئيساً للجنة الدعاية والنشر وعضواً في المكتب الدائم للمؤتمر.

رابعاً: جهوده السياسية في تونس:

كان الثعالبي قد جمع بين الوعي الديني والوعي السياسي، مازجاً ذلك بثقافة إسلامية جيدة، فكان لذلك شوكة في حلق الفرنسيين وأتباعهم من التونسيين، وتجلت جهوده السياسية في مظاهر عديدة منها:

– شارك الثعالبي في حزب "تونس الفتاة" الذي كان ينادي بالارتباط بالخلافة الإسلامية والسلطان عبد الحميد، وانتقاد نظام الحماية الفرنسي، والدفاع عن الحضارة الإسلامية.

– سافر بعد الحرب العالمية الأولى إلى باريس ليكون فيها أثناء انعقاد مؤتمر الصلح –مؤتمر فرساي– وقد سمع أن الرئيس الأمريكي ويلسون سيحضره، وهذا الرئيس كان قد أعلن مبادئه الأربعة عشر لعقد الصلح ومنها حق الشعوب في تقرير مصيرها، فسافر ليعرض القضية التونسية، وحاول في باريس أن يجمع بين قلوب المسلمين هناك على تعدد أجناسهم، واتصل بزعماء الحركات التحررية في العالم الذين كانوا في باريس أثناء مؤتمر الصلح.

وأصدر هناك كتاب "تونس الشهيدة" الذي أشرت إليه آنفاً.

وقدّم إلى المقيم العام الفرنسي في تونس الذي كان في باريس آنذاك مذكرة طالب فيها بإلحاح برفع إجراءات الحظر على الصحافة التونسية فألغت فرنسا على أثرها قرار تعطيل الصحف.

واتصل بالرئيس الأمريكي ويلسون وبالحزب الاشتراكي الفرنسي.

وعارض في باريس حصول تونس على قرض مالي.

وكل ذلك أدى بالفرنسيين إلى سجنه في باريس ومرسيليا، وأعيد إلى تونس ليسجن هناك أيضاً.

ـ إنشاء الحزب الدستوري وتولي رئاسته وذلك سنة ١٩٢٠، ولما ضُيق عليه في تونس خرج منها سنة ١٩٢٣، ثم جرت أحداث عديدة انشق الحزب الدستوري على إثرها شقين، وأسس حسن قلاتي الحزب الإصلاحي الذي تقرب إلى فرنسا، وكان المتنازعون قد أرسلوا إليه قرابة ١٥٠ رسالة فكان على ذكر تام بما جرى هناك.

ولما عاد الثعالبي إلى تونس حاول استرداد الزعامة في الحزب الدستوري وفي الحياة السياسية التونسية لكنه أخفق، ولعل السبب في ذلك طول غيابه عن بلده، على أن الناس قد استقبلوه في بلده إثر عودته استقبالاً جليلاً وكان هناك ثلاثون ألفاً ينتظرونه في ميناء العاصمة لكن ذلك لم يكن كافياً لاستعادة زعامة الحياة السياسية في ظل مؤامرات فرنسية وارتباطات مشبوهة لأذيال تونسية، وقد تعرض لمحاولتي اغتيال في تونس بعد عودته أثناء طوافه بالبلاد التونسية لجمع الشمل واجتماع الكلمة.

مؤلفاته:

للثعالبي كتب قليلة ومقالات كثيرة، وكتابته بليغة مؤثرة كخطابته، وقد ألف بالفرنسية كتاب "روح القرآن الحرة" وألّف "تونس الشهيدة".

وألف بالعربية "معجز محمد رسول اللّه" e .

وله مئات المقالات بالعربية والفرنسية لا أدري ما حالها اليوم وهل جمعت أو لا؟

وله محاضرات مطبوعة في مجلة جامعة آل البيت في بغداد من سنة ١٩٢٦–١٩٢٨.

أقوال تمدح الثعالبي:

محمود زكي باشا:

"كنت من أشد الناس إعجاباً بذكائه الباهر وفصاحة لسانه، وسعة اطلاعه، وغزارة علمه، وفرط حميته الإسلامية ... وكان لا ينفك عن التكلم باللغة العربية الفصحى".

محمد لطفي جمعة:

"هو من أشرف البيوت وأعظمها، وله الكلمة العليا والصوت المسموع والأثر المحمود من أقصى تونس إلى أقصاها، بل شمال أفريقيا كله".

حامد المليجي محرر جريدة البلاغ:

"وفي مؤتمر القدس كان الثعالبي خطيباً متحمساً فاستعرض التاريخ منذ ظهور الإسلام وتلألؤ قوته إلى الحالة التي وصل إليها أهله اليوم، ثم ناشد المجتمعين أن يعملوا لاسترجاع المكانة التي كانت لأمتهم فقال: انسوا الماضي ولا تبكوا واعملوا وأصلحوا".

الشاعر العراقي معروف الرصافي:

"أعظم خطيب عربي عرفه هذا القرن" وحسبك بهذا شاهداً على بلاغته وعظم تأثيره.

محمود أبو الفتح في جريدة السياسة المصرية ١٩٢٦/٥/١٦:

"إن مكانته في تونس هي مكانة سعد زغلول في مصر[١]، وإنني لا أنسى الثعالبي في باريس عام ١٩١٩ في عاصمة فرنسا يثير الأرض والسماء على فرنسا في تحرير تونس، يثير أحرار الفرنسيين على سياسة الاستعباد".

وقال الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور وهو أحد من يُعْتّد برأيه وتزكيته:

"عبد العزيز الثعالبي واحد من ذلك الرعيل من المجاهدين المسلمين في الوطن العربي إبان الحملة الاستعمارية التي اجتاحت المشرق الإسلامي، وقد تميز هذا الرعيل بطابع خاص فهم لم يكونوا زعماء سياسيين أو مجاهدين وطنيين أو صحافيين أو كتّاباً أو مصلحين اجتماعيين، وكلهم كانوا

---

(١) وعلى سعد زغلول مؤاخذات عديدة لعلي أن أبينها في مكان آخر.

كل ذلك مجتمعاً في شخصياتهم القوية الصلبة التي واجهت الاحتلال الأجنبي مضحية بكل ما تملك".

وقال الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو:

"إني لأزعم بأن أحداً من التونسيين المناضلين حديثاً والجوابين بعلمهم قديماً لا يضاهيه فيما حققه من إشعاع وتركه من صدى في معظم أنحاء آسيا والعالم الإسلامي".

والعجيب أن هذه الشخصية العظيمة، -فيما علمنا وفيما جاء مِن تزكيات الذين عاصروها- تُنسى على هذا الوجه المفجع اليوم، فلا تتداول آراءها، ويُهمل كلامها في المجالات المتعددة التي خاضتها، وصارت كأمس الذاهب، وذهبت أدراج الرياح، وهذا يدل على تقصير مثقفي المسلمين وعلمائهم ودعاتهم في العناية بأعلامهم المعاصرين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ـ والعجيب -أيضاً- أن تونس كرمته سنة ١٩٨٩ أي بعد وفاته بخمس وأربعين سنة بدعوى أنه جاهد لاستقلال تونس، وحكام تونس اليوم يئدون جهود الثعالبي ويذهبون بها أدراج الرياح.

خامساً: نظريات ومطالب مهمة دعا إليها:

قد كان للثعالبي جملة من النظريات والمطالب دعا إلى تحقيقها، فمن ذلك:

– الإيمان العميق بالحرية، والدعوة إليها بقوة.

– المناداة بالوحدة العربية حتى أنه اتهم من قبل بعض الباحثين بالقومية المحضة، وهذا بعيد عن قامة مثل الثعالبي لكن الحق أنه كان ينادي بها لتكون مِن ثَمّ نواة للاجتماع الإسلامي، وما جهوده ورحلاته في العالم الإسلامي إلا برهان لما ذكرته، والله أعلم.

– عدم الاعتراف بالحدود المصطنعة التي جعلها الاستخراب العالمي خنجراً في خصر الأمة حتى لا تتعاون التعاون الحقيقي المفضي إلى استعادة عزتها وسيادتها.

– الدعوة إلى العمل المؤسسي والجماعي، وهذا في زمانه رأي تقدم به على كثير من غيره من المصلحين.

– الدعوة إلى العلم التخصصي المثمر فالاقتصادي يتعمق في علمه، والعالم الطبيعي يضبط علمه ويستنفد جهده في هذا العلم حتى لا تتشتت الطاقات والجهود.

ـ تربية الأجيال على الإسلام والثقافة العربية والإسلامية، وكان يرى أن هذا هو السبيل لطرد الغزاة واستعادة السيادة.

ـ الدعوة إلى التجديد ومقاومة الجمود والتخلف في الجامعات والمؤسسات العلمية الأخرى ، وبناء العقل بناء حراً من التقاليد والعادات الجامدة.

وبعد:

فهذا هو الثعالبي وتلك حياته موجزة لكنها معبرة عن تصميم وحماسة وجهد وبذل وتضحية، فما أحرى الشباب أن يقفوا عليها ويقتدوا بها ويستفيدوا منها، فرحمه اللّه رحمة واسعة ونفعنا بصنيعه وجهاده.

٢- العالم المجاهد

محمد أمين الشنقيطي

١٢٩٣-١٣٥١

١٨٧٦-١٩٣٢

لقد كان لعلماء شنقيط صولات وجولات في العلم لكن ربما لأن قطرهم بعيد جداً فقد سقطوا من ذاكرة الأمة، هذا وفيهم جهابذة كبار، وحالهم هذا يشبه حال أهل اليمن، وقد ذكر الشوكاني أن علماء اليمن -على عظمتهم- قَلّ من يعرفهم في مصر والشام والعراق، وهذا لبعد بلادهم وعزلتهم فيها، فإن كان هذا حال اليمن فكيف يكون حال شنقيط إذن؟

ولد الشيخ محمد في موريتانيا، ونشأ في طلب العلم وحفظ القرآن العظيم والمنظومات العلمية كما ينشأ طلاب العلم في بلده لكنه توسع في دراسة الأدب والشعر الذي كان سائداً في المنطقة آنذاك، ولما بلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً أي في سنة ١٣١٨ ذهب إلى المغرب لطلب العلم ودار في مدنها: الصويرة ومراكش والدار البيضاء والرباط، ومنها كان ينوي الذهاب إلى فاس حاضرة العلم والعلماء في المغرب الأقصى لكنه أصيب بالجدري ثم شفاه الله منه في العام نفسه فتوجه إلى القاهرة، ووفد على بلديّه الشيخ المشهور العلامة محمد محمود التركزي الشنقيطي المعروف بابن التلاميد،

فعني به وأخذه إلى مفتي الديار المصرية آنذاك الشيخ محمد عبده فعُني به أيضاً وكتب له كتاباً إلى محافظ السويس ليركبه إلى جدة، فأدى العمرة في أواخر المحرم سنة ١٣١٩، ثم توجه إلى المدينة ليصاب بحمى ثقيلة لمدة سنتين لكنها لم تمنعه من التردد على العلماء ودروسهم، وبقي في الحجاز بين مكة والمدينة إلى سنة ١٣٢٦/١٩٠٨، وذلك لأنه قد بلغه استيلاء الفرنسيين على بلاده فلم يشأ أن يبقى تحت العبودية، ثم سافر إلى الهند، ثم إلى عُمان فالبحرين، ثم الإحساء وقرأ هناك على شيخها عيسى بن عكاس، وفي صفر سنة ١٣٢٧/١٩٠٩ جاءته رسالة من أحد مشايخه يطلب منه أن يتوجه إلى الزبير في العراق ليدرس في مدرسة بناها مزعل باشا السعدون فلم يجد بداً من الذهاب فلما وصل الزبير وجد أن مزعل باشا قد مات، وقد عين أوصياؤه رجلاً مغربياً مدرساً في المدرسة فهم بالرجوع فطلب إليه بعض الطلبة أن يعقد لهم دروساً ففعل فأعجب به كل من سمعه حتى أنهم رجوه أن يبقى بينهم فاستجاب لهم وبقي بينهم ورأوا أن يقيدوه فزوجوه فتاة يتيمة فكانت أمَّ أولاده السبعة، وقام في البصرة يعظ بأسلوب

قوي وجريء يحارب فيه الأوهام والبدع والخرافات، وينعى على العلماء جمودهم وتقصيرهم، وعلى الدولة العثمانية تعطيلها للحدود الروادع وإقرارها للفواحش -وهذا والله أعلم لأنه كان يدير الدولة العثمانية آنذاك جمعية الاتحاد والترقي الماسونية- وكل هذا أثار عليه بعض المشايخ الذين حسدوه ورفعوا إلى مدير الناحية أمره وأنه يجب إبعاده لأنه يحرض العوام على الدولة العثمانية ويقلل من شأنها وهيبتها في النفوس لكن كان المدير عاقلاً عالماً بسبب الحملة هذه على الشيخ فذهب إلى الشيخ محمد بن عوجان إمام مسجد الباطن وكان تقياً ورعاً فسأله عن الشيخ الشنقيطي فأثنى عليه وبين أنه لا يقصد في وعظه إلا الخير، وأنه قد حصل به خير كثير لأهالي الزبير فاقتنع مدير الناحية وكف عنه.

وبقي الشنقيطي يدعو إلى الله تعالى ويجتهد في نشر الخير إلى سنة ١٩١٣/١٣٣١ حيث دُعي إلى الكويت ليشارك في الجمعية الخيرية التي أنشأها مجموعة من أهل الكويت وكان الغرض منها إعداد طلاب العلم في البلاد العربية المتفوقة علمياً آنذاك مثل القاهرة ودمشق وبيروت، والإنفاق عليهم حتى

يعودوا، ولها أغراض خيرية متنوعة، وقد أسهمت هذه الجمعية في تحريك المجتمع الكويتي آنذاك ودفعه إلى نهضة فكرية وعلمية وأدبية فقد دعت إلى الكويت مشايخ كثيرين كرشيد رضا وحافظ وهبة ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبدالعزيز الثعالبي التونسي وغيرهم، وظل الشيخ الشنقيطي في الكويت يعظ ويدرس إلى أن أصبحت الحرب العالمية الأولى على الأبواب، وكان الحاكم في الكويت آنذاك الشيخ مبارك الذي كان قد عقد اتفاقية مع الإنكليز سنة ١٨٩٩ فخشي من الجمعية فأغلقها، وكاد الشيخ الشنقيطي أن يعتقل إثر أحداث جرت هناك حيث تخوف مبارك منه ومن مناصرته الدولة العثمانية فهرب إلى الزبير تاركاً زوجه وأولاده ست سنوات!! ولما وصل البصرة راح يدعو للجهاد في سبيل الله ضد الإنجليز الكفرة، ولم يكتف بهذا بل شارك في القتال بنفسه في معركة الشعيبة، وهي قرية تبعد عن البصرة عشرة أميال وعن الزبير ميلين، وقصة هذه المعركة كالتالي:

وردت برقية من البصرة لمختلف المدن العراقية جاء فيها: ثغر البصرة الكفار محيطون به، الجميع تحت السلاح، نخشى

على باقي بلاد الإسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع" وتليت البرقية على الناس، وصار الوعاظ والخطباء يلهبون الحماس ويثيرون المشاعر الدينية وأن الإنكليز إذا احتلوا العراق فإنهم سيهدمون المساجد، ويحرقون القرآن، وينتهكون حرمات النساء، وساد العراق كله حركة جهادية جليلة خاصة عندما أفتى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية آنذاك خيري أفندي أن الجهاد قد أصبح فرض عين على جميع المسلمين، والتحم المسلمون بالإنجليز في الشعيبة ثلاثة أيام أظهر فيها المسلمون شجاعة هائلة وحماساً عظيماً، وكان الهنود المسلمون جنوداً في الجيش البريطاني!! فأثرت فيهم دعوات الجهاد فكان الإنجليز ينخزونهم بالسيوف والحراب ليخرجوهم لقتال المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار الإنجليز المتفوقين عسكرياً، ومن ثم انتقل الشنقيطي إلى بغداد لمدة أربعة أشهر ومنها إلى حائل التي مكث فيها قليلاً يدرس ثم توجه إلى عنيزة واجتمع بالملك عبدالعزيز هناك، واستضافه آل البسام مدة كتب فيها مذكراته.

ثم إن الشيخ أحمد الجابر الكويتي أراد الحج فعرّج على عنيزة واقترح على الشيخ الشنقيطي أن يرافقه إلى الحج، فوافق الشيخ وأكرم الشريف حسين مثواهما في مكة، ثم عاد إلى عنيزة وبقي فيها سنتين يدرس ويعظ، ثم لما مات مبارك الكبير عاد إلى الكويت ليرى أسرته التي تركها ست سنوات!! والتقى بأمير الكويت الشيخ سالم الذي أساء استقبالهم إلى حد غريب فطرده من البلد وأمهله ثلاثة أيام للخروج منها، وربما كان ذلك بسبب ما جرى بين مبارك الكبير والشنقيطي، والله أعلم.

وتوجه الشيخ إلى الزبير ثم لحقت به أسرته بعد ذلك، وأخذ في وعظ الناس وإرشادهم، ودعاهم إلى إنشاء المدارس فاستجاب له نفر من الزبيريين وأنشأوا جمعية النجاة سنة ١٣٣٩/١٩٢٠، ومدرسة النجاة سنة ١٣٤٢/١٩٢٣، وقد تفوقت هذه المدرسة على مثيلاتها، وصار لها أثر جليل، وبلغ عدد طلابها سنة ١٣٦٦/١٩٤٧ أربعة آلاف طالب منذ تأسيسها.

ولما تأسست المدرسة سأله أحد وجهاء العراق عن رأيه في افتتاح مدرسة للبنات فبين الشيخ أهمية هذا الأمر، لكن

الحسدة لم يرضوا إلا أن يؤذوه بهذه الفتوى فهيجوا عليه العامة بدعوى أنه يريد شيوع الاختلاط بين الرجال والنساء، وفاجأه أحد العوام بعد العشاء فضربه بعصا ضرباً مبرحاً، لكن أنقذه بعض الحاضرين، وأخذ الرجل للسجن، وانتشر الخبر في العراق والكويت والخليج، ووردت البرقيات المنددة بهذا الصنيع الآثم، ولما خرج الرجل المعتدي من السجن جفاه الناس وعضه الجوع بنابه حتى جاء باكياً إلى الشيخ تائباً معتذراً فواساه الشيخ بطعام من حانوت يتعامل معه، وكان الشيخ بهذا مطبقاً لقوله تعالى "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس".

ولما صار الشيخ أحمد الجابر أميراً للكويت -وكان صديقاً للشنقيطي- جاءته دعوة من النادي الأدبي في الكويت سنة ١٩٢٤/١٣٤٣ فلباها مسروراً واستقبل استقبالاً حافلاً وأقيمت له حفلة تكريمية رائعة، أنسته ما لاقاه زمان مبارك وسالم من قبل، وعاش أياماً سعيدة في الكويت.

ثم إنه عاد إلى الزبير ليشرف على المدرسة التي أسسها هو وثلة من وجهاء الزبير، وكان يعمل كل ما في وسعه من أجل إنجاح مقاصد المدرسة ورعاية طلابها وجلب التبرعات لها

من المحسنين في العراق والكويت، وسار على هذه السيرة حتى صار خريجو المدرسة منتشرين في الزبير والبصرة والكويت وبغداد وغيرها وصار منهم الأطباء والمحامون والعسكريون والمربون، والشعراء، والوعاظ، والمعلمون، وثبت الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى على عطائه وبذله حتى لقي الله تعالى سنة ١٣٥١/١٩٣٢ ودفن في مقبرة الحسن البصري رحمه الله تعالى.

تلك كانت حياة هذا الشيخ الذي جمع بين أعمال كثيرة جليلة: تعليم العلم الشرعي، الدعوة إلى الله تعالى، الجهاد في سبيل الله تعالى، التوعية في زمن الجهل، الوقوف في وجه الظلمة، مقارعة الاستخراب البريطاني، وغير ذلك من أعمال جليلة تحمل في سبيلها الغربة عن وطنه، والبعد عن أهله، وشظف العيش وشدته، وتجهم الأقارب والأباعد، والازدراء والاستخفاف، وكل ذلك في زمن الخوف والاضطراب أيام الحرب العالمية الأولى وانتشار الفوضى في كل مكان، فرضي بما هنالك، وثبت ثباتاً عجيباً حتى أتاه اليقين، وهذا هو المرجو من ورثة سيد المرسلين وإمام المتقين، وذلك هو الطريق الذي لا

مناص منه ولا محيد عنه، فرحمه الله رحمة واسعة، ورفع درجته في عليين.

٣- القائد البطل

ساموري توري

١٢٤٦ - ١٣١٩

١٨٣٠ - ١٩٠٠

طمع الغربيون بإفريقيا، وأقبلوا عليها من كل حدب وصوب لاقتسامها في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، فاحتلت فرنسا الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا، واحتلت انجلترا مصر، ولم يكتفوا بهذا بل زحفوا على قلب القارة السوداء فاقتسموها بينهم، فكانت منطقة نهر النيجر الكبرى من نصيب الفرنسيين لكنهم لم يستولوا عليها إلا بعد مقاومة عنيفة شديدة من هذا الإمام الكبير والمجاهد العظيم ساموري توري.

وتوري هي عشيرة تسكن مدينة جنى في قلب امبراطورية مالي الإسلامية، فلما قامت مملكة صنغي مكان امبراطورية مالي ترك التوري جنى إلى أعالي النيجر.

ولد في بلدة سانانكورو sanankoro بالقرب من بيساندوجو بغينيا الفرنسية وتقع في أعالي حوض نهر ميلو أحد روافد نهر النيجر، ولا يعرف بالضبط تاريخ ولادته إلا أنه بين عامي ١٢٤٦-١٢٥١، ١٨٣٠-١٨٣٥م، وتلقى تعليمه الأولي على يد والده، ثم تعهده أحد المشايخ بالرعاية والتعليم،

وقيل: بل ولد من أبوين كافرين ثم اعتنق هو الإسلام بعد ذلك، والله أعلم، وهناك حادثة طريفة في تعلمه القتال وهي أن أمه وقعت في أسر أحد الزعماء الأفارقة وهو الملك سوري بيراما ملك بيساندوجو فكان عليه -إذا أراد أن يفتديها- أن يخدم في جيش هذا الزعيم مدة من الزمن، وهذا الذي صنعه، وبعد انقضاء خدمته لمدة سبع سنوات اكتسب خبرة في فنون الحرب والقتال والتفاوض مع الأعداء.

وابتداء من سنة ١٨٦٢ استطاع أن يجمع الشباب حوله ليكون قائدهم، وكون نواة دولة وسعها من بلاد الوثنيين حتى وصل إلى حافة فوتاجولون غرباً، وبوري شمالاً، وتعاطف التجار معه فساعدوه في إنشاء دولته الناشئة، وتنازل له أعمامه فرضوا أن يكون تحت إمرته، ونجح في ضم مدينة كان كان وطوّع جماعات اليسيسي تحت سيطرته، وحطم الوثنيين في الشمال في كونيا العليا، وفي سنة ١٨٤٤ في ٢٥ يوليو/ رمضان جمع أهله في احتفال وأعلن لهم أنه سيلقب نفسه بلقب الإمام، وطلب من أهله ورعاياه أن يعتنقوا الإسلام، وفي نوفمبر من العام نفسه

منع الخمر شرباً وبيعاً في مملكته، ومنع العادات الوثنية، وبدأ في تطبيق الشريعة.

كان عامة جيشه من المشاة وقليل منهم من الفرسان، وسلحهم بأسلحة أوروبية حديثة كان يشتريها من البريطانيين في فريتون مقابل بيع الذهب والعاج وأسرى الحروب، وكان حرسه الشخصي مكوناً من ٥٠٠ رجل، وكان لأخيه مالنكي توري قوة خاصة تقدر بمائتي فارس وألف راجل.

كان الفرنسيون قد عزموا على الاستيلاء على كل المنطقة التي يجري فيها نهر النيجر، فأتاهم الله بهذا البطل الذي كبدهم من الخسائر في الأموال والرجال ما لم يتوقعوه، حتى أن بيروز peroz وهو من كبار عساكر الفرنسيين لقبه بنابليون السودان، وهذا البطل العظيم هو في الحقيقة فوق هذا اللقب بكثير، فقد دوخ الفرنسيين بجهاد جليل دام ثلاثة عشر عاماً!! هذا وأسلحته تعد بدائية أمام آلة الحرب الفرنسية الجبارة لكنه الإيمان إذا وقر في القلوب فلا يقوم أمامه شيء، لكن ابتلي بعدو مسلم كدر عليه جهاده، واتفق مع عدوه ضده، وهذه بلية تكررت في بلاد المسلمين كثيراً، خاصة في

الأندلس وفي بعض بلاد المغرب العربي الكبير، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وعدوه هذا اسمه تيبا Tieba حاكم كندوجو kenedougou وكان هذا عدوه الأول لكنه ليس الوحيد فقد ابتلي بغيره لكن كان ذلك هو العدو اللدود الذي ساعد الفرنسين كثيراً في ضرب ساموري بحيث كان الفرنسيون يهجمون عليه من جهة فيهجم عليه تيبا من جهة أخرى ليصير ساموري بين المطرقة والسندان، وما درى هؤلاء الحكام المساكين أن استعانتهم بالكفار على هذا الوجه والتنسيق معهم لضرب المسلمين هو تمزيق لعقيدة الولاء والبراء، وإذهاب لقوة المسلمين أدراج الرياح، وسرور الأعداء وشماتتهم لكن قاتل الله الحرص على الكراسي فكم جلب من المآسي، واستعصى انتزاعه على الآسي.

وتفصيل إنشائه الدولة ومقاومته الجليلة -رحمه الله تعالى- للفرنسيين أنه اتخذ من بلدة بيساندوجو Bissandougou عاصمة لملكه، وأقامها على الجهاد في سبيل الله تعالى وأحكام الشريعة الإسلامية، وهذا ما أكسبه حيوية وطاقة متجددة لا تنضب، واضطر أن يهادن جيرانه من الإنجليز حتى

لا يفتح عليه باباً ثالثاً هو في غنى عنه فيكفيه عدوه الفرنسي وعدوه تيبا ، وأنشأ جيشاً قوياً نسبياً قسمه ثلاثة أقسام: أفضها وأعظمها قوة جعلها قائمة في وجه الفرنسيين ليمنعهم من التدخل في البلاد ، والقسم الثاني جعله لحفظ الأمن في بلادهن والقسم الثالث جعله للتوسعات والفتوحات الجدية للقضاء على الوثنية ونشر الإسلام، وبلغ من حرصه على جيشه أنه استطاع أن يصنع بعض الأسلحة وقطع الغيار محلياً، وتلك مرحلة متقدمة في زمنه رحمه الله تعالى، وباقي الأسلحة يشتريها من مدينة فريتون بسيراليون.

وقد فرض على زعيم كل قرية أن يأتيه بشبان صالحين للجندية، وفي أوقات السلم كانت القوات الاحتياطية تسرح ستة أشهر لتعمل في فلاحة الأرض وإجراء المنافع، لتعود بعد ذلك فإن كان في حاجة لها أبقاها وإلا سرّحها مدة أخرى وهكذا ، وهذا ضبط جيد فيه صيانة للدين والدنيا معاً، وكان سكان مملكته مليوناً وربع المليون.

وقسم بلاده تقسيماً إدارياً منضبطاً إلى اثنين وستين ومائة إقليم، في كل إقليم عشرون قرية على كل منها زعيم، وفوق

الزعيم حاكم الإقليم، وفوق حاكم الأقاليم الإمام الذي من مهامه نشر الإسلام والقضاء على الوثنية، وتقوية الدولة والمحافظة عليها.

وقد أكثر رحمه الله من بناء المدارس والمساجد، ونشر الوعاظ، واهتم بتحفيظ القرآن الكريم.

حروبه مع فرنسا:

توسعت فرنسا في غرب إفريقيا لتسترد هيبتها التي فقدت عقب هزيمتها في ١٨٧٠ أمام روسيا، وأيضاً استفادت من مقررات مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢/١٨٨٤ الذي سمح بتنظيم الاحتلال الأوروبي للقارة السوداء، فوضعت فرنسا نصب عينها مملكة الإمام ساموري توري، ووجدت الفرصة سانحة عندما ارتمى في أحضانها عدوه تيبا المسلم حاكم كندوجو!! فكانت فرنسا تنسق مع تيبا ليحرك قواته إذا حركت هي قواتها حتى تضعف من مقاومة ساموري، وما زالت فرنسا تحاربه حتى اضطر لهدنة تنجلي بموجبها قواته من الضفة اليسرى لنهر النيجر تماماً ويعترف باستيلاء فرنسا عليها وعلى مناجم الذهب في بوريه وإرغامه على التعامل مع المراكز

التجارية الفرنسية، ومقابلها تعترف له فرنسا بملكيته للضفة اليمنى من النهر.

بعد المعاهدة توجه الإمام إلى عدوه تيبا ليقضي عليه وحاصره ستة أشهر في عاصمته سيكاسو لكنه أخفق في فتحها، ولجأ الفرنسيون إلى الحيلة ليخففوا عن حليفهم تيبا الحصار ففك الإمام حصاره عن العاصمة وعاد إلى بلاده لكن بعد أن تحمل خسائر كبيرة فقد قتل سبعة آلاف من جنده واثنين من أشهر قواده، وثار بعض شعبه عليه في أعقاب هذه الحملة، وعارضوا مطالبه بزيادة الجند.

تولى قيادة الجيش الفرنسي في المنطقة قائد شديد العداوة للإسلام والمسلمين اسمه أرشينار، وفرض على ساموري معاهدة أخرى سنة ١٨٨٩/١٣٠٧ تنازل فيها الإمام عن بعض الأراضي وتعهد بعدم الإغارة على البلاد التي احتلتها فرنسا، وقبلها الإمام لأنه كان في حالة ضعف ولم يشأ أن يصطدم مع الفرنسيين آنذاك.

وأراد القائد الفرنسي أن يستغل تيبا في صراعه مع الإمام مرة أخرى، خاصة أن تيبا أرسل له رسالة يقول له فيها: "إني

على ثقة من حسن استقبال أهل البلاد لكم فهم لن يخافوكم، ولن يخشوا إغاراتكم، وسوف يتغير رأيهم فيكم، وتتلاشى كراهيتهم عندما يتفهمونكم ويدركون أغراضكم"!! وهذه خيانة من تيبا لشعبه المسلم وخيانة لحاكم مسلم آخر ولشعب مسلم عريض لكن حب الرئاسة يعمي ويصم.

وحاول القائد أرشينار أن يستميل الإمام وأن يغريه بمعسول القول في رسائل عديدة أرسلها له واقتراحات اقترحها عليه لكن كان الإمام يقظاً فواجهها بالاحتقار الذي تستحقه.

وقد استطاع القائد أرشينار أن يحتل مدينتين من مدن الإمام: كانكان، وبيساندوجو، لكن عندما دخلها وجدهما أكواماً من الرماد فقد أحرقهما الإمام حتى لا يستفيد منهما بشيء.

وكانت مملكة ساموري تدعوها فرنسا بالامبراطورية المتنقلة لأن ساموري كان كلما فقد جزءاً من مملكته عوضه بأجزاء أخرى من الممالك الوثنية المجاورة فكأنه لم يفقد شيئاً وإنما غير حدود مملكته بهذا.

غيرت الحكومة الفرنسية القائد أرشينار وأتت بقائد آخر اسمه بونييه Bonnerr بغية تحقيق نصر سريع بعد أن طالت مدة مقاومة ساموري، وجرد القائد الجديد حملة بقيادة مونتي Monteil لكنها منيت بهزيمة ساحقة من قوات الإمام ساموري وأسر من الجند الفرنسيين عدد كبير، ثم أرسلت فرنسا حملة أخرى فهزمت ولله الحمد كما هزمت سابقتها، فجنحت فرنسا للسلم، وأرسلت حاكم السنغال الفرنسي ليعقد معاهدة مع الإمام الذي قبلها لحاجته إلى الراحة والإعداد وللتفرغ لنشر الإسلام بين الوثنيين، لكن الفرنسيين لجأوا إلى الحيلة والخداع في هذه المعاهدة وتمكنوا على إثرها من تعقب الإمام في معركة كبيرة في يوليو سنة ١٨٩٨ كسبها ساموري ضد القائد الفرنسي لارتيج Lartigue لكنه أخطأ فتحرك غرباً فدخل الغابات الاستوائية وجبال الدان في فصل الأمطار فأصابت جنده المجاعة وتشتتوا فلم يجتمعوا بعد هذا، وأراد ساموري أن يعود إلى سانكورو لكن الفرنسيين رفضوا إلا أن يأتيهم بأبنائه رهينة ويسلم أسلحته فعظم عليه ذلك فواصل القتال حتى قبض عليه غدراً ونفي إلى جزيرة أوجويه Ougoue

في سنة ١٨٩٨/١٣١٧ وقيل نفي إلى الجابون، وتوفي في سنة ١٩٠٠/١٣١٩ رحمه الله تعالى، واستقرت فرنسا في غرب إفريقيا عقب هذا الانتصار المفاجئ.

وقد ترك حفيدة أحمدوا سيكوتوري ليتولى المقاومة من بعده وليصبح أول رئيس لغينيا التي حصلت على استقلالها سنة ١٩٥٨.

أما عدوه تيبا فقد استولى الفرنسيون على بلاده، وهذه عاقبة كل خائن عميل.

وقد انتصرت فرنسا لثلاثة أسباب رئيسة:

١. العداء بين القادة المسلمين والخيانة والعمالة من بعضهم.
٢. مساعدة الوثنيين لهم.
٣. القوة الحربية كانت لصالحهم في السلاح والعتاد.

لكن يكفي ساموري شرفاً وفخراً أن أقام دولة نشرت الإسلام وحاربت الوثنية كل تلك المدة، ويكفيه أنه وقف أمام دولة عظمى آنذاك ثلاثة عشر عاماً أذاقها الهزيمة مرات عديدة، ووحد شعب المانديجو بعد أن كان قبائل متناثرة

وعشائر متناحرة فرحمه اللّه ورضي عنه، وأعلى درجته في عليين.

موقف جليل في حياة ساموري توري:

هناك موقف عظيم في حياة الإمام ساموري توري رأيت أن آتي به مذيلاً سيرته حتى يبرز ولا يُنسى، وهو أن الفرنسيين اختطفوا ولده وساوموه على رده بمساومات لم يرضها فلم يقبل فأخذوه إلى فرنسا ست سنوات، واستطاعوا التأثير عليه وتغيير أفكاره ليصبح منهجه مخالفاً لمنهج أبيه تماماً وأرسلوه إلى أبيه ليقنعه بترك الجهاد، وهنا تجرد ساموري توري للّه تعالى، وعظمت عنده عقيدة الولاء والبراء، وقتل ولده في مشهد عام بين الناس حتى لا يؤثر على حركة الجهاد، وهذا الصنيع العظيم يصدق فيه قول اللّه تعلا: "لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادون من حاد اللّه ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه" فلله در هذا الإمام العظيم.

٤- أمير البيان
شكيب أرسلان

١٢٨٦-١٣٦٦

١٨٦٩-١٩٤٦

جاحظ عصره، وإمام من أئمة الكتاب، وشاعر مجيد، وناثر فذ سخر قلمه طويلاً لنصرة قضايا العرب والمسلمين، وهو من العلماء بالأدب والسياسة والتاريخ، يقول عنه الأستاذ علي الطنطاوي:

إن شكيب أعظم شخصية عربية، وكان لسان الإسلام، وأحسب أن مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب في ضعف حجم الأغاني".

ولد في الشويفات بلبنان سنة ١٨٦٩/١٢٨٦، من أسرة تنوخية الأصل، والتنوخيون هم الذين كانوا ملوك الحيرة، وتقلب في الوظائف والمناصب، فكان قائم مقام في الشوف ثلاث سنوات، وانتخب نائباً عن حوران في مجلس "المبعوثان" العثماني وهو بمثابة البرلمان لكل الشعوب العثمانية، وسكن دمشق في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، ثم انتقل إلى جنيف ليعيش في سويسرا خمساً وعشرين سنة يدافع فيها عن قضايا الإسلام والمسلمين، ثم عاد إلى بيروت فتوفي بها ودفن بالشويفات.

تلك كانت سطوراً مختصرة عن سيرته التي تحتمل مجلدات، وهو من طائفة الدروز الذين يسكنون جبل لبنان، لكن شكيباً كان قد تسنن وتعبد وصلى وصام وحج على منوال أهل السنة، وتزوج امرأة من أهل السنة، ولهذا فمن الدروز من لا يراه درزياً ومن أهل السنة من لا يراه سُنياً لكن زوجه أكدت انتسابه إلى أهل السنة ولله الحمد والمنة، كما ذكر ذلك العالم الأديب أحمد الشرباصي نقلاً عن زوجه نفسها حيث قابلها وذكرت له ذلك، وزوجه هذه شركسية قفقاسية تزوجها الأمير شكيب في اسطنبول لما كان عمرها عشرين سنة، وكان هو قد جاوز الأربعين، وليس له غيرها.

وقد نبغ شكيب أرسلان رحمه الله تعالى مبكراً، فأخذ في نظم الشعر وكتابة المقالات وهو لم يتعد الستة عشر عاماً، ولقد رآه الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لما نُفي إلى لبنان فقال له : إني أعرف اسمك، وستكون من أعظم الشعراء، هذا وقد كان عمره آنذاك سبعة عشر عاماً، ثم توثقت صلته بالأستاذ محمد عبده، وزاره في مصر وخالطه طويلاً، وجلس إلى جمال الدين الأفغاني باسطنبول، ورأى

الشاعر أحمد شوقي فيها، واجتمع بالأستاذ رشيد رضا في بيروت، وكل هذا طبع في قلب الشاب وعقله وجوب العناية بالمصادر الإسلامية والبحث في آلام الأمة وآمالها، والاهتمام بشؤون العالم الإسلامي، وهذا جعله يشارك أمته همومها، فمن ذلك أنه شارك في الجهاد ضد الإيطاليين في ليبيا سنة ١٩١١، وقاد ستمائة جمل تحمل المؤمن من مصر إلى برقة، وظل في موطن الجهاد ثمانية أشهر تقريباً.

وقال الزعيم الليبي سليمان الباروني: "لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب ونفذتها بحذافيرها لما ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقه، أو لاستطعنا على الأقل إطالة الحرب ثلاث سنوات أو أربع".

وسافر إلى المدينة المنورة سنة ١٩١٤ ليفتح مدرسة فيها.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ أقام بمعان - في جنوب الأردن الآن- قرابة شهر ومعه مائة وعشرون مجاهداً، ثم انضم إلى الجيش العثماني الحجازي، وكان لا يثق بالحلفاء ويهاجمهم، ويعارض الثوار العرب في ثورتهم ضد الدولة العثمانية، وذلك لإخلاصه إخلاصاً منقطع النظير لها،

ولأنه يعلم أن الخلفاء سيستولون على البلاد العربية بعد الحرب، ولذلك أرسل إلى أحد الأشراف الثوار قائلاً:

"ماذا تصنعون؟

أتقاتلون العرب بالعرب؟

وتسفكون دماء العرب بأيدي العرب، ولأجل أن تكون سورية لفرنسا، والعراق لانكلترا، وفلسطين لليهود؟".

فلما انتهت الحرب وانهزمت الدولة العثمانية رأى أن الدولة العثمانية بقيادة الكماليين أدارت ظهرها للعروبة والإسلام، وأن مصطفى كمال قد أسرف في عداوة الإسلام، فقرر أن يدعو إلى الوحدة العربية بعد أن كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية، وله عذره الواضح في هذا؛ إذ بعد إلغاء الخلافة لم يكن هناك دولة إسلامية جامعة، وكانت الدول العربية والإسلامية تتساقط في أيدي الاحتلال واحدة بعد أخرى، وكانت الأحوال غير مواتية آنذاك للدعوة إلى الجامعة الإسلامية فدعا شكيب إلى الوحدة العربية حتى قال الملك فيصل بن الحسين له: "أشهد أنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية وأراد أن تكون وحدة عملية" هذا على أن

شكيب لم ينسى الوحدة الإسلامية لكنه كان سياسياً عملياً يعمل في المتاح له حَسَب أحوال زمانه، هذا وقد كان شكيب حريصاً على إعادة الخلافة عقب إلغائها في تركيا، ويكاتب الشيخ رشيد رضا في ذلك، ويقترح في هذه المسألة اقتراحات لكن الأمر كان أكبر منه.

ثم إنه لما احتلت فرنسا سورية الكبرى رفض أن يبقى فيها فخرج إلى ألمانيا التي كان لها صلات بالدولة العثمانية قوية ودخلتا الحرب معاً، فرحب به القوم، وأقام في برلين، ورافق الإمبراطور غليوم في زيارته لسورية بعد ذلك.

ولما كان مقر جمعية الأمم - عصبة الأمم- آنذاك في جنيف بسويسرا ترك الأمير شكيب إقامته في برلين واستقر في جنيف لمدة ربع قرن تقريباً، مدافعاً عن قضايا العروبة والإسلام، وشارك في أعمال ومؤتمرات كثيرة كانت تعقد في سويسرا وأوربا ومنها مؤتمرات الوفد السوري الفلسطيني الذي كان يرفع ظلامته إلى جمعية الأمم "عصبة الأمم"، وما أشبه الليلة بالبارحة !!

من اللطائف عن شكيب:

لما حج كان الوقت صيفاً فلم يستطع أن ينام ثلاثة أيام بلياليهن، فأرسله الملك عبدالعزيز إلى بستان عبدالله السليمان في الزاهر بمكة المكرمة فنزل في بركة البستان فبرد جسده فنام !! ثم أوصى الملك بإصعاده إلى الطائف حتى يأتي وقت الحج.

ولما كان في الحجاز عرض عليه الملك عبدالعزيز أن يرسل له جارية ليتسرى بها فرفض قائلاً: "إنني متزوج، وأنا أحب زوجتي، وفوق هذا فإن زوجتي تغضب علي إذا عرفت"!!

له رسالة منشورة باسم "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم" قال عنه الأستاذ رشيد رضا:

اضطربت بها بعض دول الاستعمار، وزلزلت زلزالاً شديداً، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها، وهي أحق بها وأهلها، فانفردت بهذه العداوة للإسلام دون مَن أغروها بها.

وكذلك منعت فرنسة دخول هذه الرسالة الجزائر حينئذ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها.

أسلوب شكيب في الشعر والكتابة:

كان الأمير شكيب أرسلان يُعَدّ شاعراً من مقدمي شعراء عصره لكنه في النثر من أهل الطبقة الأولى، وكان يُغرب أحياناً في عباراته وكلماته فيأتي بها عربية قحة صعبة، وكان يسجع أحياناً، لكنه إذا أطلق ليراعه العنان فإنه يأتي بكلام رائع جليل، أكتفي منه بهذا الذي كتبه بعد زيارته الأندلس شعراً ونثراً:

يقولـــون كانـــت أمـــةٌ عربيـــة ... بأنـدلسٍ سـادت بهـا جَـمٌّ أَعْصُـرِ

وقـد عمـرت أقطـار أنـدلسٍ بهـم ... فكـم بلدٍ فخـم ومِصْـرٍ مُمَصّـرِ

وكـم أَرْبُـعٍ خُضْـر وحَـرث مطبق ... وفاكهـــة رغـــد وزهـــر منـــوِّرِ

وكـم قائـد قَـرْمٍ وجنـد مـدرب ... وكـم سـائس فحـل وأمـر مُـدبّرِ

وكـم بطـل إن ثـار نقـعٌ رأيتـه ... يبيـع بأسـواق المنايـا ويشـتري

ومـا شـئت مـن علـم ورأي وحكمـة ... ودرسٍ وتحقيــق وقــول محــررِ

إلى شمـــم جـــم ومجـــد مؤثـــل ... وفي عـــزة قَعْســـا ووَفْـــر مُـــوَفّرِ

نعـم كـان فيهـا مـن نـزار ويعـرب ... جموع نخيل الأرض في يوم محشرِ

فراحت كأن لم تغن بالأمس وانقضى لهم كل رِكْز غير ذكرٍ مُعطرِ

وقد قال في كتابه "الحلل الأندلسية":

"نعم: حواضر كالبحار الزاخرة، كانت تموج بالبشر، وحصون كالجبال الشامخة تحصى بالألوف ... وجيوش كانت حصى الدهناء ورمال البطحاء، ومساجد كانت في الجوامع المشهورة تَغَصّ بألوف الألوف من المصلين، ومدارس كانت مكتظة بالألوف من القراء والطالبين، وما شئت من إسلام وإيمان، وحديث وفرقان، وأذان يملأ الآذان، وما أردت من نحو ولغة وطب، وحكمة ومعان وبيان، بلغة عربية عرباء، يحرسها علماء كنجوم السماء، وما أردت من عيش خَضْل وزمن نَضْر ... كل هذا عاد كهشيم المحتظر، كأن لم يَغْن بالأمس، ولم يبق منه إلا آثار صوامت، وأخبار تتناقلها الكتب، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر، ولا سمر فيها سامر ...

وأما السائح الشرقي فإنه يقضي سياحته في إسبانيا متأملاً غائصاً في بحار العبر، هائماً في أودية الفكر، كلما عثر على أثر قلبي خفق له قلبه، واهتزت أعصابه، وتأمل في عظمة قومه الخالين، وما كانوا عليه من بُعد نظر، وعلو

همم، وسلامة ذوق، ورِفق يد، ودقة صنعة، وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فيما وراء النهر في بحبوحة النصرانية، وملتطم أمواج الأمم الأوربية، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين، ويشيدوا فيها ألوفاً من الحصون، وأن يملأوها أساساً وغراساً كأنهم فيها أبد الآبدين.

فلا يزال قلب السائح المسلم في الأندلس مقسماً بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذي ملكوه، والوَجْد على ضياع ذلك الإرث الذي عادوا فتركوه، وأكثر ما يغلب عليه في سياحته هناك هو الشعور بالألم، فهو لا يزال يسير بين تأمل وتألم، وتفكر وتحسر ...".

تدينه وفهمه للإسلام:

كان الأمير شكيب -في الجملة- متديناً، محافظاً على الصلاة في زمن كانت الصلاة فيه مهجورة من أكثر الناس، وكان محافظاً على دين أسرته، وكان عارفاً بشرائع الإسلام -في الجملة- وإليكم هذه الوقائع التي تدل على هذا:

١. في سنة ١٩٣٥ رأس الأمير شكيب أرسلان المؤتمر الإسلامي الأوروبي الذي انعقد بجنيف، وكانت إحدى جلسات المؤتمر في يوم جمعة، فأوقف الجلسة ليصلي الحاضرون الجمعة، فخطب المصلين في الفندق وصلى بهم إماماً.

٢. في سنة ١٩٣٧ زار حلب، وخطب في جامعها الكبير قائلاً:

" إن المسلم يستمد استقلاله من القرآن، وإن إيمان المسلم غير الكامل إنما هو إيمان ناقص، ولا توجد الوطنية الصحيحة إلا في قلب المؤمن العامر بالإيمان".

٣. أرسل بنتيه إلى لبنان ولم يسمح لهن بالبقاء في جنيف، وذكر السبب لولده غالب عندما اشتاق إلى أختيه وطلب من أبيه إحضارهما فقال:

"إنني أشد منك عذاباً في فراقهن، لكني لا أريد أن يخرجن افرنجيات، فلو ربيتهن في جنيف لخرجن بدون لغة

عربية، وبدون عقيدة إسلامية، وما يعود ممكناً إعادتهن إلى الحجاب متى ذهبن إلى الوطن".

٤. عند حديثه عن حدود العلاقة بين الدين والدولة مثل لما يحصل في أوروبا من علاقة بين الفاتيكان وإيطاليا، وفي بلجيكا وغيرها فيقول:

"إذن فالمدنيّة تجتمع مع الدين، والحكومات الشرقية التي تزعم أنها تقطع صلتها بالدين الإسلامي اقتداء بحكومات أوروبا -التي تزعم عنها قطع الصلة بالدين المسيحي- إنما هي حكومات تضلل أفكار السُذّج من رعيتها، وتموه عليهم، وتقصد حرباً وتوري بغيرها، وناشروا دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون".

فكان شكيب بهذا من أوائل من رد على العلمانيين في العالم العربي.

لكن هذا كله لا يعني أنه بريء من أخطاء شرعية وقع فيها لكن أقول إنه في الجملة متدين بدين الإسلام معتز به، مقيم للشعائر، وهذا من مثله في ذلك الزمان عزيز، والله أعلم.

وبعض ما ذكرته يؤيد ما نقلته في بداية المقالة عن سنيته، والله أعلم.

همة شكيب:

كان الأمير شكيب أرسلان ذا همة عالية متوقدة تسوقه إلى العمل الكثير بدون كلل ولا ملل، ومن صور تلك الهمة:

١. رحلاته:

قد ارتحل الأمير كثيراً إلى بلدان عديدة، في زمن كان الانتقال فيه بالقطار والسيارة والباخرة هو الغالب أما السفر بالطائرة فكان قليلاً؛ إذ لم تنتشر الطائرات آنذاك انتشارها هذا الزمان، فكان قد زار الاتحاد السوفيتي بمناسبة مرور عشر سنوات على بدء الثورة البلشفية، وذلك سنة ١٩٢٧ فسافر بالقطار إلى موسكو، وفي السنة نفسها زار أمريكا بدعوة من عربها للمشاركة في مؤتمرهم في ديترويت.

وفي سنة ١٣٤٨/١٩٢٩ حج بيت الله الحرام، وأعجبه أن لم ير في البلاد إلا مسلمين وليس فيها أثر للاحتلال.

وفي سنة ١٩٣٠ ارتحل إلى الأندلس (اسبانيا) ماراً بفرنسا، وكتب عن هذه الرحلة كتابه "تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط"

وارتحل إلى البوسنة والهرسك، وألف فيها كتاباً مازال مخطوطاً.

وفي سنة ١٩٣٤ اشترك في الوفد الذي سعى في الصلح بين الملك عبدالعزيز بن سعود والإمام يحيى إمام اليمن، فنجح الوفد في مهمته وتوقفت الحرب.

وفي السنة نفسها قابل موسوليني الطاغية الإيطالي، وتحدث معه ليخفف قبضته على مسلمي ليبيا.

هذا عدا عن رحلاته إلى تركيا ومصر وليبيا.

٢. **كثرة مؤلفاته ورسائله ومطالعاته:**

يعد شكيب من المكثرين جداً في التأليف، وصاحب همة عالية جداً في القراءة وسأورد أمثلة على ذلك:

أ. ما كتبه في سنة واحدة فقط هي سنة ١٩٣٥:

الرسائل الخاصة: ١٧٨١، المقالات: ١٦٧، قصيدتان، كتاب عن أحمد شوقي في ٣٥٠ صفحة، وحواشي ابن خلدون

في ٥٦٠ صفحة، طبع ديوان أخيه: روض الشقيق، وترجم لأخيه، وفسر غريب الديوان، الجزء الأول من كتاب الأندلس، تهيئة ديوانه الخاص للطباعة، تلخيص كتاب ليفي بروفنسال.

وهذا مقدار عظيم في سنة واحدة.

ب. وقال سنة ١٩٣٠:

"نحن هنا في ديار غربة، وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا؛ إذ ما معين ولا مساعد، ونكتب بخط بناننا ألفاً وخمسمائة صفحة في كل شهر؛ إذ ليس عندنا كاتب سر ولا حافظ أوراق، ولدينا أشغال كثيرة مدهشة تتعلق بمهمتنا السياسية التي هي قضية سورية وقضية فلسطين وغيرها من القضايا العربية، وعلينا أن نقرأ الصحف اليومية، وكثيراً من المجلات والكتب، وأن نراقب حركة العلم والسياسة، وحق العلم أن يطلب من المهد إلى اللحد، ولقد بلغنا سن الستين".

جـ. وكان قد حفظ أكثر مقامات الهمذاني والحريري، وعكف على مقدمة ابن خلدون، واطلع على كتب كثيرة جداً منها: نفح الطيب، والنهاية لابن الأثير، وطبقات ابن سعد، ورحلة ابن جبير، والمخصص لابن سيدة، ولسان العرب، وتاج

العروس، ومعاهد التنصيص للشريف العباسي في شرح شواهد التلخيص، وكتب الجاحظ وابن المقفع، والأغاني والعقد الفريد، وخزانة الأدب.

د. وترجم كثيراً من الكتب والمقالات من الفرنسية إلى العربية.

هـ. أما مؤلفاته فهي شيء عجيب، عبر عنه الأستاذ محمد رجب بيومي حفظه الله بقوله:

"لو تفرغت لجنة علمية مخلصة لجمع آثار الرجل ما استطاعت بعد طول الكد اللاغب أن تبلغ شيئاً ذا بال في طريقها البعيد؛ لأن الأمير - كافأه الله أحسن المكافأة- كان يراسل أمهات الجرائد في مصر وسوريا وتونس والعراق ومراكش والمهجر، ويكاتب أفذاذ الأعلام من ذوي الرأي السياسي والأدبي في شتى ديار الإسلام، ثم يصدر مجلة باللغة الفرنسية تكون لسان العرب في دوائر الاستعمار، وقد ذكر أحد أصدقائه أن الرسالة الواحدة من رسائله كانت تتجاوز العشرين صحيفة يكشف فيها الرجل عن دقائق لا يلم بها سواه، وهي بعد رسالة فردية يكتبها الأمير ليقنع صاحبه وحده

بوجهة نظره الخاصة في مسألة عامة!! فماذا نقول في مقالاته المسهبة التي كانت تحتل الصفحات الأولى دائماً من أمهات الصحف الذائعة في الشرق الإسلامي؟ ثم ماذا نقول في مذكراته الضافية عن استعمار إيطاليا في طرابلس، وفظائع فرنسا في سورية ولبنان، ومأساة اليهود في فلسطين، ومحاولة الظهير البربري في المغرب، ودور الخلافة العثمانية في الأحداث العربية، ثم تراجمه الضافية لأصدقائه الأعلام ممن فاجأوه بوفاتهم ... هذا غير مؤلفاته المتداولة، وهي على كثرتها المشرفة ليست غير صبابة من كأس تمتلئ وتفيض.

إن من يقف على آثار الأمير القلمية وحدها لا يدهشه أن يسمع عن ابن جرير والسيوطي وابن الجوزي ما سمع ... لقد ألف الكاتب الأمريكي لوثروب ستودارد كتاباً قيماً عن حاضر العالم الإسلامي، قام بترجمته إلى اللغة العربية كاتب فلسطيني قدير هو الأستاذ عجاج نويهض، وشاء إخلاص المترجم أن يُعرض على الأمير ليقول كلمة موجزة تكتب في مقدمته، ولكن الرجل المكافح وجد الكتاب المحدود يتحدث عن العالم الإسلامي كله في القارات المختلفة حديثاً يتطلب

الإشباع والتفصيل، وقد غفل عن أمور كثيرة ما كان لمثل مؤلفه أن يدركها مهما واصل البحث وأحسن التعليل، فدفعته همته إلى التعليق على كل صفحة من صفحات الكتاب بما يجلو الغامض في زاوية مبهمة أو يرد الحق في خطأ ناشز حتى صار الجزء الواحد بعد تعليقات الأمير أربعة أجزاء ضخمة لا نظير لها فيما كتب يومئذ عن حاضر الإسلام، وقد نسي الناس كلام الكاتب الأمريكي إذ صار دون التعليقات الضافية بحيث لا يشفي غلة القارئ في شيء.

أما تعليقاته على تاريخ ابن خلدون فتنحو هذا المنحى من التوضيح والبسط والاستطراد ... حتى خص الأتراك وحدهم بثلاثمائة صحيفة من ذات الحجم الكبير، وأترك للقارئ أن يتصور تعليقاً عن أمة من الأمم يصل إلى ثلاثمائة، ولو أن الأمير أفرد مؤلفاً خاصاً بالأتراك وخرج مستقلاً في هذا العدد من الصفحات لكان عملاً قائماً برأسه".

٣. كثرة مناصبه ووظائفه وأعبائه:

كان الأمير شكيب كثير المناصب والوظائف، فقد تولى في شبابه قائم مقام قضاء الشوف لبنان لمدة ثلاث سنوات

ثم توالت عليه المناصب والوظائف، فقد كان عضواً في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) في دمشق ثم رئيساً له، وكان رئيس اللجنة الجرمانية الأفغانية التي تألفت في برلين سنة ١٩٢١، ورئيس النادي الشرقي في برلين، وعضو الجمعية الآسيوية الفرنسية، وأمين سر المؤتمر الإسلامي الكبير الذي انعقد بمكة المكرمة وكان عضواً في كثير من الوفود التي عقدت مؤتمراتها في أوروبا دفاعاً عن قضايا العرب والمسلمين، وكان مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري، وكان نائباً عن حوران في مجلس المبعوثان العثماني، وإذا نظر الناظر إلى هذه الأعمال والأعباء مع أعبائه التي ذكرتها في الفقرتين السابقتين علم أي صنف من الرجال كان شكيب، وأي همة كانت له.

٤. استمرار العمل والمطالعة على اعتلال في صحته:

كان جسد شكيب قد كَلّ وتعب من كثرة العمل والجهد في المطالعة، لكنه لم يتوقف قط، وقال عن نفسه:

"بلغنا سن الستين، وأصبحنا مضطرين لمداراة صحتنا، وتجدنا نغسل أعيننا بمغلي البابونج مرتين وثلاثاً كل يوم بدون

فتور؛ تسكيناً للحريق الذي يصيبها من فرط الكتابة والمطالعة".

وكان مريضاً بتصلب الشرايين، والكلى، ولما بلغ السابعة والخمسين اضطر للاستعانة بكُتّاب يملي عليهم فيكتبون، وقد منع بعد ذلك من الكتابة بأمر الطبيب بسبب ضعف البصر وارتعاش اليد.

٥. معرفته باللغات:

كان يتقن العربية جداً بل يعد في الصف الأول من أدبائها وعلمائها، ويتقن التركية والفرنسية، ويعرف الألمانية معرفة متوسطة، ويعرف الإنجليزية ومعرفته بها أحسن من معرفته بالألمانية، وقد ساعده إتقانه للفرنسية على الاطلاع على علوم وفنون وآداب كثيرة لم تكن متاحة لعارفي العربية وحدها آنذاك.

ـ مكانة شكيب:

ذكر الأستاذ أحمد الشرباصي في كتابه "شكيب أرسلان: داعية العروبة والإسلام" خبراً له دلالته، فقال:

نشرت مجلة الضياء الهندية خبراً مطولاً عن مجمع انعقد في سنة ١٩٣٥ ليبحث أي الرجال من المسلمين يستحق بأن يوصف بأنه أعظم رجل في العالم الإسلامي اليوم؟ وقد حضر الاجتماع عدد كبير من الأدباء والمفكرين، وخطب كل واحد منهم يؤيد رأيه فيمن يكون أرجح ميزاناً بين رجال الإسلام المعاصرين، وترددت أسماء محمد إقبال وشكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا وأبو المكارم الدهلوي وسليمان الندوي وعبدالكريم الخطابي والسيد أحمد الشريف السنوسي ومولانا محمد علي وحسين أحمد المهتدي وغيرهم، ولكن الأمير شكيب أرسلان فاز بأكثرية الأصوات في هذا الاجتماع.

وهذا يدل على مكانة شكيب عند العجم، ولا شك أن مكانته عند العرب أعظم وأجل، لكن هذا الجيل اليوم لا يكاد يعرف عنه شيئاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

- وفاته:

انتقل إلى وطنه لبنان قبل وفاته بشهور، وسُعد به إذ رآه مستقلاً، وكان ذلك سنة ١٩٤٦، لكنه لم يبق سوى بضعة

أشهر ثم توفي بعدها ليلة الخامس عشر من المحرم سنة ١٣٦٦/ ٩ديسمبر ١٩٤٦ ، وصلي عليه في الجامع العمري ببيروت.

وقبل أن يموت بأيام أوصى وصيته الأخيرة ، وكان فيها : أوصيكم بفلسطين، وهذا قبل احتلالها بسنة وبضعة أشهر، فرحمة الله تعالى رحمة واسعة ، وعوض الأمة عنه خيراً.

مزايا شكيب في سطور:

كان الأستاذ أحمد الشرباصي - رحمه الله- في دراسته عن شكيب قد ذكر مزاياه، وهأنذا أورد بعضها في سطور موجزة مثل العناوين:

١. شارك في الإحياء اللغوي، حيث استعمل مفردات كانت مهجورة، وبذل جهوداً في التعريب، ووضع مصطلحات عربية للألفاظ الاصطلاحية الافرنجية ، وكان هذا عملاً مهماً ، بل هو من بواكير التعريب، وله نظريات في الأدب واللغة جليلة ، وشارك في إحياء الشعر العربي.

٢. بذل جهوداً كبيرة في الترجمة عن الفرنسية والتركية ، وكان بهذا أحد الرواد في هذا الباب.

٣. بذل جهوداً كبيرة في إحياء تاريخ العرب وتاريخ الإسلام وتتبع مآثر العرب والمسلمين في الشرق والغرب، وعَرّف بحاضر المسلمين في زمانه.

٤. شارك في نشر التراث العربي وتحقيق المخطوطات.

٥. له آراء قيمة عن السياسة، ومشاركة حسنة فيها كما بينت في أثناء المقالة.

٦. له رحلات جليلة كان لها أثر كبير في تحريك الراكد من الأحوال العربية والإسلامية آنذاك.

هذا وقد ذكرت في أثناء المقالة غير ذلك من المزايا وإن كان من شيء بقي فهو اعتزازه الكبير بالعربية والإسلام.

تلك كانت سطوراً من سيرة الأمير شكيب الجليلة المطولة، وهي لا توفيه حقه لكن تظهر شيئاً من عمله وجهده وجهاده وهمته، وهذا مما يحتاجه أهل العصر والأجيال القادمة، فرحمه الله وغفر له.

٥- المجاهد
عمر الفوتي
١٢١٢ - ١٢٨٠

١٧٩٧ - ١٨٦٤

لقد كان في التاريخ الإسلامي الحديث رجال صدقوا ما عاهدوا اللّٰه عليه، وعملوا طويلاً من أجل الذب عن حياض الإسلام، ولم يبخلوا بشيء في سبيل ذلك، فكان لهم مع أعداء الإسلام صولات وجولات أظهرت صوراً جليلة من البطولة والكفاح، ومن هؤلاء العظماء عمر بن سعيد بن عثمان تال الفُوتي الذي أنشأ دولة على مساحة كبيرة من حوض نهر النيجر وحوض نهر السنغال في غرب إفريقيا في دولتي السنغال ومالي حالياً، وذلك في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر الميلادي.

كان عمر الفُوتي صوفياً تيجانياً لكنه لم يكن من قَعَدة الصوفية المثبطين، ولم يكن من الغالين، لكنه كان صوفياً معتدل التصوف، ومن المجاهدين في سبيل اللّٰه تعالى، وقد كان لمجاهدي الصوفية أثر عظيم في صد الاحتلال والاستخراب عن بلاد الإسلام، وقد رأينا هذا في السنوسية والنقشبندية والرحمانية وغيرها من الطرق التي آثرت الجهاد ولم يكن فيها من ضلالات البدع الغالية ما كان في الطرق الصوفية الأخرى.

والطريقة التيجانية ربت رجالاً عظماء كان لهم أيادٍ بيضاء في الجهاد، وفي بعض الأحوال انتسب إليها عملاء للاحتلال وموالون له على وجه عجيب، وهذا أمر معلوم في الجزائر على الأقل فقد كان لبعض هؤلاء ولاء مُخْزٍ للاحتلال الفرنسي، والله أعلم.

ولد عمر الفوتي سنة ١٢١٢ / ١٧٩٧ في قرية حَلْوار –الواقعة على الضفة الغربية من نهر السنغال– التي تبعد حوالي أربعين كيلاً عن بودور على الحدود السنغالية الموريتانية.

وكان والده صالحاً عالماً فنهل الولد من علم أبيه ودرس على يديه الفقه وصحيح البخاري ومسلم.

وحفظ القرآن في الكُتاب وهو ابن ثمان سنين.

ولما بلغ العشرين سنة من عمره ارتحل إلى فوتا جالون –في السنغال اليوم– واستقر في مدينة ساتينا قرابة عشر سنوات يُدَرّس القرآن الكريم والسيرة النبوية المطهرة للأطفال.

ثم توجه إلى الحجاز للحج مع أخيه علي، فسار إلى فَزّان أولاً ثم دخل القاهرة وناظر بعض علمائها بحضرة وكيل المغاربة محمد المغربي فلما رأى تفوقه في العلوم أعطاه مالاً وزاداً

وأذن له بركوب النهر للحج، فوصل إلى مكة المكرمة والتقى بشيخه محمد الغالي وحجا معاً، ثم توجّها إلى المدينة فدخلاها في المحرم من سنة ١٢٤٢، ومكث مع شيخه ثلاث سنوات، توجه أثناءها إلى القاهرة ثم إلى بيت المقدس ثم عاد إلى المدينة المنورة النبوية ثم حج مرة أخرى، وتزوج ابنة إمام الحرم المكي.

ثم قفل عائداً إلى مصر فمكث فيها بضعة أشهر من سنة ١٢٤٦، والتقى بأهله فيها وكان قد تركهم منذ ثلاث سنوات عندما قدم إلى القاهرة مريداً الحج ، ثم توجه إلى فزان ومنها إلى بَرْنو –من أرض تشاد اليوم– فقابل سلطانها عمر الذي حسده وسعى في قتله فنجاه الله -تعالى- ثم صلُح ما بينهما.

ومن هناك انتقل إلى سُوكُوتو عاصمة الخلافة الفُودية -التي تحدثت عنها في ترجمة عثمان بن فودي في الجزء الأول من هذه السلسلة- وهي دولة جليلة بقيت مائة عام حطمها الانجليز مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، ولقي الحاج عمر الفوتي -كما كان يسمى بعد عودته من الحج- في سُوكُوتو خليفة المؤمنين الشيخ محمد بَلُّو

بن عثمان فودي، وجمع في سوكوتو بين الدراسة والتدريس، وشارك في غزوات محمد بَلُّو بل جعله قائداً لجيشه لما رآه ميمون النقيبة مظفراً منصوراً، وكان يخطب في الجنود ويرفع من معنوياتهم، وتعلم طرائق الحرب التي اشتهر بها جيش الفوديين.

وأطلعه محمد بَلُّو على أسرار دولته، وجعله بجواره في سائر أعماله، ومكث معه سبع سنوات، وزوجه ابنته.

واطلع على الإنتاج العلمي الضخم الذي تركه عثمان بن فودي وأخوه عبدالله في شتى المجالات الشرعية خاصة أمور السياسية والحكم.

وفي سوكوتو تعلم طرق الحكم، واستفاد من الغزوات الحربية في بناء علومه العسكرية فكون الخبرة اللازمة لإقامة دولته الإسلامية بعد ذلك.

وقد استطاع جمع مال جزيل من غزواته مع الفوديين فاشترى به رقيقاً وتاجر به، مما مكنه من تكوين ثروة طائلة كانت معينة له في إنشاء دولته بعد ذلك، وفي سوكوتو ألف كتابه : "الرماح".

ولما مات الخليفة محمد بلو سنة ١٢٥٣ بقي عمر الفوتي في سوكوتو سنة واحدة ثم غادرها إلى بلاده، وقد اكتسب من هذه الرحلة الطويلة أموراً منها:

١. العلم الشرعي الذي مكنه من تبوئ المكانة الجليلة في بلاده، وأذعن له الناس.
٢. الوعي بمخططات الأعداء وأطماعهم في بلاد الإسلام عامة وفي إفريقيا خاصة.
٣. الخبرة الجهادية العسكرية.
٤. الخبرة في شؤون الحكم.
٥. الاطلاع عن كثب على أحوال المسلمين والوثنيين في وسط إفريقيا وغربها، وعرف أن المسلمين مشتتون ومتفرقون في مناطق كثيرة.

ومن أعظم ما تأثر به الحاج عمر الفوتي من بقائه مدة في الدولة الفُودية هو تأثره بآراء عثمان بن فودي الفقهية وعلى رأسها أنه يَعُدّ الموالين للكفار من المسلمين كفاراً يجب جهادهم، واعتماداً على هذا المبدأ قاتل الحاج عمر عدوه أحمد ابن أحمد وقتله كما سيأتي.

فعزم -لأجل كل ذلك- على تكوين دولة إسلامية تقف أمام مطامع النصارى وتنشر الإسلام وتحارب الوثنية.

مراحل إنشاء الدولة:

في سنة ١٨٣٩ وصل الشيخ عمر الفوتي إلى حَمدْ اللّه عاصمة ماسينا – وهي تقع اليوم في مالي - في عهد السلطان شيخو أحمدو بن حَمَدِ لُبُ الذي حاول قتله لكن اللّه تعالى نجاه.

وغادرها متوجهاً إلى سيجو segou وحاول ملكها –وكان كافراً- أن يقتله لكن اللّه نجاه بفضله، وكل محاولات قتله السابقة كانت لتوجس الحكام منه خيفة على ملكهم لِما رأوا من مواهبه واستعداده للجهاد.

ثم غادرها سنة ١٨٤٠ وتوجه إلى فوتوجالون وأقام في عاصمتها تيمبو timpo -وهي في غينيا اليوم- وقيل سكن في جقنكو أربع سنين، وتدخل في إصلاح أزمة الحكم التي نشأت بعد وفاة السلطان يحيى مما جعله يشتهر بين الناس.

ثم بعد قضائه أربع سنين هنالك توجه إلى موطنه فُوتا طُور ، وهي بالقرب من الحدود السنغالية الموريتانية اليوم، وزار

مسقط رأسه حَلْوار، فوصلها سنة ١٨٤٦/١٢٦٢ بعد غياب عشرين سنة تقريباً، فمكث فيها ستة أشهر ثم غادرها إلى فوتا جالون مرة أخرى.

وقد حدثت له حوادث كثيرة هنالك ، ودار في قرى وبلدات كثيرة إلى أن استقر في موضع يسمي دينغراوي ، وهي جزء من مملكة يِنْبَ سَاخُ وهو ملك وثني لكنه سمح للشيخ بالبقاء في مقابل صاع من الذهب كل عام ، فأقام بها ثلاث سنوات ثم بدأ الجهاد ، فكان جملة ما مكثه منذ رجوعه من الحج إلى بداية الجهاد ثنتي عشرة سنة.

وكان قد غزا بنفسه ثنتين وثلاثين غزوة حتى استشهاده، والسرايا التي أرسلها خمسين سَرِيّة فانظر إلى همته في الجهاد رحمه الله تعالى.

خطوات قطعها في الجهاد:

١. أقام الحاج عمر في منطقة من مناطق فوتا جالون بالقرب من الحدود المالية السنغالية الموريتانية ، وأنشأ مركزاً للتعليم وفد إليه أعداد كبيرة من الراغبين في تعلم العلوم الشرعية، وكان من هؤلاء من برع في العلوم

وتميز عن أقرانه فأرسلهم الحاج عمر إلى المناطق المجاورة للدعوة إلى الله ونشر الإسلام في القبائل الوثنية، وتنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم من قبل الفرنسيين ودعوتهم إلى الجهاد، وربي هؤلاء على الاستعداد للجهاد والذود عن البيضة ورد المعتدين.

٢. استعد للجهاد بتخزين المواد اللازمة له من سلاح ومؤنة وجند الرجال، وظل في هذه المرحلة قرابة عشر سنوات.

٣. أعلن الجهاد في سنة ١٢٦٩ / ديسمبر ١٨٥٢ بعد أن هاجمه ملك الوثنيين يمبا ساخو Yimba sakho، وسقطت مدينة تامبا، وحاز المجاهدون على غنائم كثيرة من الذهب، وهذا أدى إلى اشتهار الشيخ عمر الفوتي، ومهادنة سلطان فوتا جالون له وقد أدى هذا إلى استجابة أعداد كبيرة من الفوتيين لدعوة الحاج عمر، ولحقوا به للجهاد في سبيل الله تعالى في مدينة دينغراي

Dinguiray فكون منهم جيشاً كبيراً حارب بهم الوثنيين في سيجو وفي ماسينا وفي غيرها ، ودخل كثير من الوثنيين في دين الله تعالى، ومن لم يقبل منهم الإسلام حاربه.

٤. استولى على القرى والبلدات والمدن واحدة تلو الأخرى حتى استقر له الأمر في مناطق كبيرة من مالي والسنغال، ومن أهم وقائعه استيلاؤه على سيجو segou وتولية ابنه أحمدو تال عليها.

واستولى على ماسينا - على أنها كانت مملكة مسلمة- لأنها ساعدت امبراطور سيجو، بجيش يقدر بثلاثين ألفاً وهذه خيانة ، ونقض لعقيدة الولاء والبراء ، لأن امبراطور سيجو كان وثنياً، وقبض على أحمدو شيخو حاكم ماسينا وأعدمه، وعين الشيخ عمر ابنه أحمدو تال حاكماً عليها وذلك سنة ١٨٦٢/١٢٧٧م.

٥. بنى المساجد والمدارس، التي ظل بعضها مركز اشعاع كبير حتى بعد تقويض دعائم الدولة الفوتية مثل المدرسة التي في قرية بكيجوي.

٦. استطاع أن يجذب عدداً من الموالين له من خارج المنطقة، ومن أبرزهم الشيخ أحمد العلوي التيجاني الشنقيطي الذي وقف معه في جهاده، وترجم له، ونشر أخباره في شمال المغرب، ومنهم الشيخ محمد بن محمد الصغير العلوي الشنقيطي الذي جاهد مع الحاج عمر -على كبر سنه- ودافع عنه شعراً ونثراً، ومنهم الشيخ أحمد بن بدي العلوي الذي دافع عن جهاد الشيخ عمر الفوتي ورد الشبهات عنه.

وهذا يدل على أن الشيخ نجح في جذب الكبراء والعلماء من خارج المنطقة إلى جهاده وعمله.

٧. أقام دولته على الشريعة الإسلامية، وحرم الخمر وحطم الأصنام، وأشاع العدل بين الناس.

٨. هاجم الفرنسيين، ثم عقد معاهدة معهم سنة ١٢٧٦/ ١٨٦٠م أي قبل موته بأربع سنين.

وكان العداء مع الفرنسيين قد استحكم منذ سنة ١٨٥٤ حين طلب الشيخ منهم السلاح فلم يعطوه، ثم عمل الفرنسيون على إثارة الحكام الوثنيين والمسلمين ضده، بل العجيب أنهم استمالوا بعض الفقهاء ومنهم قاضٍ اسمه أبو المغداد، وكان قاضياً بسانت لويس، وعمل مع الإدارة الفرنسية مترجماً منذ سنة ١٨٥٥، واستمر ذيلاً لهم إلى وفاته سنة ١٨٨٠، وكان هذا الفقيه يطعن في الحاج عمر ويشكك في جهاده، وهكذا تنعدم عقيدة الولاء والبراء في نفوس الضعفاء ولو كانوا فقهاء.

وهاجم الشيخ عمر الفرنسيين في عدة وقائع لكن كانت قوة الفرنسيين أكبر بكثير، خاصة أن الوثنيين تمالأوا مع الفرنسيين عليه، وساعدهم بعض الحكام المسلمين وهذا لضعف عقيدة الولاء والبراء لدى هؤلاء الحكام، ولخوفهم من الشيخ عمر الفوتي، فرأى الشيخ عمر أن يهادن الفرنسيين حتى يتفرغ لإقامة دولته بعيداً عنهم لكن لم يعاهدهم في معاهدة

مكتوبة، إنما صنع ذلك ابنه أحمد من بعده ، وجعل الفرنسيون منطقة يسار نهر النيجر إلى الشرق للشيخ وما كان يمين النهر إلى الغرب فهو لهم، وتعاهدا ألا يقع أحدهما على الآخر.

وكان الشيخ عمر يعلم أن الفرنسيين إنما يريدون ابتلاع كل المنطقة، وإنما يعقدون المعاهدات للاستعداد والتهيؤ للحرب مرة أخرى، فمعاهداتهم لا تساوي المداد التي تكتب به، فقد احتلوا تلك المناطق بعد موت الشيخ بمدة طويلة، وذلك سنة ١٣٠٨/١٨٩١، وبقيت في أيديهم ٧١ سنة إلى أن أذن الله بانقلاعهم سنة ١٣٧٩/١٩٦٠، ولم يخرجوا إلا ليتفرغوا لمواجهة الثورة الجزائرية التي كانت في أوج قوتها آنذاك.

مؤلفات الحاج عمر:

كان له مؤلفات عديدة منها: النصح المبين، المقاصد السنية، تذكرة الغافلين، فلاح الطالبين، تذكرة المسترشدين، رماح الحزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، سيوف السعيد، سفينة السعادة.

صفاته الشخصية:

كان ذكياً، عابداً، زاهداً، صاحب همة عالية وإرادة قوية، وحماسة كبيرة، وكان له من صفات القيادة الشيء الذي هيأه لإقامة دولة كبيرة ورعايتها.

وكان خطيباً مفوهاً يأسر السامعين، وشاعراً وأديباً.

وساعدته رحلاته على الاطلاع الواسع على أحوال العالم الإسلامي على العكس من حال أغلب أهل زمانه وبيئته.

استشهاد الشيخ:

عقب سقوط ماسينا تحالف ضد الشيخ عمر زعماء المنطقة ومنهم بالوبو Balobo عَمّ أحمدو شيخو الذي أعدمه الحاج عمر كما ذكرت من قبل، وأخوه عبدالسلام وكانا قد هربا من ماسينا بعد استيلاء الحاج عمر عليها، وأحمد الكنتي البكائي الذي كان رئيس الطائفة البكائية في تنبكتو - في مالي اليوم- وانتهى الأمر إلى محاصرة الشيخ عمر في مدينة حَمْدِاللّه في ماسينا حيث حوصر ثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم نجح في الهرب منها مع بعض أبنائه وقواده، ولجأ إلى غار في جبل في بانجفرا فحوصر في قلعة

هنالك فأضرم أعداؤه النار فمات اختناقاً، وقيل إنه هو الذي أمر بإضرام النار حتى لا يقع في أيديهم وأنا أستبعد هذا ، فالله أعلم بما كان من ذلك، وقد وقع هذا في يوم الجمعة ٣ رمضان/١٢٨٠، ١٢ فبراير ١٨٦٠.

كان الشيخ المجاهد عمر الفوتي قد عين ابنه أحمدو تال نائباً عنه في سيجو، وطلب من أبنائه أن يطيعوه ويوالوه من بعده، وأخذ عليهم بذلك القسم ثم طلب منهم ومن سائر وجهاء بلاده إعادة البيعة لابنه لما دخل ماسينا لكن النزاع دب بين أبناء الشيخ بعضهم بعضاً ، وبين بعض وجهاء قادته بعد وفاة الشيخ عمر الفوتي، وتفككت الدولة إلى أجزاء سيطر على كل جزء منها قائد من قواد عمر الفوتي، وظل أحمدو تال بن عمر الفوتي يدعي السيطرة على كل دولة والده، وغير لقب الخلافة إلى لقب أمير المؤمنين سنة ١٨٦٨/١٢٨٤ أي بعد وفاة والده بأربع سنوات، لكنه ظل في نزاع مع إخوته.

وأما منطقة كارتا فقد حكمها مصطفى أحد عبيد الشيخ عمر الفوتي وذلك من سنة ١٨٦٠، أي قبل وفاة الشيخ عمر بأربع سنوات.

وحصل خلاف بين الأطراف المتحالفة للقضاء على الشيخ عمر، حيث اختلف بالوبو عم أحمدو شيخو مع أحمد الكنتي البكائي، وذلك لأن البكائين طلبوا من الماسنيين ورئيسهم بالوبو أن يكون لهم السيطرة والحكم في ماسينا، وعللوا ذلك بأن الماسينيين كانوا تحت حكم الشيخ عمر الفوتي، وأنهم أنقذوهم من حكم الفوتيين.

وحكم أحمد التجاني -ابن أخ الشيخ عمر- ماسينا بعد استشهاد الشيخ، وظل بها مستقلاً إلى وفاته سنة ١٨٨٧، واستفاد من الخلاف بين أحمد الكنتي وبالوبو، وتولى بعده أحمد المدني إلى سنة ١٨٩٠، وفي عهده صارت ماسينا مركزاً مهماً من مراكز تعليم الإسلام.

لكن الفرنسيين كانوا هم المستفيد الأكبر من كل تلك المؤامرات والخلافات، واستولوا على كل المنطقة بعد ذلك مستفيدين من الإذن العام الذي أعطاهم إياه الأوروبيون بعد معاهدة برلين سنة ١٨٨٤.

نتائج حركة الشيخ الحاج عمر الفوتي:

وهكذا انتهت دولة الشيخ عمر الفوتي عقب جهاد طويل لكنه حسبه أنه صنع التالي:

١. أنشأ كياناً وقف به في وجه الأطماع الفرنسية مدة طويلة نسبياً.
٢. جمع كثيراً من أفراد القبائل العديدة المنتشرة في المنطقة، ووحدهم تحت لوائه، وكانت المنطقة تئن من الفرقة والخلاف وكثرة الدول الصغيرة الضعيفة، فأنشأ دولة كبيرة نسبياً جمعت أشتاتاً من الناس.
٣. نشر الإسلام في تلك الأصقاع الوثنية.
٤. قضى على بعض البدع المنتشرة في المنطقة.

ولو تفاهم مع الحكام المسلمين في المنطقة أو تكاتف معهم لتغير التاريخ هنالك لكن أبت علة العلل وهي الاختلاف بين المسلمين إلا أن تهدم أركان هذه الدولة، وتفسح الطريق أمام فرنسا للاستيلاء على كل المنطقة بعد ذلك.

وبقي مصير تلك الدولة الإسلامية منبهاً ومذكراً للمسلمين في كل مكان أن عاقبة الاختلاف وخيمة، وأن

التفرق والحرب بين المسلمين هو الذي مكن الكفار من رقابهم في كل زمان ومكان، وأن عقيدة الولاء والبراء إذا اختلت بتعاون حكام المسلمين مع الكفار من الفرنسيين والوثنيين ضد إخوانهم المسلمين فإن عاقبة ذلك وخيمة جداً، والله المستعان.

قال عنه الفرنسيون:

قال عنه أحد الضباط:

"لقد كان الحاج عمر أكبر ممهد لمن أتوا بعده من الزعماء الإفريقيين الذين قاوموا -على غراره- الاستعمار الفرنسي؛ لأنه كان يمثل الطموح والحماس الصوفيين، وقد استطاع بنفوذه وقوة شخصيته أن يقوي رابطة الوحدة الإفريقية بين أتباعه المنتسبين إلى القبائل المختلفة"[1].

وقال عنه عنه مولارد:

---

(١) "ذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتي تال": ندوة دولية: ص٤١-٤٢.

"لولا الاستعمار الفرنسي لنجح الحاج عمر في إقامة دولة واحدة إسلامية في إفريقيا الغربية"[١].

وقال عنه بوبكر باري:

"إن الحاج عمر هو -بلا شك- أجل من تابع حمل مشعل الحركة الإصلاحية التي لم تفتأ منذ ناصر الدين[٢] في القرن ١٧ تهز الوضع السياسي والاجتماعي والديني في منطقة سنغامبيا"[٣].

"وقد كان الحاج عمر يحلم بتأسس إفريقيا الإسلامية التي تمتد من تشاد إلى السنغال، ومن مرتفعات آداماوا إلى مرتفعات فوت جالون وفوت تور"[٤].

وأختم بنص معبر عن جهاد الشيخ عمر الفوتي وأمثاله في إفريقيا السوداء للفرنسيين؛ فقد قال برنوا موري في مؤلفه "الإسلام والنصرانية في إفريقيا" إن الكولونيل أرشيغارد بأخذه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وهو مصلح موريتاني توفي سنة ١٦٧٧م.

(٣) المصدر السابق: ٥٧.

(٤) المصدر السابق ببلاد التكرور.

جنة وبند جاقرا أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من إفريقيا، ويسّر فتح السودان[١] بين يدي المدينة الأوروبية ... مما خلّد أعظم الشرف للعساكر الفرنسيين، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل في بوايتيه[٢] بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل إفريقيا لولا هذا الظفر"[٣].

---

(١) يقصد بالسودان بلاد السُود من السودان إلى المحيط الأطلس، ويعبر عنها.

(٢) وهي المعركة التي جرت بينه وبين عبدالرحمن الغافقي في الأراضي الفرنسية بالقرب من باريس.

(٣) "ذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتي تال": ندوة دولية: ٢٧.

٦- الداعية الأديب

محمد البشير الإبراهيمي

١٣٠٦ - ١٣٨٥

١٨٨٩ - ١٩٦٥

إنه لمن حق الجزائريين أن يفخروا برجلين: أحدهما قد ذهب بالشهرة وعرفه الناس وهو الشيخ عبدالحميد بن باديس، والآخر قد طُوي في ثنايا الاستتار فلم يعد يعرفه إلا قليل من الناس وهو البشير الإبراهيمي، هذا وقد ابتدآ الجهاد معاً، وضمتهما مسيرة واحدة لكن اللّه تعالى كتب الاشتهار لابن باديس وكتب الأجر لهما معاً، إن شاء اللّه تعالى.

ولد الشيخ محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي سنة ١٨٨٩/١٣٠٦ في سطيف من أعمال قُسَنْطينة، من أسرة من آل بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وينتهي نسبه إلى الأدارسة.

تعهده عمه العالم محمد المكي الإبراهيمي منذ صغره بالدراسة والنَهْل من الكتب الشرعية واللغوية وسائر علوم الآلة، وكان يُعْنى به حتى في أوقات الترويح عن النفس فكان يقول عنه: إنه لمن يكن يُخْليني من التلقين العلمي حتى حين كنت أخرج معه في طريق الفسحة والراحة، ولما مات عمه ناب عنه في التدريس وعمره قرابة أربع عشرة سنة!!

وهذا نبوغ عجيب وسن مبكرة للتصدر، وظل على ذلك حتى بلغ العشرين فرأى أن يشد الرحال إلى مصر لطلب العلم

فمكث فيها ثلاثة أشهر تردد أثناءها على دروس العلماء، والتقى الشاعرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، ثم شد الرحال إلى المدينة النبوية المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام- للقاء والده الذي هاجر إليها سنة ١٩٠٨ فراراً من ظلم الفرنسيين فوصلها سنة ١٩١١ بالقطار، ولقي هناك العلماء، لكن لم يعجبه حال أكثرهم، وقال: "طفت بحلق العلم في الحرم النبوي كثيراً فلم يَرق لي شيء منها، وإنما هي غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء" لكنه سُرَّ بعالمين هما حسين أحمد الهندي، والشيخ عبدالعزيز الوزير التونسي، وفي المدينة المنورة شارك الشيخ في الحياة العامة وعبر عن ذلك بقوله:

"هذا الطور هو الذي تفتح فيه ذهني لأعمال عامة، فشاركت برأيي في الآراء المختلفة بالسياسة العامة بالدولة العثمانية وعلاقة العرب بها، وفي الإصلاح العلمي بالحرم المدني، وباشرت هذا الأخير بنفسي مع ثلة من شبان الطلبة المتنورين، وقد كاد أن ينجح لولا أن فاجأتنا الحرب العالمية الأولى، وثورة الشريف حسين بن علي التي كنت من المقاومين

لها بقلمي ولساني، ثم كانت هي السبب في إجلاء سكان المدينة إلى الشام والأناضول".

لكن نقطة التحول في حياته هي لقاؤه بشيخ الجزائر وكبيرها عبدالحميد بن باديس، الذي كان يزور المدينة النبوية المنورة آنذاك، وكان لقاؤهما للمرة الأولى، فتجاذبا الحديث عن الجزائر وكيفية إخراجها من محنتها وابتلائها بالمستخرب الفرنسي، وقد قال البشير موضحاً ما كان يجري بينهما من حديث:

"كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منـزلي فأسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة، وكانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفضلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك

الليالي من سنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وُضعت فيها الأسس الأولى لجمعية علماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١"، فانظروا رعاكم الله إلى هذه الهمة العالية في السهر على مصالح المسلمين وتفقد شؤونهم والتخطيط لإصلاح أحوالهم، وقد عاد ابن باديس إلى الجزائر قبل عودة البشير بسبع سنوات، فكان له قصب السبق في نشر التعليم الإسلامي والعربي في الجزائر وإعداد النواة التي أسست فيما بعد جمعية علماء المسلمين الجزائريين.

وبقي الإبراهيمي في المدينة النبوية المنورة إلى سنة ١٩١٧، ثم خرج منها قسراً حين أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة عنها وهو ما عرف في التاريخ بـ "سَفَر بَرْلك"، وذلك بسبب اشتداد ثورة الشريف الحسين بن علي زمن الحرب العالمية الأولى، فغادر الإبراهيمي وأسرته المدينة إلى دمشق التي دخلها شتاء سنة ١٩١٧، واختلط بعلمائها وكبرائها فكان كما قال "لا نفترق من اجتماع إلا على موعد لاجتماع" ودرّس تحت قبة النسر الشهيرة في الجامع الأموي الحديث والتفسير، وكان يملي الحديث من حفظه بإسناده ثم يَكُرّ عليه بالشرح،

وجذب الناس إليه بطريقته وسمته، ودرّس في مكتب عنبر وهو أول ثانوية في سوريا، وكان يُنتخب لها أحسن الأساتذة وأبرز العلماء، وقد تأثر به الطلبة، وكان منهم د.جميل صليبا الذي قال: "أعجبنا بسعة علمه، وقوة ذاكرته، واستقامة منهجه؛ لأنه كان يملي علينا قصائد المتنبي والبُحْتري وأبي تمام من حفظه من أول القصيدة إلى آخرها، ويقرب معانيها منا بالتفسير المحكم، والشرح الدقيق، والتعليل الأدبي الجميل، حتى ولّد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها"، وكان يغش الندوات العلمية والمجالس الأدبية، وكان الحاضرون يحبونه لأنه كان متواضعاً، حسن الطويّة، فَكِهاً مع الخاصة، يُسمعهم نوادر الأعراب وقصصهم، وقد قال البشير عن أيامه في دمشق:

"أشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر، وأنني كنت فيها أَقَرَّ عيناً وأسعد حالاً".

وقد تزوج في دمشق في سن التاسعة والعشرين بفتاة تونسية من أصل تركي كانت أسرتها قد خرجت من المدينة

زمن خروج الإبراهيمي وأسرته، وأنجب الشيخ منها ولداً ذكراً لم يلبث أن مات، وقد أنجب في الجزائر بعدما عاد إليها محمداً وأحمد وبنتين، وفي دمشق دفن أباه وابنه وحماه في مقبرة الدحداح، وفي هذا يقول:

"ويا تربة الدحداح بوركت من تربة، لا يذوق الغريب فيها مرارة الغربة، ولازلتِ مسقطاً لرحمات اللّه، إنني أودعت ثراك أعز الناس عليّ: أبي وابني وجَدّي أولادي فاحفظي الودائع إلى يوم تُجَزى الصنائع ..".

ولما عاد البشير إلى الجزائر سنة ١٩٢٠ لقي ابن باديس واتفقا على بدء العمل، وكان ابن باديس مستقراً في أقصى الشرق الجزائري في قسنطينة، والبشير في وهران في الغرب الجزائري، وهكذا اكتنف العالمان الكبيران الجزائر من طرفيها وابتدآ العمل الجاد لتكوين نواة جمعية علماء المسلمين الجزائريين، ثم آثر البشير أن ينتقل إلى تلمسان وهي قريبة من وهران لكن تلمسان أصغر منها وأهدأ، وهناك أخذ الشيخ البشير في تدريس الطلاب والالتقاء بالعامة في زيارات يعقدها يوم الجمعة في قرى وبلدات ذلك الإقليم، ولم تنقطع صلته

بأخيه ابن باديس على بعد المسافة بينهما وصعوبة في وسائل المواصلات آنذاك، وقد قال البشير: "في هذه الفترة -١٩٢٠ إلى ١٩٣٠- كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى كل أسبوعين أو في كل شهر على الأكثر يزورني في بلدي سطيف أو أزوره في قسنطينة فنزن أعمالنا بالقسط ونزن آثارها في الشعب بالعدل ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامج للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نعمل للمفاجئات حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصاً لتأسيساً جمعية العلماء الجزائريين".

ولما أُسست جمعية العلماء الجزائريين نشط ابن باديس والبشير في الدعوة والعمل نشاطاً عظيماً، أما البشير فقد كان يلقي في تلمسان عشرة دروس في اليوم الواحد!! من بعد صلاة الصبح إلى العشاء، ثم ينصرف بعد العشاء إلى بعض المحافل ليلقي محاضرات في التاريخ الإسلامي، وأما أيام العُطلة الدراسية فقد كانت له فيها جولات سياحية في القرى، وهذا النشاط الضخم كان له ما يقاربه عند ابن باديس في قسنطينة والطيب العُقْبي في الجزائر العاصمة، وقد أثمر هذا كله عن

بناء أربعمائة مدرسة إسلامية، وأكثر من مائتي مسجد للصلوات، وهذا لم يكن ليرضي الاستخراب الفرنسي الذي كانت العربية من ألد أعدائه والإسلام من أشد خصومه، فاعتُقل الشيخ البشير ونفي إلى صحراء وهران.

وكان سبب هذا الاعتقال أن فرنسا أرادت من الإبراهيمي في أوائل الحرب العالمية الثانية أن يتحدث من الإذاعة بأحاديث يستميل فيها الشعب الجزائري لفرنسا ليؤيد موقفها في الحرب، فلما رفض الشيخ نفته السلطات الفرنسية إلى قرية آفلو في جنوب وهران، سنة ١٩٤٠.

ثم ما لبث أن توفي الشيخ ابن باديس رحمه الله بعد أسبوع من نفي البشير، واجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته وانتخبت الشيخ البشير رئيساً للجمعية بالإجماع وأُبلغ بهذا الاختيار وهو في منفاه في صحراء وهران فصار يعمل بما يستطيعه وهو على حالته تلك، ويدير الجمعية بالمراسَلة، وكان في انتخابه تحدٍ لفرنسا كبير.

حتى إذا عاد من منفاه أواخر سنة ١٩٤٢ مكث قليلاً في تلمسان ثم ارتحل إلى الجزائر واستقر بها، وأقبل على الوعظ

والإرشاد وإنشاء المدارس، ورئس تحرير جريدة البصائر، وقام على شؤون جمعية العلماء، وأنشأ أول معهد ثانوي كبير في قسنطينة وسماه باسم ابن باديس تخليداً لذكرى رفيقه ووفاء له، وكان في سنته الأولى قد ضم حوالي ألف طالب!!

وفي سنة ١٩٤٥ عقب نهاية الحرب العالمية الثانية نزل كثير من الجزائريين إلى الشوارع فرحين بنهاية الحرب حاملين العلم الوطني ظناً منهم أن فرنسا ستخفف من قيودها عليهم، وكان ذلك في ٨ مايو، فما كان من فرنسا الغادرة إلا أن قتلت منهم آلافاً في أحداث همجية وكان جزاء الجزائريين كجزاء سنمار، وسيق الآلاف إلى السجون وكان منهم البشير الإبراهيمي، الذي مكث يعاني في السجن الصعب عشرة أشهر حتى نجاه الله تعالى في مارس سنة ١٩٤٦.

وفي سنة ١٩٤٨ شارك الإبراهيمي في تأسيس "جمعية إعانة فلسطين" وكان فيها ثلة من العلماء والكبراء، وعملت الجمعية أعمالاً جليلة، وبعثت مائة من المجاهدين إلى فلسطين، وجمعت تسعة ملايين فرنك قديم.

وزار البشير باريس سنة ١٩٣٦ مع وفد المؤتمر الإسلامي لعرض مطالب الجزائريين على حكومة فرنسا، وزارها عدة مرات بعد ذلك منها سنة ١٩٥٢ حين عقدت منظمة الأمم المتحدة اجتماعها في باريس واجتمع بوفود الدول العربية والإسلامية، وأقام على شرفهم حفل عشاء شرح فيه المطالب الجزائرية فأعجبت الوفود بما قاله وعرضوا عليه أن يستضيفوه في بلادهم ليشرح قضية بلاده للشعوب، فلما عادل إلى الجزائر وعرض الأمر على الجمعية رأى أعضاؤها أن يكون الإبراهيمي هو اللسان الناطق بشؤونهم ومطالبهم للشعوب العربية والإسلامية، فطاف الإبراهيمي بكثير من الدول العربية والإسلامية ثم استقر في مصر فاندلعت ثورة سنة ١٣٧٤/١٩٥٤ الجزائرية وهو في أرض الكنانة فجهد في شرح القضية الجزائرية بكتابة المقالات في الصحف، وعقد المؤتمرات، والحديث في إذاعة صوت العرب وجمع التبرعات.

وإقامة البشير في القاهرة في سنوات الثورة الجزائرية كانت لها مزايا ذكرتها آنفاً لكن كان يَعْتَوِرها النقص من جهتين اثنتين: أولاهما أن البشير كان بعيد عن جمعية العلماء

الجزائريين وعن العناية بها العناية اللازمة لدفعها قُدُماً وترسيخ وجودها في الجزائر، ولإيجاد المرجعية لها بين صفوف النخب الجزائرية وعامة الشعب، وخاصة أن الجمعية لم تستطع الاستمرار أمام الهجمة الفرنسية عليها فأغلقت سنة ١٩٥٦ أي بعد استقرار البشير في القاهرة بقرابة ثلاث سنوات، أما الأمر الآخر من النقص الذي دخل على إقامة البشير في القاهرة هو أنه كان رمزاً للعلماء الجزائريين، وكان وجوده إلى جانب زعماء الثورة أدعى إلى الحفاظ على إسلاميتها وإبعادها عن التيارات الماركسية والاشتراكية التي سقطت فيها الثورة في أوَجها من بعض قادتها، والتي سقطت فيها البلد بعد نجاح الثورة على يد ابن بلا وبومدين من بعده، فغياب الإبراهيمي عن مجريات الثورة لمدة ثمان سنوات أدى إلى قطيعة بين العلماء وأكثر رموز الثورة، وسمح للمذاهب الضالة بغزو الثورة من جوانب كثيرة، هذا هو رأيي الشخصي الذي أراه، وليس مثل الخسارة التي أودت بالثورة خسارة، وكان يمكن للجزائر لو ظلت وفية لمبادئ ابن باديس والإبراهيمي وأضرابهما، ولو بقيت الثورة على نصاعة التخطط لها وجلال جذورها الإسلامية لتغير

وجه الجزائر وربما تغير التاريخ في البلاد العربية لكن هكذا قدر.

وقد كان البشير ذا مواهب متعددة، فمن ذلك أنه شاعر، ومن أعظم ما قرضه ملحمته الضخمة التي قال عنها:

"ولكن أعظم ما دونت ملحمة رَجَزية نظمتها في السنين التي كنت فيها مبعداً في الصحراء الوهرانية، وهي تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت!! من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه، وقد تضمنت من فنون المواضيع: تاريخ الإسلام، ووصفاً لكثير من الفرق التي حدثت في عصرنا هذا، وللمجتمع الجزائري بجميع فِرَقه ونِحَله، ولأفانين من الهزل للمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية المستجدة، والإنحاء على الابتداع في الدين، وتصويراً لأولياء الشيطان، ومحاورات أدبية رائعة بينهم وبين الشيطان، ووصفاً للاستعمار ومكائده ودسائسه وحِيَله وتحذيراته للشعوب للقضاء على مقوماتها" وهذا دال على مبلغ علمه - رحمه الله تعالى- ولا أدري أين ذهبت تلك الملحمة.

وللشيخ كتب عديدة منها قصة كاهنة الأوراس، وحكمة مشروعية الزكاة في الإسلام، وشعب الإيمان،

ومخارج الحروف، وفتاوى، والإطراد والشذوذ في العربية، وكتاب "عيون البصائر" الذي يضم المقالات التي كان يفتتح بها مجلة البصائر التي يرأس تحريرها، لكن للأسف كل تلك الكتب لا يُدرى أين هي الآن، وما بقي منها هو مجموعة مقالاته في أربعة أجزاء.

من أقواله الجليلة ما يصف به الاستخراب الفرنسي قائلاً:

"جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، فوجد هذه المقومات راسخة الأصول، فاهية الفروع على نسبة من زمنها، فتعهد في الظاهر باحترامها والمحافظة عليها، وقطع قادته وأئمته العهود على أنفسهم وعلى دولتهم ليكونن الحامين للموجود المشهود من عقائد ومعابد وعوائد ولكنهم عملوا في الباطن على محوها بالتدريس ... والاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب

الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية ...".

وقال عن بعض الصوفية المنحرفين في الجزائر:

"وما ضَرّ هؤلاء الأشياخ وقد دانت لهم الأمة، وألقت إليهم بد الطاعة، ومكنتهم من أغراضها وأموالها أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثوها أولاداً لهم فاسقين، يبددونها في الخمور والفجور، والسيارات والملابس والقصور؟

ما ضرهم أن تهزل الأمة إذا سمنوا؟

ما ضرهم إذا فسدت أخلاقها ما دام خُلُق البذل والطاعة صحيحاً؟

ما ضرهم أن تفترق كلمة الأمة ما دامت مجمعة على تعظيمهم واحترامهم، ومغضية عن شرورهم وإجرامهم؟"

وقال عن فرنسا واستخرابها:

"إن الإستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو - منذ احتل الجزائر- عامل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة

العربية لأنها لسان الإسلام، على محو العروبة لأنها دعامة الإسلام...".

وقال عن العيد:

"الحقيقة هي أنني كلما أظلني عيد من أعيادنا الدينية أو القومية أظلتني معه سحابة من الحزن لحال قومي وما هم عليه من التخاذل والانحلال، والبعد عن الصالحات والقرب من الموبقات ... وكيف استخفهم علماؤهم وزعماؤهم وكبراؤهم وملوكهم فأطاعوهم، أفكر في قومي العرب فأجدهم يتخبطون في داجية لا صباح لها ... وأفكر في علة هذا البلاء النازل بهم، وفي هذا التفرق المبيد لهم فأجدها آتية من كبرائهم وملوكهم من المعوقين منهم ... وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشوراً بلا لباب وألفاظاً بلا معان، ثم عمدوا إلى روحه فازهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلى هدايته الخاصة فموهوها بالتضيليل، وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والنِحَل والشِيَع، وقد نسو حاضرهم افتتاناً بماضيهم، ولم يحفلوا بمستقبلهم لأنه - زعموا- غيب، والغيب لله، وصدق

الله وكذبوا، فما كانت أعمال محمد وأصحابه إلا للمستقبل".

مناصبه:

عُرضت عليه مشيخة الجامع الأزهر لما كان في القاهرة لكنه رفضها لما يعلم من عوائق الوظيفة لعلمه الذي نذر نفسه له.

وعين عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ودمشق.

هذا مع ما كان عليه من رئاسة لجمعية العلماء الجزائريين التي عطلها المستخرب الفرنسي سنة ١٣٧٦/١٩٥٦ إبان الثورة.

وعرضت عليه فرنسا أن توليه منصب شيخ الإسلام في الجزائر استمالة له فرفض بإباء وشمم.

من أقوال الكبراء فيه:

قال عنه تلميذه د.جميل صليبا:

"ولعلنا لم نحب هذه اللغة العربية إلا بتأثير حبنا للشيخ أولاً، فقد أحببناه حباً عميقاً وانتقل هذا الحب منه إلى مادته، ولا غَرْوا فقد كان - رحمه الله- من أعظم الناس في

أعيننا، وكان الذي حببه إلى نفوسنا تواضعه ولطفه، ووقاره، وشجاعته، وعفته، وشعوره بكرامته، وحرصه على القيام بواجباته...".

قال عنه بعض معاصريه:

"وإليه انتهت رئاسة العربية في الجزائر".

وقال عنه العالم محمد بهجة البيطار:

"دائرة معارف جمعت من كل شيء بطرف".

وقال عنه رفيقه ابن باديس:

"عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ الإبراهيمي أن يضل في دين، أو يَخْزَى في دنيا، أو يذل لاستعمار".

من أعماله الدالة على نبوغه:

إضافة لما سبق كان هناك في حياة الشيخ الإبراهيمي أحداث تدل على نبوغه منها أن جمعية العلماء الجزائريين لما أسست كُلف الإبراهيمي في أول جلسة لها أن يضع لائحة لها فكتبها في سبع وأربعين ومائة مادة نوقشت في ثمان جلسات خلال أربعة أيام، ثم صودق على اللائحة بالإجماع دون زيادة أو

نقصان!! مما دعا الشيخ ابن باديس أن يقول له: وَرِي بك زناد هذه الجمعية.

وفاته:

عاد البشير الإبراهيمي إلى الجزائر سنة ١٩٦٢/١٣٨٢ عقب نجاح الثورة، وأَمّ الناس في جامع كتشاوة الذي حوله الفرنسيون إلى كاتدرائية لما دخلوا سنة ١٨٣٠، فأعيد إلى الإسلام والمسلمين، وفرح الناس برجوعه، لكن رياح الجزائر كانت شرقية آنذاك وتمركست الجزائر - من الماركسية- فلم تكن لترحب بمثل البشير الإبراهيمي الذي لزم بيته في إقامة جبرية إلى أن لقي وجه الله تعالى سنة ١٩٦٥/١٣٨٥ مقهوراً محصوراً وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٧- المفسر العامل

أبو الثناء الآلوسي

١٢١٧ – ١٢٧٠

١٨٠٣ – ١٨٥٤

قد كانت الدول العربية والإسلامية منذ القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي تغط في سُبات عميق، وما زالت كذلك حتى قام رجال عظماء حركوا الراكد من أمرها، وأيقظوا النائم من أهلها، وبعثوا فيها نهضة سياسية وعلمية وثقافية هائلة، وكان لهم - بعد الله تعالى- الفضل الأكبر في التوطئة لهذه الصحوة المباركة التي تعيشها البلاد العربية والإسلامية منذ ثلث قرن تقريباً، وكان من هؤلاء العظماء شهاب الدين أبو الثناء الآلوسي العراقي، وآلوس - وتقصر همزتها وتمد- قرية على أعالي الفرات، في محافظة الأنبار، غرب العراق.

ولد رحمه الله تعالى سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م في الكَرْخ -محلة ببغداد- من أسرة حسينية النسب، وأبوه صالح عالم يسمى بهاء الدين عبدالله، وقد توفي بالطاعون سنة ١٢٤٦هـ، وخلف ثلاثة أبناء منهم أبو الثناء محمود الذي نشأ على ما ينشأ عليه طلاب العلم في زمانه، فقرأ القرآن، وحفظ الآجرومية في النحو، وألفيه ابن مالك، وحفظ منظومة الرحبية في علم

الفرائض، وقرأ على أبيه الفقه، وأتم كل ذلك وهو دون العاشرة !!

ثم أخذ على جملة من علماء بلده ومنهم الشيخ علاء الدين الموصلي فقد لازمه أربعة عشر عاماً، حتى أجازه في التدريس، درّس بعد ذلك في أماكن عديدة، وخطب ووعظ، وولي أوقاف مدرسة مرجان وهي رتبة مشروطة لأعلم أهل البلد، ونُصب مفتياً للحنفية، وتلك المناصب والوظائف جلبت له حسد الحاسدين، ووشاية الواشين، وقد نال (نيشان) السلطان لما أجاب على أسئلة صعبة وردت من إيران، وشرع يؤلف تفسيره الكبير "روح المعاني" وهو مطبوع اليوم ومتداول، ثم أثمر الكيد والحسد عن عزله عن منصب الإفتاء، ورُفعت يده عن الأوقاف، وتغير حاله وافتقر فلم يجد بداً من الذهاب إلى إسطنبول لعرض أمره على السلطنة هنالك، وكان قد أتم التفسير فأخذه معه وسيلة إلى ما هنالك، فالتقى في اسطنبول شيخ الإسلام عارف حكمت صاحب المكتبة المشهورة في المدينة النبوية المنورة، فأعرض عنه شيخ الإسلام لما سبق من وشاية الواشين وحسد الحاسدين ثم صلح ما بينهما، ثم عرض

أمره على الصدر الأعظم "رئيس الوزراء" مصطفى رشيد باشا فتوصل إلى أن يُنعم عليه السلطان عبدالمجيد بخمسة وعشرين ألف قرش اسطنبولي وله مثلها كل عام، وأعطاه شيخ الإسلام خمسين ألف قرش، وعاد إلى وطنه بعد أن غاب عنه قرابة سنتين، وكتب رحلت هذه في كتاب "غرائب الاغتراب"، وفي كتابين آخرين سجل فيهما رحلة الذهاب والإياب.

كتبه :

كان له كتب كثيرة جليلة منها :

"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، وهو كتاب ضخم كبير، سار فيه على طريقة القدماء، لكن مزج تفسيره بإشارات الصوفية وببعض الأحاديث الضعيفة، وبعض الإسرائيليات لكن تفسيره هذا في الجملة مقبول وقد أورد فيه كثيراً من النقولات، ورجح بعضها على بعض، وكان في مدة اشتغاله بهذا التفسير عالي الهمة جداً ، فقد ذكر طلابه أنه كان يسهر الليل يقرأ ويكتب ، فإذا أشرقت الشمس دفع إلى طلابه ما كتبه في الليل ليبيضوه في النهار ، وهكذا إلى أن فرغ منه ، ولا بد لأبي الثناء من هذه الهمة ليفرغ

من تفسيره الكبير الذي تفنى الأعمار قبل تمامه، هذا على ما هو فيه من الانشغال بالمناصب والتدريس، لذلك كله بقي في تأليف الكتاب خمسة عشر عاماً.

وقد طبعه ابنه خير الدين نعمان في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٣٠١.

وله كتاب "الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية" وفيه إجابة عن ثلاثين مسألة وردت من إيران في التفسير واللغة والفقه والعقائد والمنطق وعلم الفلك وغير ذلك.

وله كتاب "الأجوبة العراقية من الأسئلة اللاأهورية" ذب فيه عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، وكافأه السلطان عليه بمكافأة عظيمة، وطبع في بغداد سنة ١٣٠١.

وله كتاب "غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب" وقد ذكر في الكتاب ما جرى عليه لما ذهب إلى اسطنبول، وقد طبع في بغداد سنة ١٣١٧، وله كتابان آخران ألفهما عن رحلته وهما مطبوعان.

وله كتاب "سُفرة الزاد لسَفرة الجهاد" دعا فيه المسلمين إلى اليقظة في كل الجوانب وأعلن أن الجهاد فريضة لا بد منها أمام هجمات أعداء الإسلام التي تتابعت على العالم الإسلامي آنذاك.

وله كتب كثيرة غير هذه ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، وجملتها اثنان وعشرون كتاباً.

ريادته:

كان أبو الثناء الآلوسي رائداً في بلاده العراق وأحد أعمدته، فقد كان مفسراً لا مثيل له في عصره، ومؤرخاً، وفقيهاً، وقد نُصب مفتياً للحنفية وهو في الثلاثين من عمره، وهذا دليل نبوغ وريادة، وبقي في منصب الإفتاء خمسة عشر عاماً ثم عزل، على أنه لم يكن حنفياً فأسرته شافعية لكن منصب المفتي إنما هو للأحناف فقط على ما جرت عليه العادة في الدولة العثمانية، فأقبل أبو الثناء على دراسة المذهب الحنفي حتى أتقنه وبرع فيه.

وكان أبو الثناء على مذهب السلف في سقط: العقيدة، وكان كثيراً ما يردد : "يا بني: عليكم في باب العقائد بعقيدة

السلف فإنها أسلم، بل من أنصف يعلم أنها أيضاً أعلم وأحكم، لأنها أبعد عن القول على الله بما لا يعلم".

وقد كان أبو الثناء مناصراً لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، مثنياً عليها.

وقد ذكر في تفسيره آراء لشيخ الإسلام ابن تيمية، وقد كان هذا في ذلك الوقت أمراً عظيماً محتاجاً إلى شجاعة وقوة.

ولم يكن أبو الثناء منقطعاً عن الناس بل كان واسطة عقدهم، وإليه - بعد الله تعالى- مفزعهم، وهو مهوى أفئدتهم، فلذلك أقبلوا عليه إقبالاً عظيماً، وتعلقوا به، وصار له تلامذة كبار، وصح فيه قول المؤرخ العراقي عباس العزّاوي: إن العصر الحديث في العراق يجب أن يسمى عصر الآلوسي.

ها وقد قال الأستاذ العزاوي -أيضاً- في الآلوسي قولاً يلخص ما كان عليه من صلة بالناس:

"إن علماءنا ساروا على الجادة العلمية من تدريس كتب بعينها وما فيها من تعقيد وسقامة، ولم يخرجوا عنها فدام جمودهم، كما أنهم قبعوا في مدراسهم وتركوا تهذيب الأمة وأهملوا العلاقة بها فدخلت عقائد زائفة وانتشرت في الخفاء،

ثم ظهرت الدعوة لها وأدت إلى خطر، وشُغْل المدرسين الشاغل التدريس دون التفات إلى تهذيب الشعب، ومن هنا نجمت الأخطار، والأستاذ بوعظه أعاد الاتصال بالشعب فأحبه".

وكان لأبي الثناء رأي في ولاة عصره وطرائق إدارتهم، وقد ذمهم في مواضع عديدة لأسباب مختلفة ، وطعن في طريقة اختيار مجلس الشورى ورأى من الولاة بسبب ذلك وغيره ما ساءه من عزل له عن المناصب، وسُجن مراراً، وخُوف وكاد يقتل لكن الله تعالى نجاه، واتهمه بعض الولاة بإثارة الفتن والقلاقل، وتحريض الشعب على المظاهرات، واتهمه ولاة آخرون بالخروج على الدولة العثمانية، وهكذا انتقل من تهمة لأخرى ، ووجهت إليه السهام من كل جانب، فاضطر للسفر إلى اسطنبول لكنه لم يعد منها بما هو مأمول، فلبث في بيته بضع سنين إلى أن وافاه الأجل المحتوم.

صفاته:

كان أبو الثناء صاحب همة عالية أنبأت عنها كثرة تصانيفه على أن عمره قصير نسبياً، وكان له صبر عجيب على شدائد الحياة، فحين نزع من الإفتاء والأوقاف اشتد عليه الفقر

حتى قال عن نفسه : (إني بعت ثياب الشتاء لشراء قرطاس، وطالعت على نور القمر حيث أَعْوَزَني بنراس -أي مصباح- وكم قاسيت من شدائد تذيب الجلاميد -أي الصخور الصلاب- وعضه الفقر حتى باع كتبه وأثاثه وحاجاته لينفق على أهله حتى لم يبق في بيته شيء يباع، وبقي على ذلك ثلاث سنوات حتى كاد يأكل الحصير على مداد التفسير، كما قال.

ومن همته ارتحاله إلى أماكن عديدة -على صعوبة في الانتقال آنذاك- فقد ارتحل إلى الحجاز والشام واسطنبول ومصر.

توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٧٠ ولم يجز الخمسين إلا بقليل، لكنه ترك ثروتين مهمتين، ثروة الكتب وعلى رأسها التفسير، وثروة من التلاميذ ، فالنهضة العراقية الحديثة مدينة له ، وتلاميذه -تقريباً- هم الذين تولوا من بعده قيادة المجتمع العراقي علمياً وأدبياً وتاريخاً ، فرحمه الله رحمة واسعة.

٨- المجدد السلفي

محمود شكري الآلوسي

١٢٧٣ – ١٣٤٢

١٨٥٦ – ١٩٢٤

الآلوسيون أسرة عظيمة القدر، جليلة الفضل، وعمدتها رجلان: شهاب الدين أبو الثناء الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠، وقد مرت ترجمته، وحفيده أبو المعالي محمود شكري الألوسي وهو الذي أترجم له في هذه الصفحات، واسمه مركب هكذا: محمود شكري، وقد سماه أبوه باسم جده أبي الثناء الآلوسي المشهور رجاءَ أن يكون الحفيد مثل الجد، وأسرته حسينية النسب، كثيرة العلماء، وبلدته ألوس بلدة صغيرة على أعالي الفرات في محافظة الأنبار غرب العراق.

ولد في بغداد، ونشأ كما ينشأ غيره من طلاب العلم في ذلك الزمان لكنه فاق الأقران بقوة حفظه وجودة فهمه وحسن خلقه، فقد حفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، وحفظ كتباً ومنظومات، وقرأ على مشايخ كثيرين، منهم والده بهاء الدين عبدالله، فلما مات والده كفله عمه خير الدين نعمان الآلوسي فكان له مكان أبيه، ثم لما اشتد عوده، وعظمت علومه أخذ في التدريس في عدة أماكن، ثم صار رئيس المدرسين في مدرسة مرجان وذلك قبل موته بثلاث سنين سنة ١٣٤٠،

وكانت أشهر مدرسة في بغداد، والتدريس فيها يوكل لأعلم أهل البلد.

وقد كانت المدارس الحديثة في بغداد تُدرس بالتركية في الغالب سواء كانت مدارس مدنيّة أو عسكرية، وكان الناس يقبلون عليها لأنها سلم للوظائف، أما مدارس الثقافة العربية فقد كانت على قسمين: قسم يطغى عليه الجمود والتقليد، وقسم آخر نشط في الدعوة إلى الاجتهاد والخلوص من البدع، والعناية باللغة والأدب، وإلى هذا القسم الأخير انتسب الألوسي رحمه الله تعالى في طوره الآخر، فقد نشأ في الطور الأول على ما كان عليه الناس في زمانه من التعلق بالتصوف الغالي، وما يتبع ذلك من تعلق بالضرائح والمشاهد، ومن خالف ذلك أو أنكره يُدعى بالوهابي ويؤذى.

وقد نشأ الألوسي على حب التصوف والتقليد تبعاً لوالده وأكثر مشايخ عصره، لكن عمه العلامة نعمان كفله، وكان سلفياً، فغرس في نفسه حب البحث وكراهية البدع، لكن الفتى محموداً كان متمسكاً بما كان عليه أبوه، فبحث عن مشايخ آخرين غير عمه.

فلما بلغ الثلاثين من عمره اطلع على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في خزانة كتب عمه وأستاذه خير الدين نعمان، فتأثر بما قرأ ، ورأى أن يترك التقليد وطريقة الصوفية لكنه لم يجهر بذلك خوفاً من الأذى الذي كان سيلحقه.

لكنه بعد اشتداد عوده ، واجتماع أنصاره عليه ، جهر بما كان يراه حقاً وبدأ يدعو إلى ما اقتنع به فبعد قرابة ثلاثة سنوات من المداراة جهر بما يراه حقاً في كتابه "فتح المنان" الذي فرغ منه أواخر سنة ١٣٠٦ وطبع بالهند سنة ١٣٠٩.

لكن العلماء عادوه ونبزوه بلقب (الوهّابي) ، وحرضوا عليه الوالي عبدالوهاب باشا والي بغداد فكتب إلى السلطان عبدالحميد يشكوه ويدعي أنه خارج على السلطان وأنه وهابي إلى آخر تلك الشكاوى المعروفة التي كانت ترفع ضد رجال الإصلاح فأمر السلطان بنفيه هو وابن عمه ثابت بن خير الدين نعمان الآلوسي والتاجر حمد العساف النجدي ، فلما مروا بالموصل مخفورين ضج وجهاء الموصل ورفضوا أن يبارح الركب مدينتهم ، وأرسلوا إلى السلطان عبدالحميد ما يقنعه ببراءة

الثلاثة، فوافق أن يعيدهم إلى بغداد بعد أن مكثوا شهرين في الموصل، وكان ذلك سنة ١٣٢٣هـ / ١٨٩٥م.

ثم أقبل الإنكليز إلى العراق محتلين ، ودخلوا البصرة ، حينذاك أرسلت الدولة العثمانية وفداً إلى الملك عبدالعزيز يستنجده ، وكان فيه أبو المعالي محمود – المترجم له ها هنا – وثلاثة آخرون ، فخفوا سراعاً إلى نجد سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٥ لكن الملك -الذي أحسن مقابلته ووفادته- اعتذر عن عدم استطاعته النصرة وأنه يرى أن العثمانيين ضعاف والإنجليز أقوياء، وأنه إن أعلن الحرب على الانجليز فلن يستفيد العثمانيون وفي الوقت نفسه سيتضرر هو، فاقتنع الألوسي بوجهة نظر الملك.

واجتمع الألوسيّ بعلماء نجد واطلع على بعض خزائن الكتب، ثم خرج من نجد إلى الشام ثم بغداد.

كانت الأحوال السياسية في عهده مضطربة غاية الاضطراب، والدولة العثمانية قد ضعفت إلى الحد الذي صار سقوطها متوقعاً بين الفَيْنة والأخرى، وفعلاً قد سقطت في سنة موت الألوسي رحمه الله تعالى، هذا وقد عاصر سبعة

سلاطين، وتولى على العراق ثلاثون والياً في الستين سنة التي عاشها الألوسي تحت حكم الدولة العثمانية!! فقد كان العثمانيون يكثرون من تغيير الولاة حتى لا يطمعوا في الاستقلال بما تحت أيديهم، وقد قال جمال الدين الألوسي عن هؤلاء الولاء واصفاً حالهم:

"فالولاة الذين كانوا يُرسلون إلى العراق يغلب على أكثرهم الجهل، ولا غاية لهم إلا التسلط وجباية الأموال وإرضاء الرؤساء والأعيان، وأكثرهم لا يقرأون ولا يكتبون، فكانوا بحكم تخلفهم الثقافي أن يتخلف العراق ثقافياً وفكرياً وأدبياً، بل كان عصرهم نكبة على العلم وأهله".

سقطت بغداد سنة ١٣٣٥/ ١٩١٧ بيد الإنجليز الذين عرضوا عليه بواسطة المعتمد البريطاني السير بيرسي كوكس قضاء بغداد فأبى بعد الإلحاح ، ثم عرض عليه الإفتاء فرفضه أيضاً، لكنه قبل عضوية مجلس المعارف وعضوية المجمع العلمي العربي بدمشق لما فيها من خدمة العلم.

وكان يتحسر على زوال الدولة العثمانية وتفرق شمل المسلمين، وكان يكره الانجليز.

ولما قبل أخوه الأكبر منصب وزارة العدل في عهد الانتداب قاطعه، حتى أنه مات وهو مقاطع له غضباً عليه.

همته:

كان أبو المعالي صاحب همة عالية تظهر في جوانب حياته كلها ، ففي صغره انقطع إلى الحفظ والقراءة على المشايخ ، ثم كان صاحب همة في التدريس فقد كان يدرس عامة نهاره في مدرستين، ويحضر الدرس ولو في يوم مطير، وقد ذكر أحد طلابه أنه انقطع عن الدرس في يوم شديد الريح، غزير المطر، كثير الوحل ظنا منه أن الشيخ لن يأتي، فلما حضر في اليوم التالي أنشده الشيخ شطر بيت: ولا خير فيمن عاقه الحر والبرد !!

وتظهر همته في القراءة، فقد قرأ لسان العرب -وهو عشرون مجلداً- قرأه ثلاث مرات، وحدّث عن نفسه أنه كان ببغداد ثماني خزائن كتب في مساجدها حافلة بنوادر المخطوطات، فقرأ كثيراً منها، ونسخ الكثير، ثم تجاوز ذلك إلى خزائن كتب دمشق والقاهرة والمدينة النبوية المنورة ونجد واسطنبول، فانظروا إلى هذه الهمة في القراءة، واليوم نرجو من

الشباب الأقوياء أن يقرأوا كتيبات معدودات وهم عن ذلك نافرون!!

وكان له راتب ضئيل فكان ينفق منه كثيراً من أجل أن يُكتب له الكتب من الخزائن على أيدي الناسخين.

وهو صاحب همة في الكتابة أيضاً، فقد كتب رداً على الشيخ يوسف النهاني في سبعين كراساً في شهر واحد وهو شهر رمضان.

ومن الدلائل على همته أنه كان يقضي النهار كله -إلا قليلاً- في التدريس، وكان يدرس بطريقة حاصلها الوصول إلى لب العلوم وثمرتها، ويخالف علماء بلاده في طرائق تدريسهم التقليدية التي تعتمد على الحفظ والترديد للأقوال.

ريادته ومؤلفاته:

كان للأستاذ قصب السبق في العراق في العصر الحديث بالمناداة بتطهير المجتمع من البدع، وكف العامة عن العكوف على القبور وسؤال المقبور، والدعاء إلى التوحيد الخالص، والرد على دعاة البدع والشطح وقد ناصر شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ونشر كتبهما ودافع عنهما طويلاً، وقد ألف

في نصرة العقيدة السلفية ومحاربة المبتدعة عدة كتب، منها: "غاية الأماني في الرد على النبهاني" وهو كتاب كبير من مجلدين أثنى عليه الأستاذ رشيد رضا ثناء بالغاً، وألف في هذا الباب أيضاً "فصل الخطاب" في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبدالوهاب، وله غير ذلك، وقد قال تلميذه الأستاذ محمد بهجة الأثري في ذلك:

"جاهد السيد البدع والوثنيات، ودعا إلى التوحيد الذي هو أول ما كانت تدعو إليه الرسل، وبين ضرر تقليد الآباء والسير على آثارهم الغامضة، غير مدخر في جهاده ودعوته وسعاً حتى كبح جماح الوثنيين، وخفف من غُلَواء -أي شدة- القبوريين أو كاد، فكان له من التأثير المحمود في قمع الضلال مالا سبيل لأحد إلى إنكاره، وهذه آثار جهاده بين الأيدي".

أما الشيعة فقد ألف في نقض عقائدهم عدة كتب منها: "صب العذاب على من سب الأصحاب"، "والسيوف المشرقة مختصر الصواق المحرقة"، و"المنحة الإلهية تخليص ترجمة

التحفة الاثني عشرية"، وقد أهدى كتابه الأخير هذا إلى السلطان عبدالحميد رحمهما الله تعالى.

وله في اللغة العربية والآداب كتب كثيرة.

وكان له قوة وجلد على التأليف حتى أنه ألف كتابه "غاية الأماني في الرد على النبهاني" في أربعين يوماً فقط، وهو كتاب ضخم، وقد قال في ذلك الأستاذ محمد بهجة الأثري: "وقد أجال قلمه في نواحٍ شتى من المعرفة، وألف في علوم وفنون مختلفة ... وقد أدرك أهل عصره قوته العجيبة فيه" أي في التأليف.

وقد بلغت عدة كتبه قرابة ستين كتاباً ورسالة، منها ما يبلغ مجلدين وثلاثة.

وقد آلت مكتبته إلى مكتبة المتحف العراقي: مؤسسة الآثار العامة ببغداد، ضمن مخطوطات الخزانة الألوسية التي اقتنتها مؤسسة الآثار من أسرة السيد عبدالرزاق محمد ثابت الألوسي.

قصة كتابه "بلوغ الأَرَب":

أما مؤلفاته التاريخية فأشهرها "بلوغ الأرب في أحوال العرب" في ثلاثة مجلدات ولهذا الكتاب قصة لطيفة، فقد أرادت لجنة اللغات الشرقية -المنعقدة في استوكهولم بدعوة من أوسكار الثاني ملك السويد والنرويج- تأليف كتاب يستوفي أحوال العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وذكر قبائلهم وعوايدهم ومشاهير رجالهم، ثم كيف استطاعوا فتح الممالك، ونشر الإسلام، مع التعريج على عرب اليوم في بواديهم، على أن يكون الكتاب قائماً على أصول البحث العلمي مستوفياً لها، وطلبت من العلماء العارفين بأحوال العرب أن يؤلفوا هذا الكتاب، ثم تعقد مسابقة لاختيار أفضل الكتب وأحسنها، فسارع الآلوسي فيمن سارع لقبول الطلب وكتابة البحث، فلما انتهت المدة، وجُمعت البحوث من مصر والشام والعراق وأوربا ونظرت فيها اللجنة اختارت كتاب "بلوغ الأرب في أحوال العرب" للآلوسي لما رأته أجمع المؤلفات التي وردت إليها مادة، وأغزها فائدة، وأقربها مراعاة لشروطها ، ففاز الكتاب بالجائزة والوسام الذهبي، وبعث إليه الكونت كرلودي

لندبرج قنصل السويد والنرويج في مصر برسالتين أثنى عليه فيهما ووعده بطبع كتابه تخليداً له، وكان ذلك سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٢م.

وله كتاب "المسك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر" وهو مطبوع متداول.

وله كتاب تاريخ نجد، وتاريخ بغداد وغير ذلك من الكتب والمؤلفات التي زادت على الخمسين.

وللأستاذ الألوسي مقالات نشرت في مجلات عصره كالمقتبس والمنار، ومجلة المجمع العلمي العربي، وغيرها، وفتاوى كثيرة، لكنها لم تجمع إلى الآن فيما أعلم.

أخلاقه:

كان -رحمه الله تعالى- مستجمعاً للفضائل، صريحاً لا يعرف المحاباة، يقول للمصيب أصبت وللمخطئ أخطأت، وللصادق صدقت وللكاذب كذبت، وكان كثير الحياء، يميل إلى الفقراء، متواضعاً، بعيداً عن التأنُّق في الملبس والمطعم، شديد الانفعال والتأثر، سريع الغضب سريع الرضى، جريئاً، نشيطاً، ميالاً إلى الجد، جَلْداً على البحث والمطالعة

والتنقيب والنسخ، صاحب همة عالية، لم يتزوج، فكان خفيفاً، قليل التعلق بالدنيا، وقد استجمع بهذا جملة من الفضائل المساعدة على الإمامة والريادة.

وكان يستحم بالماء البارد صبيحة كل يوم حتى في شدة البرد!! وهذا دال على قوة عزيمته وشدة تحمله -رحمه الله تعالى- فبغداد في الشتاء باردة.

مناصبه:

كان في الشيخ حب للعزلة وميل للانفراد عن الناس، لذلك لم يجب أكثر المطالب لتوليه المناصب، إلا أنه في الحرب العالمية الأولى طلب منه الوالي جمال باشا أن يكون عضواً في مجلس الإدارة في بغداد وشرح له حاجة الدولة العثمانية إلى المعاضدة والمناصرة فأجاب إلى هذا وسار بالناس سيرة حسنة.

وكان قائماً على القسم العربي من جريدة الزوراء التركية، وهي أول جريدة أنشئت في بغداد، أنشأها مدحت باشا سنة ١٢٨٦هـ، وبقيت إلى دخول الإنكليز سنة ١٣٣٥/٩١٧، فكتب فيها مقالات علمية وأدبية، وعرض بعض الأسئلة على علماء بغداد.

وبقي إماماً وخطيباً في جامع الأعظمية مدة أربعين سنة، وكانت له مجالس في مساجد بغداد للوعظ والإرشاد.

وكان صاحب خط جميل، وهو معدود من أئمة الخطاطين العرب في العراق، وله تلاميذ تخرجوا على يديه في الخط، وقد أخذ إجازة في الخط من والده، وله آثار بخطه كثيرة لا زالت في المكتبة القادرية لم تنشر بعد.

تلاميذه:

كان لمنهجه وطريقة تدريسه أثر كبير في عدد من طلابه، ونبغ منهم جماعة، منهم العلامة محمد بهجة الأثري، والشاعر معروف الرصافي -إلا أنه انحرف بعد ذلك- وعبدالعزيز الرشيد من أهل الكويت، وعباس العزاوي مؤرخ العراق، ومحمد بن مانع النجدي، والأب إنستاسي الكرملي النصراني العراقي، العضو في المجمع العلمي الدمشقي، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجمع الشرقيات الألماني.

وقد أخذ عنه بعض المستشرقين مثل مرجليوث، وهو خبيث ذو خبيئة سيئة.

وفاته:

توفي -رحمه الله تعالى- سنة ١٣٤٢/١٩٢٣ بعد أن عانى طويلاً من مرض انسداد المثانة، ودفن في بغداد في مقبرة الجنيد البغدادي، وصلى عليه عشرات الآلاف من الناس، وصلى عليه أهل نجد صلاة الغائب بأمر الملك عبدالعزيز، ورثته الملوك والأمراء والعلماء من شتى أقطار العالم الإسلامي.

من أقوال العلماء فيه:

قال فيه العلامة رشيد رضا:

"ناصر السنة، وقامع البدعة، علامة المنقول، ودَرّاكة المعقول، دائرة المعارف الإسلامية، نبراس الأمة العربية ... ولم نسمع للعلوم العربية والدينية على مذهب أهل السنة صوتاً إلا من هذا الرجل لهذا لقبناه في مكتوباتنا له بعالم العراق".

وقال فيه الأستاذ الكبير أحمد تيمور باشا:

قضى الله -ولا راد لقضائه- أن يُفجع العلم بإمامه ونبراسه، وأن يحُرم المستفيدون من سندهم في حل معضلاته، ويعلم الله ما كان لهذه المصيبة من الوقع في نفسي، ولكن ما

الحيلة وقد نفذ القضاء وطُوي الكتاب ، وإنا للّه وإنا إليه راجعون".

وقال فيه تلميذه محمد بهجة الأثري رحمهما الله تعالى:

"وصفوة القول أنه كان من أعاظم رجال النهضة العلمية في العالمين الإسلامي والعربي، لا ينازع في ذلك منازع، وآثاره أعدل شاهد على ما نقول:

تلك آثاره تدل عليه فانظروا بعده إلى الآثار

٩- الإمام المجاهد الصومالي

محمد بن عبدالله حسن

١٢٧٣ – ١٣٣٩

١٨٥٦ –١٩٢٠

إن الأخبار التاريخية التي وردتنا عن منطقة القرن الأفريقي عامة والصومال خاصة لهي أخبار قليلة لا تتناسب مع أهمية المنطقة وإشرافها على جزيرة العرب من جهة والدول الإفريقية المهمة من جهة أخرى، وربما كان لقلة المؤرخين في تلك المنطقة أثر في ذلك، ولعل مستقبل الأيام تخرج لنا بعض المخطوطات المهمة التي تتحدث عن تاريخ المنطقة باستفاضة.

والشخصية التي أتحدث عنها في هذه الحلقة هي شخصية مجاهد جليل، وقف أمام أطماع الصليبيين في الصومال التي هي -في تقديري- أهم بلاد القرن الإفريقي لموقعها الفريد ولاتساع مساحتها، وبرز منها مجاهدون عظماء منهم الإمام أحمد بن إبراهيم الذي وقف ضد أطماع البرتغاليين والأحباش بقيادة الملكة هيلانة، وكان ذلك في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولولا أن شرطي في هذه السلسلة ألا أورد أحداً من الشخصيات إلا إن كان من العصر الحديث لأوردته؛ فهو أحد العظماء المنسيين رحمه الله تعالى.

تنافس الأحباش والإيطاليون والبريطانيون والفرنسيون على تقسيم الصومال والتهامه تطبيقاً لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥ التي فتحت الباب واسعاً أمام الأطماع الصليبية في كل إفريقيا، فكانت بريطانيا في بربرة وما حولها، وإيطاليا في مقديشو، وفرنسا في جيبوتي، والحبشة في هرر.

كان هذا الشيخ المجاهد محمد بن عبدالله حسن صوفياً على الطريقة الصالحية لكنه لم يكن مثل قَعَدة الصوفية ومثبطيهم بل إنه ضرب المثل في الجمع بين الجهاد والتربية الروحية البعيدة عن الغلو، وكان هذا نادراً في العصر الحديث؛ كما هو معلوم، ولم يتحقق إلا لآحاد منهم عمر المختار والإمام شامل، ومهدي السودان وقليل غيرهم.

ولد الإمام المجاهد محمد بن عبدالله حسن في سنة ١٢٧٣/١٨٦٤ في شمال الصومال بالقرب من بوهوتلي، من أسرة عربية الأصل هاجرت إلى الصومال منذ زمن طويل، وكان أبوه من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية، من قبيلة بهجري الصومالية وأمه من قبيلة الدولبهنتا الصومالية أيضاً، فانتقل إلى تلك المنطقة واستقر بها، واهتم بابنه فأرسله

إلى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، والعلوم الشرعية في الأوجادين، والتقى بالمشايخ وعلماء المنطقة، واشتغل بالصيد والفروسية والملاحة، ثم حصل على لقب الشيخ وهو في التاسعة عشرة من عمره المبارك - وهذا دليل على نبوغه المبكر- ودرّس في المساجد والمراكز الدينية في هرر ومقديشو ونيروبي وغيرها، ثم عاد إلى بلاده وهو في الخامسة والعشرين فتزوج وواصل إلقاء الدروس، ووفد عليه جماعات من الطلبة الذين كانوا نواة لجنده فيما بعد.

وكان الإمام شاعراً، وله شعر يتناقله الصوماليون اليوم لكنه لم يُكتب في حياته.

وحج البيت الحرام سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥ فوقف على أحوال المسلمين وأخبارهم فقد كانت مصر تموج بالاحتلال البريطاني، والسودان يثور بقيادة المهدي، فكانت رحلة الحج إعداداً نفسياً له لمواجهة الأطماع في الصومال، والتقى في الحجاز بالشيخ صالح السوداني صاحب الطريقة الصالحية وأخذ عنه، وكان أثناء إقامته بالحجاز يتسقط أخبار الصومال من الحجاج ويسمع ما صنع المحتل بأهل بلده.

وعزم مع مجموعة من خُلّص من كان معه من أصحابه على الجهاد.

ثم توجه إلى فلسطين وزار بيت المقدس.

وفي سنة ١٨٩٥/١٣١٣ قرر العودة لبلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبح لها اليد الطولى في موانئ القرن الافريقي مثل بربرة وزيلع، بعد انسحاب القوات المصرية التي كانت تحكم تلك البلاد، وذلك نتيجة مؤامرة حاكها المحتل البريطاني لمصر، وصارت بريطانيا تبني الكنائس وتمزق الصومال إلى مناطق نفوذ مختلفة.

وفي عدن حدثت له حادثة تنبئ عن نفسية الرجل، فقد طلب منه أحد البريطانيين مشاهدة المظلة التي في يده فأبى الإمام، فتبعه البريطاني وحاول أن يرى المظلة بالقوة فدفعه الإمام فسقط في البحر، فتعجب البريطانيون من جرأته على أحدهم، وهم يعدون أنفسهم سادة المنطقة، وكاد يسجن لولا أن الله أنقذه بوساطة الشرطة في عدن.

ثم توجه إلى بربرة -عاصمة الصومال الانجليزي آنذاك- التي لقي فيها عنتاً من رجال الجمارك الذي طلبوا منه رسوماً على أمتعته فقاله لهم: ومن الذي أعطاكم الإذن بالدخول إلى بلادنا؟

وأقام في بربرة مسجداً وأقبل على تعليم الناس وتربيتهم وتهذيبهم، وبدأ يحثهم على الجهاد ضد الأوربيين وكان يؤثر في سامعيه بما وهبه الله تعالى إياه من الفصاحة وقوة الحجة وحسن الإقناع بآيات من كتاب الله تعالى وأحاديث رسول الله e ، وبشخصيته الفذة ورجاحة عقله وسرعة بديهته، هذا علاوة على ما امتاز به من براعة في نظم الشعر والتأثير في نفسية سامعيه، فجمع الناس حوله بهذه الشمائل والخلال وكوّن منهم نواة كبرت فيما بعد وعظم شأنها في الجهاد.

وفي بعض المرات التقى بمجموعة من الأطفال الذين يتعلمون في مدرسة البعثة الكاثوليكية الرومانية في بربرة فعلم أنهم يعلمونهم مبادئ النصرانية المحرفة، ويغيرون أسماءهم حتى أنه سأل أحد الأطفال عن عشيرته فقال إنه من عشيرة البابا!! وعن اسمه فقال: يوحنا عبدالله!! فاشتكى إلى المقيم

السياسي البريطاني في بربرة مطالباً إبعاد المنصرين عن الصومال.

وحذر قومه من طاعة النصارى، وطالبهم بألا يعلموا أطفال المسلمين اللغات الأوربية -التي كانت مقرونة آنذاك بالتنصير- وحثهم على العناية بهم وتحفيظهم القرآن وتعليمهم الشريعة، وابتدأ يعد العدة للجهاد وتوحيد القبائل في الصومال، حتى لاحت فرصة وهي أن أحد القساوسة كان يقطن بجوار أحد المساجد في بربرة فأزعجه الأذان فأطلق النار على المؤذن!! فاشتعل الغضب في نفوس المسلمين، فقاموا بهدم المركز التنصيري في ديمول ولاحقوا القس محاولين الفتك به، وحاولوا تحطيم كل المراكز التنصيرية، فأرادت بريطانيا التهدئة فقامت بترحيل كل المنصرين في باخرة إلى عدن، وتعهدت بعدم السماح لهم بالعودة، ومنع بناء كنائس في الصومال، وألا تفتح محلات لبيع الخمور، وهذا باق إلى اليوم في الصومال الشمالي فليس فيه مراكز تنصير ولا مدارس تنصيرية بفضل الله تعالى ثم بهمة هذا الرجل وأصحابه، وهذا كله يعلمنا أن المسلمين

إذا كانوا أصحاب همة عالية وعمل بنّاء فإن أحداً لا يستطيع الوقوف بوجههم.

وحدثت حادثة أخرى كانت هي الفتيل لإشعال الجهاد وهي أن أحد رجال الشرطة في بربرة هرب إلى الإمام وأعطاه مسدسه، فسمع القنصل البريطاني في بربرة بهذا فطلب من الإمام أن يرد المسدس فرد عليه الإمام رداً خشناً، وبعد شهور تلقى القنصل البريطاني رسالة من الإمام يتهم فيها الانجليز بالإساءة إلى الإسلام، وأنه يحتقر كل من يتعاون معهم، ويطالبهم بدفع الجزية!! وهنا طلب القنصل من حكومته إعداد العدة لقتال الدراويش، وهذه هي التسمية التي سمى بها الاستخراب البريطاني جماعة الإمام، وسموه هو بالملا المجنون، وكان يلقب -أيضاً- بمهديّ الصومال تشبيهاً له بمهدي السودان.

وخرج الإمام من بربرة إلى نوجال واشترى عدداً من البنادق الفرنسية، وصاحب هذا حضور بعض الجنود الأحباش إلى أوجادين لجمع الضرائب من السكان فهجم عليهم أتباع الإمام وعلى المعسكر الحبشي في جكجكة وغنموا أسلاباً

كثيرة وسلاحاً إيطالياً، وهنا انتبه امبراطور الحبشة مِنليك فتحالف مع البريطانيين لضرب الحركة الناشئة.

وهنا أدرك الإمام أن الوقت قد حان لإعلان الجهاد فأعلنه، وحث على الاستعداد لقتال النصارى، والصبر على الشدائد، وبهذا صار قائداً سياسياً وزعيماً دينياً معاً في منطقة الأوجادين، وابتدأ بإخضاع القبائل المجاورة لزعامته، وذلك لأن بعض رؤساء تلك القبائل لم تقبل أن تخرج الزعامة عنه، لكن عدداً من رؤساء القبائل ذوي الحس الوطني انضموا إليه.

وهذه رسالة بعث بها الإمام المجاهد توضح وضع عدد من قبائل الصومال وممالأتها للاحتلال حيث قال رحمه الله:

"نحن قوم حاصرهم الكفار والمنافقون من جميع الجهات وقطعت عنهم جميع المواصلات والإمدادات الحربية والغذائية، ونحن قوم مُلئت صدورهم من الغضب والغيظ لأجل تخاذل المسلمين وتخالفهم مع كثرتهم وتعاون المستعمرين وتوافقهم مع قلتهم في بلادنا.

ونحن قوم باعهم شعبهم بثمن بخس لعدوهم، وقد أنفقت الحكومة الإنجليزية والحبشية والإيطالية والفرنسية في سبيل

ذلك مالاً كثيراً ، وانضمت إليهم بعض القبائل الصومالية التي خضعت لرعوية تلك الدول باختيارها وطوعها يقودها سلاطينها وزعمائها ، ويحرضها علماؤها على حربنا!!

ونحن قوم لا يخضعون لأعداء دينهم ووطنهم ولو كثرت جنودهم وتتابعت هجماتهم، وتنوعت آلاتهم المهلكات، واشتدت وطأتهم علينا ، وانضمت إلى صفوفهم أكثرية غير وطنية وأكثرية من المستخدمين الأجانب لأننا نريد أن نشتري بأموالنا وأنفسنا الجنة من الله تعالى... ونحن قوم لا نسمح للكفار أن يحتلوا بلادنا أو يحكموها ، ولا نتكالب على ذلك مع المستعمرين لا بعوض ولا بتهديد ، ولا نترك قوانين الشريعة وأحكامها ، ولا نجعلها خاضعة لقوانين الكفر... ونوجه لومنا إلى العلماء والقضاة الذين يهينون شريعتنا الإسلامية ويجعلونها تحت أقدام الكفرة الفجرة ...".

ثم ذكر احتلال الدول الكافرة للصومال ثم قال:

"ثم إن الدول المذكورة بدأت تبذل أموالاً تافهة لزعماء القبائل ورؤساء العشائر لتشتري منهم دينهم ووطنهم وشرفهم وعزهم بتلك الدريهمات، وكأن الزعماء لا يفهمون مرارة

الاسترقاق والاستعمار، ولا يدركون ما سيحصل لهم ولشعوبهم من الذل والخزي والهوان ...

ولا يفهم هؤلاء الأغبياء أن المرتبات والمشاهرات -أي الرواتب الشهرية- مثلها كمثل ما يعطى للطير والحيتان لاصطيادها.

ومن جهة أخرى فتح المبشرون مدارس في البلاد ليغيروا من دين الشعب ...

ونشأ أيضاً في المدن التي تحتلها تلك الدول الأربع عادة شرب المسكرات وتناول المخدرات، وفتحت العاهرات أبوابها دون خجل، فلما علمت ورأيت ذلك ثارت في نفسي شدة الغيرة الإسلامية، واشتعلت في قلبي الجذوة الوطنية، والتهبت روحي غضباً وكادت تخرج من الهيكل الجسماني، فبدأت أخطب في المساجد والمحافل وألقي بين الأمة خطباً حماسية دينية...

ولا أزال أحذر الشعب وأناديه لكن لا حياة لمن أنادي ولا حكمة لمن أحذره، وقد قالوا لي لما نبهتم على تقديم أوطانهم للمبشرين وعن تجنيد رجالهم للعدو: إنك تريد أن تقطع أرزاقنا وتهلكنا بالفقر والجوع!!

إلى آخر ما وصف به حال بعض القبائل في الصومال آنذاك.

والعجيب أنه لما قام يدعو الشعب إلى الجهاد قال بعض مَن لا علم عنده:

الجهاد وقته متأخر، وسنجاهد في أوان الجهاد عند خروج المهدي المنتظر فعندئذ تكون لنا العصي بنادق ومدافع وستكون آلات الكفار عِصِيّاً.

أما إذا جاهدنا الآن وليس معنا آلات حربية فلا يكون لنا إلا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وهذا من الفهم الأعوج وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذه رسالة قد بعث بها الإمام المجاهد إلى السلطان عثمان محمود سلطان ميجرتين، تبين وعيه وفهمه وحسن تصوره للجهاد إذ قال بعد البسملة والحمدلة والصلاة على النبي e :

"إني أبعث لكم كتابين تباعاً تنفيذاً لقول الصادق المصدوق e : "الدين النصيحة" وبينت فيهما ما يفترضه الواجب الديني لمعالجة المطامع المسلطة على بلادكم من دولة إيطاليا

الكافرة، الظالمة القاسية، ووضحت لعظمتكم أن الله تعهد بنصر المؤمنين، وتكفل بألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً إذا قاموا بتأييد دينهم والسير على سنن قرآنهم فإنه قال: PM Q R S T U L[1]، وقال في سورة الأنفال: Mوَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ L[2]، وعلى هذه السنن نهج السنوسي مع إيطاليا في طرابلس الغرب فإنه هزمها وقهرها وغنم ما لا يُحصى من الذخائر والعتاد الحربي، ولم يتركه هملاً بل صار يقاتلهم به بعد أن استعد لكل ما يلزم.

وعلى هذه القاعدة أيضاً سلك سلطان الريف في المغرب الأقصى فإنه غضب لله وخرج منفرداً يقاتل في سبيل الله، وما زال يسير في وادي الإخلاص بحزم وحكمة وثبات حتى صار يقود اليوم مائتي ألف مقاتل مزودين بالبنادق والمدافع الضخمة والرشاشات السريعة التي غنمها منهم وصار يستعملها ضدهم

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

حتى أرهب دولتي فرنسا وأسبانيا ودك قواتهما العظيمة وكاد يسحقهما سحقاً.

وكذلك مثل سلطان باشا الأطرش في الديار الشامية مع دولة فرنسا.

وعلى هذه الخطة يسير الحاكم المسلم الحكيم، وكل من ولاّه الله حاكماً على طائفة من المسلمين واجب عليه أن يتزود ويستعد بما يرفع عن أمته الويل، وإذا لم يفعل فإنه يكون عاصياً ومسؤولاً يوم الفزع الأكبر أمام رب العزة ..." ثم حثه على جمع الرجال للجهاد.

وهكذا دعا جمعاً من رؤساء القبائل والعلماء والشيوخ للجهاد ضد المحتل الغاصب، واعتمد في جهاده على عواملَ عدة منها:

١. تنظيم الجيش وتدريبه.
٢. جَعْل الصفوة الممتازة بإيمانها وجهادها أساساً لجيشه.
٣. الاعتماد على التجار العرب في تهريب السلاح من ميناء بربرة وزيلع إلى معسكراته.

٤. الاستفادة من ذخائر الجيش المصري التي كانت في المخازن في هرر وتهريبها إلى داخل الصومال.
٥. بناء مخازن في الجبال للأسلحة لا يعرفها إلا القليل.
٦. بناء الحصون في أماكن مهمة خاصة داخل الأوجادين.
٧. حفر عدد من الآبار على طول الجبهة الإيطالية والحدود البريطانية إلخ ...

فلما استعد هذا الاستعداد أعلن الجهاد في سبيل الله ضد المحتلين من الانجليز ومن يعاونهم من المسلمين.

بداية التصادم مع البريطانيين:

أرسلت بريطانيا حملة بقيادة الكولونيل سواين، وجهز الأحباش جيشاً قوامه خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابري، وكلفت الحكومة البريطانية همفري تراس التابع لفرقة فرسان الحرس الملكي بالتنسيق بين قوات الطرفين، وكانت مهمة الأحباش قطع الإمدادات عن المجاهدين من شعب الأوجادين وغيره، وكُلفت إيطاليا -التي كانت قد استقرت في بعض أجزاء القرن الإفريقي- بالضغط على سلطان ميجرتين المسلم!! لمنع وصول أي مساعدات للإمام ولمنعه من الهرب إلى

الساحل، لكن الإمام عرف كل هذا وقام بتوزيع قواته ناحية الشرق، واستقر في منطقة بوهوتلي على حدود المحمية البريطانية في أوائل يناير سنة ١٩٠٠م/ ١٣١٧هـ وحارب المجاهدون ثلاثة أشهر وأظهروا بطولات عظيمة، وأجبروا البريطانيين وغيرهم على التراجع، واكتفت بريطانيا بوضع قوات في برعو، واحتل الإمام بعض المواقع.

أرسلت بريطانيا حملة ثانية بقيادة الكولونيل سواين الذي تحرك في ١٧/٢/١٣٢٠هـ/ ٢٦مايو سنة ١٩٠٢ ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الإفريقية بقيادة الكابتن أسبورن مع ٥٠٠ فارس من الصوماليين بقيادة موسى فارح من منطقة هود، ويا للعار من انعدام الولاء والبراء عند هؤلاء، وتمركزت قوات المجاهدين في إقليم بارن وكانوا حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، وانتهت المعركة بمقتل مائة جندي بريطاني ولله الحمد والمنة وغنم المجاهدون غنائم جيدة، وقال الكولونيل سواين معلقاً على ما رآه من عزيمة الصوماليين في الجهاد:

"إني لم أكن أعتقد أن الصوماليين يحاربون من أجل العقيدة والمبدأ حتى رأيت الدراويش في "فرطدن" يهتفون الله

الله، يقفزون نحونا على رؤوسهم العمائم البيض، لا يرهبون مصير إخوانهم الذين قتلناهم أمامهم برشاشاتنا، ولا يفكرون في عائلاتهم التي تركوها من ورائهم".

استعانت بريطانيا بإيطاليا، وبالحبشة فوافق الإمبراطور منليك وأرسل خمسة آلاف مقاتل، تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة، وكان قائد البريطانيين مانئج -بعد عزل الكولونيل سواين الذي أخفق في حروبه مع الإمام- وابتدأت الاشتباكات بين الطرفين ١٣٢٠/١٢/٢٥ - ١٥مارس١٩٠٣، وهزم الله البريطانيين الذين قتل منهم ٢٩، ومن حلفائهم ١٨٧، وجُرح ٢٩، وقد استمرت المعركة من السادسة صباحاً حتى الرابعة مساء أُجبر بعدها البريطانيون وحلفاؤهم على الانسحاب، وقد قتل من جيش الإمام عدد كبير لا يُدرى كم هو، وأخفقت الحملة الثالثة.

وعلى إثر هذه الانتصارات ارتفعت معنويات المجاهدين وقويت عزائمهم وكثر عددهم، والتفوا حول قائدهم الإمام محمد بن عبدالله حسن، فقررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال إيجرتون الذي أبحر من بومباي في

٢٧ يونيو سنة ١٩٠٣/١٣٢١هـ، ووضع خطة محكمة للقضاء على الإمام أو أسره، وطالبت الحكومة البريطانية امبراطور الحبشة المشاركة في الحملة، ودفعت له خمسة عشر ألف جنيه استرليني ليتمكن من نقل قواته في تلك المناطق الوعرة، وهُزم الإمام واستشهد من قواته ألف مجاهد، لكنه لم يُؤسر.

وبعد المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على الإمام أن تتنازل له عن أجزاء من المحمية البريطانية والإيطالية، وأن تعترف به كرئيس إقليمي مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وأن يودع مبلغاً من المال لدى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيرته وسلوكه وتسليم أحد أبنائه رهينة ونزع سلاح أتباعه فرفض الإمام، وحُق له أن يرفض فالخديعة ظاهرة في هذا العرض الصليبي.

وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة قبل ذلك مع إيطاليا تعترف فيها بريطانيا بالصومال الإيطالي مقابل اعتراف إيطاليا بالصومال البريطاني وسيطرة بريطانيا على جوبا وكينيا.

وطلبت بريطانيا من فرنسا أن تغلق موانئ وطرق مستعمراتها "مستخرباتها" في إفريقيا في وجه الإمام حتى لا تأتيه الأسلحة منها.

طلب الإمام من سلطان ميجرتين تقديم المساعدة له لنقل قواته وماشيته عبر أرضه فكاد أن يوافق لكن الانجليز أنذروه بأنهم سيحتلون بلاده لو صنع، فرفض طلب الإمام، الذي اتجه إلى الساحل بقواته في منطقة أليج حيث يمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، لكن الانجليز لم يتركوه فهاجموا قلعته التي سقطت تحت قوة نيرانهم، وتنسيقهم مع الإيطاليين، وتكبد الانجليز قتل ثمانية ضباط وعشرين من الجند الوطنيين الخونة وسبعة عشر صومالياً غير نظامي، أما خسائر الإمام فقد بلغت ألفي شهيد!! وأسر منهم ٣٠٤، واستولى البريطانيون على ٤٧٣ مسدساً وبندقيتين، وأعيرة نارية، ومائتين وثلاثة وعشرين حصاناً، و ٣٦٤١٥ رأساً من الماشية، وهي خسائر هائلة، لكن الإنجليز خسروا خمسة ملايين جنيه في هذه الحملة وهو مبلغ هائل جداً آنذاك، وبعض

المؤرخين يرى أن خسائر الإمام البشرية قد بولغ في تقديرها فهي أقل من ذلك، والله أعلم.

بعد هذه المعركة جنح الإمام للموادعة حتى يسترد أنفاسه ويعوض خسائره، وقبل وساطة الإيطاليين لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش في اتفاق ستالوزا سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ويبدو أن إيطاليا خافت على مستعمرتها أن ينتفض فيها الصوماليون فسارعت للوساطة بين الإمام وأعدائه، وكان من بنود الصلح ما يلي:

١. عدم تدخل الإمام في شؤون القبائل الصومالية التي تحت حكم بريطانيا.
٢. ألا يشتري جنوده السلاح، وألا يقوي الإمام الجيش.
٣. تحديد أماكن المجاهدين في نطاق إقليم واحد معين بين رأس جاراد ورأس جابي، وهي من مناطق النفوذ الإيطالي، وفي نوجال، وبين سلطنتي هوبيا وميجرتين.
٤. رفع الحصار عن الإمام وتمكينه من شراء ما يحتاجه إلا السلاح، وألا يتجر بالرقيق.
٥. الحرية الدينية للإمام وأتباعه.

٦. أن يحكم الإمام أتباعه بنفسه.
٧. إبلاغ المجاهدين الحكومة الإيطالية بكل ما يمكن أن يعرض أمنهم للخطر.
٨. عقد معاهدة صلح بين الإمام وبين القوى الصليبية الثلاث: الحبشة وإيطاليا وإنجلترا.

ـ استفاد الإمام من مدة الصلح هذه التي استمرت إلى سنة ١٩٠٨/١٣٢٦، واستطاع أن يجذب إليه بعض القبائل والعشائر، وكانت بريطانيا تحاول أن توغر صدر القبائل على الإمام حتى يوقعوا بينه وبينها، واتصلت بالدولة العثمانية عن طريق قنصلها هنالك محاولة أن تقنعها بالاتصال بالمشايخ في مكة حتى يصدروا فتوى تنكر فيها زعامة الإمام على قبائل الصومال لكنهم أخفقوا.

وهنا لجأ الانجليز والإيطاليون إلى حيلة ماكرة حيث استغلوا طرد الإمام للحاج عبدالله شجاري -أخلص أتباعه ورفيق الجهاد، وممثله في المفاوضات- من حركته، فنظم القنصل الإيطالي رحلة لوفد فيه مشايخ كبار وأوكلوا رئاسته للحاج عبدالله شجاري، وذهب الوفد إلى مكة في يوليو سنة

١٣٢٦/١٩٠٨هـ واشتكى إلى شيخ الطريقة الصالحية الصوفية التي يتبعها الإمام وأتباعه، وكذلك ذهب وفد من زعماء قبائل الصومال إلى مكة للغرض نفسه، وكانت حجة الوفدين أن الإمام قام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية!! واتهموه باتهامات لا تقبل عقلاً مثل شرب الخمر!! والمجون، والعبث بالنساء، وحب سفك الدماء!! فأرسل شيخ الطريقة الصالحية في الحجاز محمد صالح خطاباً إلى الإمام، لكن الوفد استطاع أن يزور الخطاب برشوة الكاتب فصار خطاباً متضمناً إعلان البراءة من الإمام وصنيعه.

وانتهز الإنجليز هذه الفرصة فقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين، فأثر ذلك في أتباع الإمام وزُعزعت ثقتهم فيه، فما كان من الإمام إلا أن ألف رسالة بعنوان "قمع المعاندين" وأرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية في مكة وإلى السلطان العثماني، لكن حدث انقسام بين قادة المجاهدين، واشتدت العداوة بينهم جراء ذلك كله، وعقد بعضهم اجتماعاً قرروا فيه عزل الإمام أو قتله

وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد أو إنهاء الجهاد وحَلّ الحركة، لكن الإمام قبض على قادة هؤلاء وأعدمهم.

وهنا قررت بريطانيا استغلال الفرصة وعقد صلح جديد مع الإمام عارضة عليه خمسين ألف جنيه استرليني شهرياً إذا حسن سيره وسلوكه!! لكن الإمام اشترط تسليم عدوه الحاج عبدالله شجاري، ودفع بعض التعويضات، والقبض على الصوماليين الذين أثاروا المشكلات الآنفة الذكر، ففشلت المفاوضات.

الجلاء عن الصومال:

قررت بريطانيا إخلاء الداخل وتسليمه إلى القبائل وتسليحها والاستقرار في الساحل فقط في المدن: بربرة وزيلع وبلهار، فلما حدث هذا انقضت قوات الإمام على أعوان البريطانيين من الصوماليين ففتكوا بهم، وعمت الفوضى وبدأت الحرب الأهلية، وتدمرت طرق القوافل، وانقطعت سبل التجارة.

وانتقل الإمام من مناطق الإيطاليين التي فُرضت عليه في معاهدة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م إلى مناطق النفوذ البريطاني التي ارتحل

عنها البريطانيون، وبنى عدداً من الحصون والقلاع أهمها حصن تاليح الذي ظل مقراً له إلى سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، واحتل جنوده المعسكرات البريطانية في الصومال، وبسبب ما جرى من الفوضى قررت بريطانيا إعادة النظر في قرارها، وكونت قوة للشرطة تحفظ بها الأمن في داخل البلاد، وأرسلت إيطاليا قوة احتلت مقديشو حتى تحاصر الإمام من الجنوب، وأصدرت أوامرها لسلطان ميجيرتين الصومالي بمهاجمة الإمام!! لكن الإمام انتصر على القوة المشتركة، وكان ذلك في ١٣٢٩/٨/١٩هـ ١٥أغسطس سنة ١٩١١، وهذا كله يوضح أن الإمام ما زال في يده مفاتيح القوة في الصومال.

وبعد ذلك كتب الجنرال ريتشارد كورنفيلد القائد العام للقوات البريطانية المسلحة في محمية الصومال لاند البريطانية "شمال الصومال" رسالة إلى الإمام المجاهد كلها تهديد ووعيد وفيها:

"لقد نصحناك وأنذرناك من سوء العاقبة ولم تقبل نصيحتنا، ولهذا فقد تكون عرضة لهجوم حكومة أكبر منك قوة، وسننسفك نسفاً أنت ومن معك إذا لم ترجع عن غيك

وتخمد ثورتك الجنونية، واعلم أن دولة صاحبة الجلالة عظيمة جداً ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئاً، فارجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع عليك المصيبة، وتندم على أعمالك السيئة، والموت ينتظرك متى أصررت على عنادك".

فأجابه الإمام إجابة تقطر عزة وشرفاً وجلالة:

"من السيد محمد عبدالله حسن قائد قوات الدراويش الإسلامية إلى الجنرال ريتشارد كورنفيلد قائد قوات الشيطان!!:

قد اطلعت على رسالتك، وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة، واعلم أن قواتك التي تفاخرون بها لا تساوي لدي شيئاً، وأعلمك أيضاً أنكم إذا كنتم تحاربون بقواتكم الهائلة فإنني أقاتلكم بنيتي الوطنية، وإيماني القويّ، وعزيمتي المتينة التي لا تعرف الملل، مهما تكن الظروف فلن أستسلم ولن أكون للشرك عبداً" الله أكبر.

مصرع القائد الانجليزي:

وفي ١٣٣١/٩/٦/ ٩ أغسطس سنة ١٩١٣ حدثت معركة ضخمة بين الإمام والإنجليز بقيادة ريتشارد كورنفيلد في دلما

دوبي، وكانت القوات البريطانية مدعمة بقوات من الهند وعدن والصومال وزنجبار وكينيا، وانتهت بهزيمة الإنجليز ومقتل كورنفيلد، ونشرت الصحف البريطانية خبر المعركة بعنوان: "كارثة مروعة لقواتنا في الصومال" وأنشأ الإمام قصيدة بعنوان مصرع: ريتشارد كورنفيلد، وأعلنت وزارة المستعمرات البريطانية الحداد على الجنود والضباط القتلى والأسرى وقائدهم الجنرال المقتول، وتراجعت القوات الإنجليزية مذعورة إلى الساحل، وحصل المجاهدون على غنائم كثيرة، وانتشرت الأخبار في كل أنحاء الصومال، وانضم إلى المجاهدين عدد كبير ممن كان تحت حماية البريطانيين، وخاف الإيطاليون من المجاهدين الذين استولوا على برعو، وبربرة، وأرسلت بريطانيا قوة نجحت في إيقاف تقدم المجاهدين لكن وقعت الحرب العالمية الأولى وانشغلت انجلترا بها.

وفي المحرم سنة ١٣٣١هـ/ ديسمبر ١٩١٣ تولى على الحبشة الإمبراطور ليج ياسو الذي أسلم، وأرسل إلى الإمام مساعدات مالية وأسلحة، وأرسل له أحد الفنيين الألمان إلى حصن تاليح لإصلاح الأسلحة الأوروبية.

واتصل الإمام بالأتراك في عدن عام ١٣٣٥/١٩١٦ وطلب حمايتهم، وأعلن الخضوع للخلافة ولسلطنة السلطان محمد رشاد الخامس، لكن الدولة العثمانية كانت -آنذاك- أضعف من أن تنصره.

واجتمع بالألمان.

وفي ذلك الوقت أُبعد الامبراطور ليج ياسو عن الحكم بمؤامرة، وجيء بالامبراطور هيلاسي لاسي ليقطع المساعدات عن الإمام.

وراسل الانجليز الإمام طالبين الصلح فرفض بإباء عرضهم، وكان قد اجتمع بالقائد العام للقوات البريطانية ونائب الملكة في الهند وأغروه بأن يكون ملكاً على الصومال، فرفض كل تلك العروض مبيناً أنه لم يكن يوماً يريد الملك، وأن هدفه هو تطهير بلاده من الاحتلال ولا يبالي بعد ذلك أعاش أم مات.

وواصل احتلال المواقع الحصينة منتهزاً فرصة انشغال الانجليز بالحرب العالمية الأولى ضد الألمان والأتراك، ولكن بريطانيا لم يقر لها قرار، وعُقدت اجتماعات في لندن وروما

والحبشة لمحاصرة الجهاد الصومالي الذي وجد طريقه إلى قلوب الصوماليين وخشيت بريطانيا من تأثر مستخرباتها الأخرى.

وفي نهايات الحرب العالمية الأولى وبعد أن مالت النتائج لصالح الإنجليز وحلفائهم أرسل الانجليز حملة حربية من الهند للحفاظ على موانئ الصومال واسترداد ما فقدوه من مدن، ووقعت معركة انهزم فيها جند الإمام وتراجعوا إلى الداخل.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى قرر البريطانيون إنهاء المعركة مع الإمام، وأرسلوا الجنرال هوسكنز إلى بربرة لتقدير الموقف العسكري، ومن ثم قرر البريطانيون إرسال حملة من الجو -لأول مرة- والبر والبحر، ونسقوا مع الإيطاليين وزعماء القبائل الصومالية الموالية لها، وفي ١٣٣٨/٤/٢٩هـ /٢١ يناير١٩٢٠ ابتدأت القوات الجوية بضرب مواقع الإمام في ميديشي، واستمر القصف ثلاثة أيام جواً وبراً، ومات عدد كبير من المجاهدين بفعل دنيء من الانجليز ألا وهو تسميم الآبار، وانسحب الإمام إلى حصن تاليح، فأرسلت بريطانيا ثلاث طائرات حلقت على ارتفاع منخفض وأحرقت كل مواقع

المجاهدين، وأسرت بعض زوجات وبنات الإمام وبعض قادته، واستطاع الإمام الفرار إلى منطقة باخيري، ومن ثم استقر في منطقة هي، وانضم إليه من بقي من رجاله المخلصين حتى بلغوا ألفاً ومعهم بعض الأسلحة، وهنا أرسل إليه الحاكم آرثر طالباً منه الاستسلام فرفض، ثم جرت جولات بينهما لم تسفر عن شيء.

ولما اشتد الحصار على الإمام انتقل إلى الأوجادين في الحبشة نازحاً من الصومال البريطاني طالباً الحماية لكن الأحباش قبضوا على رجاله، ومات الإمام في ١٣٣٩/٣/١١هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ متأثراً بمرض حَلّ به، ودفن في إيمي، وحاول الإنجليز أن يحصلوا على رأسه ليرسلوه إلى بريطانيا -كما فعلوا بالمهدي في السودان- لكن أتباع الإمام أبقوا مكان قبره سراً.

وهكذا انتهت قصة هذا الجهاد الرائع الطويل الممتد لأكثر من عشرين سنة حاكياً بطولة الإمام وأتباعه، وأن المسلم إن تعلق بالجهاد فإن أقوى القوى على ظهر الأرض ستقف عاجزة أمامه.

عوامل هزيمة الإمام:

هناك عدة عوامل تضافرت لهزيمة هذا البطل منها:

١. العلة الدائمة في افريقيا السوداء آنذاك وهي ضعف عقيدة الولاء والبراء عند كثير من المسلمين التي أدت إلى تعاون بعض زعماء المسلمين مع الكفار ضد المجاهدين، وهذه بلية كبيرة، وتمثل هذا في حالة الصومال بوقوف زعماء هرر وهوبيا وميجرتين ضد الإمام، وبعض زعماء القبائل، وقد وشوا به عند البريطانيين ونصحوهم باعتقاله!! وقد تألبت كثير من القبائل عليه حتى اجتمع مرة ضده خمسون ألفاً منهم!!

٢. قِصَر نظر بعض قادة المجاهدين الذين استجابوا لمكيدة الصليبيين وفتتوا صف الجهاد بقبولهم الذهاب إلى مكة واستصدار ما يضعف موقف الإمام أمام الصليبيين، وكان ذلك بسبب الأحقاد وسوء النظر.

٣. القوة الحربية الهائلة لدى الانجليز خاصة سلاح الطيران الذي حسم المعركة في النهاية، وتحالف الانجليز مع الإيطاليين والأحباش ضده.

٤. استخدام الإمام العنف في بعض الأحيان ضد بعض زعماء القبائل مما أثار حفيظتهم، وجنح بهم إلى أعدائه، وكان لقلة الوعي في القبائل أثر كبير في معاداة الإمام.

٥. افتقاد الإمام الدعم من كل المسلمين خارج الصومال الذين كانوا مشغولين بأنفسهم وأحوالهم فلم ينجدوه ولم يلتفتوا إليه.

٦. وجود الجواسيس والخونة في صفوف الصوماليين، وكانوا يدلون الانجليز على عورات جيش الإمام.

وقد دعا الإمام الصوماليين إلى قتلهم، وما أشبه صنيعهم هذا بصنيع العملاء والجواسيس والخونة اليوم في فلسطين والعراق وأفغانستان.

٧. كان الإمام يتبع الطريقة الصالحية الصوفية التي تلقاها في مكة، بينما كان أغلب مشايخ الصومال يتبعون الطريقة القادرية، وهذا أدى إلى مناوئة المشايخ له وإضعاف قوته ولو اجتمعوا عليه لحصل خير كثير، لكن ما العمل وهذه علة يعاني منها المسلمون في كل زمان ومكان.

ومع كل تلك العوامل فقد كان لجهاد الإمام محمد بن عبدالله حسن أثر جليل، وتجلى فيه التالي:

١. قوة هذا الإمام وشجاعته وإباؤه، فقد تمالأت عليه قوى الإنجليز والإيطاليين والأحباش وطلبوا منه الصلح مراراً، وخضعوا عنده، وفشلت خمس حملات حربية وُجهت إليه من أقوى قوة موجودة على ظهر الأرض آنذاك، ورفض الاستسلام لهم حتى قضى نحبه عزيزاً كريماً.

٢. إن المسلم الذي يعقد العزم على مواجهة الباطل وأهله يُحدث أثراً عظيماً في أعدائه، ويحيرهم بصموده وعزته، وينفع الله به، فهذا الإمام جاهد أعداءه عشرين سنة في أحوال لا تسعف، وأوقات الإدبار في العالم الإسلامي لا الإقبال ومع ذلك انظروا كيف استعصى على أعدائه ودوخهم.

ولا أعلم لعمله نظيراً في العصر الحديث إلا ما كان من الأمير الكبير محمد عبدالكريم الخطابي.

٣. إن المسلم الصالح الملتزم بدينه الواعي لمتطلبات زمانه ذا العزيمة القوية هو العُدة الحقيقية لبلاده وقومه، وهو الأمل لهم بعد الله تعالى، أما ضعاف الإيمان والعزيمة والتطلعات فهم بلاء على أقوامهم وبلادهم، وقد ارتقى وعي هذا الإمام في أحوال كثيرة، واستطاع أن يتعامل مع معظم القوى التي كانت حوله آنذاك بحنكة وحسن تدبير، وإن خانه التوفيق ففي أحوال قليلة.

٤. جمع الإمام بين التربية والجهاد والزعامة أي بين القوتين السياسية والدينية، وكان هذا أمراً نادراً في زمانه، وكان من توفيق الله تعالى له، فقد تيسير له شيء لم يتيسر لأكثر المصلحين في زمانه وقبله وبعده.

٥. استطاع أن يجمع بين معظم قوى الشعب الصومالي ويوجهها لحرب أعداء الإسلام، وهذا -وإن كان في مدة قصيرة ولم يَطُل- لم يحدث في الصومال قبله منذ زمن الإمام أحمد بن إبراهيم الذي ذكرته في البداية.

٦. حارب العادات السيئة المتفشية في الصومال مثل مضغ القات، والتدخين، وقام بمنع الاختلاط، وفرض الحجاب.

٧. اهتم بالنساء، وأصلح حجابهن وضبطه، وعلمهن فنون القتال حتى كان منهم عدة فارسات.

٨. كان الإمام هو المهد الحقيقي لاستقلال الصومال الذي حدث بعد وفاته بأربعين سنة تقريباً ويكفيه هذا شرفاً في الدنيا وجزاءً في الآخرة إن شاء الله.

وفي النهاية أقول إن الإمام المجاهد محمد بن عبدالله حسن يصلح أن يكون رمزاً للصوماليين اليوم يستلهمون منه العزة والقوة والشجاعة والإباء حتى يقفوا أمام أعدائهم المتربصين بهم شراً اليوم، والله الموفق.

فهرست الموضوعات

الموضــــوع	الصفحة
مقدمــة	٥
"رجل الحماسة والهمة" عبدالعزيز الثعالبي	٩
"العالم المجاهد" محمد أمين الشنقيطي	٣١
"القائد البطل" ساموري توري	٤١
"أمير البيان" شكيب أرسلان	٥٣
"المجاهد" عمر الفوتي	٧٧
"الداعية الأديب" محمد البشير الإبراهيمي	٩٧
"المفسر العامل" أبو الثناء الآلوسي	١١٧
"المجدد السلفي" محمود شكري الآلوسي	١٢٧
"الإمام المجاهد الصومالي" محمد بن عبدالله حسن	١٤٣
فهرست الموضوعات	١٧٧

عظماء منسيون
في التاريخ الحديث
"الجزء الثالث"

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الأندلس الخضراء

جدة / هاتف: ٠٢/٦٨١٠٥٧٧
/ فاكس: ٠٢/٦٨١٠٥٧٨
الرياض / هاتف: ٠١/٢٤٨١٧٠٥
/ فاكس: ٠١/٢٤٨١٩٠٥
التوزيع / ٠٥٥٤٤٨١٩٠٥ - ٠٥٤٤٠٤٦٠٦٢

المكتبات: حي السلامة
هاتف - فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
حي الثغر - شارع بالخطب
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب: ٤١٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو وسيلة سواء كانت إلكترونية أو يدوية أو ميكانيكية بما في ذلك جميع أنواع التصوير المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو أنظمة الاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر بذلك.

عظماء منسيون في التاريخ الحديث

"الجزء الثالث"

تأليف

محمد بن موسى الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا -ولله الحمد والمنة- هو الجزء الثالث من هذا الكتاب "عظماء منسيون" وهم الذين نساهم الناس -على جليل أعمالهم وعظيم أفعالهم- وطواهم النسيان فلم يعد أكثر الناس يسمع باسمهم أو يطلع على سيرهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا وقد ذكرت في الجزء الأول من هذه السلسلة منهجي في اختيار هؤلاء العظماء وكتابة سيرهم فلا أعود لهذا الآن، وإنما أنبِّه إلى شيء مهم ألا وهو أن أصل هذه التراجم قد نشر في مجلة المجتمع ثم روجع وأضيف إلى بعضه شيء كثير أو قليل، وعُدّل بعضه بعض التعديل اليسير، وبقي شيء منها كما نُشر في تلك المجلة الغرّاء، وهو قليل.

هذا وأرجو أن يكتب الله على يديّ شرف إحياء ما نُسي من هذه التراجم، وما طوي من المفاخر والمكارم، وأرجو من الله تعالى أن يثيب هؤلاء بقدر ما نساهم أهل الأرض، وأن يرحمنا وإياهم يوم العَرْض، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

mhmalshareef@gmail.com

www.altareekh.com

السلسلة الثالثة

١. "الداعية الرُحَلَة": تقي الدين الهلالي.

٢. "الشيخ القوي": محمد الحامد.

٣. "رائد التجديد الشامي": طاهر الجزائري.

٤. "العالم المجاهد": عمر مَكْرم.

٥. "العالم المثابر": عبدالرحمن الافريقي.

٦. "شيخ الأزهر التونسي": محمد الخضر حسين.

٧. "العالم السياسي": الحاج محمد أمين الحسيني.

٨. "إمام أهل السنة": محمود عبدالوهاب فايد.

١- الداعية الرُحَلَة
تقيّ الدين الهلاليّ
١٣١١ – ١٤٠٧

١٨٩٢ – ١٩٨٧

إن كثيراً من دعاة الإسلام يستثقل السفر والارتحال من أجل الدعوة إلى الله وبث الخير، ويبادرك إذا دعوته لشيء من هذا بقوله: أنا لا أحب السفر!!

والمترجَم له في هذه الحلقة ضرب المثل بكثرة الأسفار دعوةً إلى الله -تعالى- وتعلماً وتعليماً في مشارق الأرض ومغاربها.

ولد -رحمه الله تعالى- في قرية الغيضة من بوادي يفلي بسجلْماسة "تافيلالت" بالمغرب سنة ١٣١١/١٨٩٢، وكان أبوه وجَدّه من الفقهاء، وهو من أسرة ينتهي نسبها إلى الحسين بن علي -رضي الله عنهما- وسماه والده محمداً التقي لرؤيا رآها لكنه اشتهر بلقب تقي الدين لأن أهل الهند لقبوه بذلك فصار علماً عليه.

قرأ القرآن على أبيه وجده، وحفظه وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم سافر إلى الجزائر سنة ١٣٣٣/١٩١٥ لطلب الرزق لكنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيا مقتضاها أنه صلى الله عليه وسلم وجهه لطلب العلم فدرس على الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي مختصر سيدي خليل وعلوم اللغة حوالي خمس سنوات إلى وفاة الشيخ سنة ١٣٣٨/١٩٢٠ في إحدى عمالات وهران من الجزائر، وكان الشيخ إذا سافر ينيب الهلالي في إلقاء دروسه ويقول للطلبة: كل ما عندي من العلم فهو عند هذا الفتى.

ثم عاد إلى المغرب ووصل إلى فاس سنة ١٣٤٠/١٩٢٢ وحضر دروس بعض العلماء في جامعة القرويين وحصل منها على شهادة عادلها بعد ذلك بالشهادة الثانوية في جامعة بون بألمانيا التي درس بها.

ثم في آخر سنة ١٩٢٢/١٣٤٠سافر إلى مصر واجتمع بمشايخ منهم الأستاذ رشيد رضا وعبدالظاهر أبو السمح، الذي عُين إماماً في المسجد الحرام بعد ذلك التاريخ بسنين، وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، واجتمع بالأستاذ رشيد رضا رحمهما الله تعالى.

وحدثت له بمصر حوادث كثيرة بسبب تمسكه بالكتاب والسنة وقوة حجته وشدته على خصومه، وبسبب تركه للطريقة التيجانية التي كان عليها، وقد ذكر هذا في كتابه "الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية".

وحضر دروس القسم العالي من الأزهر فنصحه الشيخ الزَنْكَلوني بألا يطلب علم الحديث في مصر لقلة العناية به آنذاك، ورأى الهلالي كتاب "عون المعبود شرح سنن أبي داود" وعلم أنه طبع في الهند فعزم على السفر إلى هنالك، وشد الرحال بعد عدة أشهر قضاها في الصعيد للدعوة والوعظ ثم حج وسافر، فأقام هنالك خمسة عشر شهراً واجتمع بأهل الحديث وقرأ شيئاً من الحديث النبوي الشريف ولقي الشيخ عبدالرحمن المباركفوري صاحب "تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي" ووصفه بأنه صالح عالم زاهد بكّاء، من أولياءِ الله الصالحين، وقد أجازه الشيخ المباركفوري والشيخ محمد بن حسين الأنصاري اليماني نزيل بهوبال.

ودرّس ديوان المتنبي لمدة ستة أشهر في مدرسة علي خان في دهلي.

ثم توجه إلى البصرة سنة ١٩٢٤/١٣٤٣ ولقي العالم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -الذي ترجمت له من قبل- وتزوج ابنته، وأقام بالبصرة ثلاث سنوات.

ثم سافر إلى المملكة ومعه توصية من الشيخ رشيد رضا إلى الملك عبدالعزيز قال له فيها:

"إن محمداً تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا منه".

فأقام في ضيافته بضعة أشهر، ثم عين مراقباً للمدرسين في المسجد النبوي الشريف لمدة سنتين، وأراد الملك عبدالعزيز أن يجعله إماماً في المسجد النبوي فرضي بشرط أن يسبح في الركوع والسجود عشر تسبيحات فطلب منه الملك أن يقولها ثلاثاً فقط خشية الفتنة، فرفض ولم يقبل الإمامة!! والذي فاوضه في ذلك هو الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رحمهما الله تعالى.

ثم انتقل إلى مكة فأقام فيها سنة يُدرّس في المعهد السعودي والمسجد الحرام.

ثم سافر إلى الهند -على إثر وشاية من أعدائه عند الملك- وصار رئيس أساتذة الأدب العربي في "ندوة العلماء" في لَكْنُو وبقي فيها أربع سنوات تقريباً تعلم فيها الإنجليزية، وكان يدرب الطلبة على الخطابة، وأنشأ بمساعدة تلميذه الشيخ مسعود الندوي مجلة "الضياء" التي تعلم الطلبة الكتابة والإنشاء.

ثم رجع إلى البصرة فأقام فيها ثلاث سنوات تقريباً معلمـــاً في مدرسة النجاة.

وفي العراق أراد التجنس بالجنسية العراقية فذهب إلى مـــدير وزارة الداخلية، وذلك سنة ١٩٣٤/١٣٥٣، فسأله المدير بفظاظة:

ما هي جنسيتك؟

فقال: مغربي.

فغضب المدير وقال: "جنسية هتشي ماكو" أي ليست هناك جنسية بهذا الاسم، قل: فرنسي!!

فقال له: بل هي موجودة فانظر ما هو مكتوب على الجـــواز باللغة الفرنسية: الدولة الشريفية، فلم يقتنع بذلك.

فقال له: هل كنت أنت انكليزياً قبـــل ســـنتين، أي قبـــل المعاهدة؟

فقال: نحن كنا عثمانيين، ومن بعد صرنا عراقيين.

فقال له: ونحن دولة مغربية منذ ما يزيد على ألف سنة، منـــذ أسس الإمام إدريس بن عبدالله الدولة المغربية، واستقلت عن الدولـــة العثمانية.

لكن هذا الجدال لم يُفد شيئاً، ورفض المدير معاملة التجنس، ثم حصل على الجنسية بعد سقوط الوزارة بعد تلك المحاورة بأيام.

ثم سافر إلى جنيف بطلب من الأمير شكيب أرسلان، وقـــد سقت ترجمته من قبل، ومن هنالك سافر إلى بون سنة ١٩٣٦/١٣٥٥

بتوصية من الأمير ليدرّس الأدب العربي محاضراً في جامعتها وقال الأمير في توصيته به إلى أحد أصدقائه في الخارجية الألمانية:

"عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله، وهو يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكاناً لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة"، وشرع في تعلم اللغة الألمانية، ثم صار طالباً في الجامعة ليجمع بين الدراسة والتدريس!!

وبقي في بون ثلاث سنوات ترجم فيها كتابين عربيين قديمين إلى الألمانية، وهما "البلدان" لمحمد بن الفقيه البغدادي المتوفى أواخر القرن الثالث، وكتاب "طيف الخيال" لمحمد بن دانيال الكَحّال الموصلي نزيل مصر.

ثم طلبت وزارة الدعاية الألمانية من وزارة التعليم ورئاسة الجامعة إعارة خدماته إلى جامعة برلين ليشرف على الإذاعة العربية التي أسست في بداية الحرب العالمية الثانية، فصار مرجعاً لغوياً للإذاعة إضافة إلى قيامه بمهام التدريس في جامعة برلين، ولم ينس أن يكون طالباً فيها أيضاً!!

واستطاع من خلال الإذاعة أن يفضح جرائم الفرنسيين في المغرب وجرائم الإنجليز، وألقى منها خطباً ناريّة قوية، فنفته فرنسا من المغرب نفياً تأديبياً عن بُعد، ونزعت بريطانيا جنسيته العراقية، فأين حرية التعبير؟!!

ثم قَدّم في صيف سنة ١٣٥٩/١٩٤٠ رسالة الدكتوراه لجامعة برلين وهي ترجمة لكتاب "الجماهر في الجواهر" مع تعليقات عليها فَنَّد

فيها آراء بروكلمان وغيره من المستشرقين الألمان، ورد عليهم رداً قوياً دافع فيه عن البيروني الذي ادعوا أنه كان زنديقاً شعوبياً، وذلك الدفاع استقاه من كتب البيروني نفسها، وناقشه في الرسالة عشرة من العلماء الألمان ووافقوه جميعاً على ما ذهب إليه، ونشر الرسالةَ ناشر ألماني لنفاستها.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية بعثه الحاج أمين الحسيني إلى شمال المغرب في مهمة سياسية وكان جواز سفره عراقياً إذ كان قد تجنس بالجنسية العراقية أثناء إقامته هنالك فرفضت السفارة العراقية تجديده لدسيسة انجليزية، فبعث إليه السفير المغربي جوازاً مغربياً على أنه من تطوان فساومه الإسبان على الدخول إلى تطوان -التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال الإسباني آنذاك- بأن يكتب مقالاً يوضح فيه أنه لا حق لأَلمانيا في المغرب وكان الإسبان يتخوفون من ألمانيا آنذاك، وكان لألمانيا مطامع في المغرب، فكتب المقال وذكر فيه أن المغرب لأهله وأنه لا حق لأحد من المحتلين فيه، ففرح بالمقال الاسبان ونشروه، وطلبوا منه ألا يكتب أي شيء بعد ذلك إلا بإذنهم وبقي عندهم ٥ سنوات، خبيراً في معهد الباحثين، ودعا إلى ترك البدع واتباع الكتاب والسنة.

وفي أثناء إقامته ورد عليه خطاب من الأستاذ البنا رحمه الله تعالى يطلب منه مراسلاً لجريدة "الإخوان المسلمون" وإن استطاع الهلالي أن يكون هو المراسل فليفعل، وفي ذلك قال الهلالي تحت عنوان "التعاون مع الإمام الشهيد حسن البنا رحمة الله عليه":

"وبينما المستعمرون الإسبانيون مغتاظون علي لأني نقضت العهد الذي بيني وبينهم لأمرين: أحدهما: الاتصال بالوطنيين والتعاون معهم، والثاني: إلقاء الدروس بدون إذنهم، وهناك ثالث وهو نشر المقالات في صحيفة "الحرية" لسان حزب الإصلاح الوطني إذا بهم يكتشفون أمراً عظيماً له بال هو أشد خطراً من كل ما تقدم؛ وذلك أن الإمام حسن البنا -رحمه الله ورضي عنه- كتب إلي يقول: إن صحيفتنا "الإخوان المسلمون" بلغت من الرواج والانتشار ولله الحمد إلى أن صارت في مقدمة الصحف اليومية التي تصدر في القاهرة، ولنا مكاتبون في جميع أنحاء العالم إلا في المغرب فليس لنا مُكاتب يبعث لنا بأخبار إخواننا المسلمين في هذا القطر المهم، فأرجو من فضلك أن ترشدنا إلى مُكاتب تختاره لنا وتخبرنا بما يطلب من المكافأة، وإن سمحت لك صحتك بأن تكون أنت بنفسك ذلك المكاتب فهو أحب إلينا، فأجبته:

لبيك يا لبيك يالبيكا   ها أنذا منطلقٌ إليكا

أنا الذي أتشرف بأن أكون مكاتباً لصحيفة الإخوان المسلمين، ولا أريد على ذلك أجراً إلا من الله تعالى".

فأرسل الهلالي عدة مقالات فاكتشف أمره لتواطئ ساعي البريد المغربي مع الإسبان فسُجن ثلاثة أيام في شفشاون مكان إقامته ثم أُفرج عنه بعد تذمر أهل المدينة وشكواهم إلى السفير الإسباني في طنجة وبعد إطلاقه نزع الإسبان منه جوازه بدعوى أنه مزور!! واجتمع بالبنا بعد ذلك سنة ١٣٦٦/١٩٤٧ في مركز الإخوان العام في القاهرة.

ثم سافر إلى العراق سنة ١٩٤٧/١٣٦٦ وعين مدرساً للكتاب والسنة وللأدب العربي في كلية الملكة عالية في جامعة بغـــداد، لكـــن صالح جبر رئيس الوزراء -وكان من الشيعة- منعه من العمل بحجـــة أنه عاد إلى العراق بجواز أجنبي وأنه تنازل عن الجنسية العراقية، وهذا لم يحدث إنما اضطر إليه الهلالي لأن السفارة العراقية في روما لم تجـــدد جوازه كما ذكرت من قبل، وفحص الهلالي عن السبب الحقيقي لهذا العداء فإذا هو بسبب تشيع صالح جبر، واطلع الهلاليّ على ملفـــه في دائرة التحقيقات الجنائية بمساعدة بعض أصدقائه فوجد فيه أنه معـــادٍ للشيعة، فمكث سبعة أشهر على ذلك حتى وقعـــت اضـــطرابات في العراق فرّ على إثرها صالح جبر ونوري السعيد وتولى محمد الصـــدر رئاسة الوزارة وأمر بإعادة الاعتبار للهلالي وإعادة تجنيسه، واستطاع بذلك أن يزاول عمله في الجامعة.

ثم بعد أربع سنوات رُقي إلى درجة أستاذ مساعد ثم أستاذ.

ولما حدثت ثورة الشيوعيين في العراق ســـنة ١٩٥٨/١٣٧٧ اضطربت الأوضاع جداً، وقُتل كثير من المسلمين ظلمـــاً وعـــدواناً، فخاف الهلالي على نفسه فخرج من العراق إلى المغرب وعين أســـتاذاً في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم في فرعها في فاس.

وبقي فيها إلى سنة ١٩٦٨/١٣٨٨.

ثم حج في تلك السنة فدعاه الشيخ عبدالعزيز بن باز ليكـــون أستاذاً في الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية المنورة وبقي فيها إلى سنة ١٩٧٤/١٣٩٤.

ثم عاد إلى المغرب وأقام في مدينة مكناس للدعوة والوعظ وإلقاء الدروس في المساجد، وتجول في أنحاء المغرب للدعوة.

ـــ همته:

ـــ والناظر إلى هذه السيرة العجيبة يعلم أن صاحبها كان ذا همة عالية جداً، فقد هان عليه السفر في زمن كان السفر فيه صعباً شاقاً، وهان عليه تحمل المشاق الكثيرة في سبيل الدعوة إلى الله والوعظ والإرشاد، حتى أنه كان يسافر ماشياً في بعض الأحيان.

وتعرض للأخطار الكثيرة فلم يأبه بها حتى أنه هُدد بالقتل فلم يرجع عما يعتقده ويؤمن به، رحمه الله تعالى.

ـــ ومن الدلائل على علو همته ما قاله أحد تلاميذه وهو أحمد هارون التطواني:

"لم يكن شيخنا ليضيع وقته مهما كان، يقرأ ويكتب الأشعار وهو في السيارة، يقضي يومه من الصباح إلى المساء في علم وتعليم وذكر وتأليف".

وقال أيضاً:

"يتميز أستاذنا باتصاله بالشعب، فأي شخص صغير أو كبير يستطيع أن يوقفه في الشارع ويتحدث معه، كما كان بيته مفتوحاً دائماً فتجد الأفواج تأتي إلى منزله وهو لا يمل من الترحاب والإكرام، وكان يقوم بنفسه قبيل صلاة الصبح يسخن لنا الماء لنتوضأ به".

ـــ مؤلفاته:

للهلالي كتب كثيرة تناهز الأربعين، وترجم صحيح البخاري إلى الانجليزية، وكان يكتب في مجلة "الفتح" لمحب الـــدين الخطيـــب، ومجلة "المنار" لرشيد رضا، ومجلة "الهدي النبوي" لجماعة أنصار السنة.

له ديوان شعر منه قصيدة قالها في انتقاد أخلاق المـــوظفين في العراق أيام الحكم الملكي، ومنها:

نحن في بلـــدة غـــدا الحكـــم فيهـــا -يـــا رحيمـــاً رحمـــاك- للبـــواب

إن يكـــن راضـــياً دخلـــتَ وإلا تبقـــى في الـــواقفين دون البـــاب

بلـــدة أصـــبح الموظـــف فيهـــا جالساً في السـماء فـوق السـحاب

مَن يُرِدْ أن يلقـــى الموظـــف يُبصـــرْ قبـــل أن يلقـــاه صـــنوف العـــذاب

ومنها يتحدث عن لقاء المدير:

وإذا ما ســـألت عنـــه فـــلا تســـمع منهم ســوى اخــتلاق الجــواب

هو عند الـــوزير بـــل في اجتمـــاع عنـــده زائـــر مـــن الأصـــحاب

لم يَجِـــئْ بعـــدُ فـــانتظر أو تـــأخر لغـــد أو فـــاغرب لغـــير إيـــاب

وإذا فـــزت باللقـــاء فحـــاذر رفع صـــوتٍ أمامـــه في الخطـــاب

وتجنـــب ذكـــر الحقـــوق وبـــالغ في خضـــوع وذلـــة وانتحـــاب

ثم قـــل في تملـــق وانكســـار وثنـــاء منمـــق مســـتطاب
ليت كل المـوظفين كمثـل البيـك في رقـــة ولـــين جنـــاب

إلى آخر ما قاله رحمه الله تعالى.

ـــ توفي رحمه الله تعالى سنة ١٩٨٧/١٤٠٧ بمنـزله في الدار البيضاء فيكون بذلك قد عاش قرابة ٩٧ سنة، وكانت خاتمته حسنة -إن شاء الله- فقد توضأ وصلى ركعتين وقرئ عليه سورة ياسين ثم طلب من القارئ الإعادة من قوله تعالى: "أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة" فلما وصل إلى قوله تعالى "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم" رفع الشيخ إصبعه إلى السماء وفاضت روحه رحمه الله تعالى.

قال عنه العلامة حماد الأنصاري:

"كان في اللغة العربية إماماً، وكان على مذهب ظاهري، وهو شيخي استفدت منه كثيراً، وكان سلفي العقيدة؛ لو قرأتَ كتابه في التوحيد لعلمتَ أنه لا يعرف التوحيدَ الذي في القرآن مثلُه".

وقال أيضاً:

وقد مضت علي الآن خمس وأربعون سنة لم أر مثله.

والعجيب أن الشيخ عبدالحميد بن باديس مدحه سنة ١٣٥٦/١٩٣٨، أي قبل موت الهلالي بإحدى وخمسين سنة!! فقال عنه:

"والأستاذ العلامة محمد تقي الدين الهلالي -صاحب الفصول الممتعة، والبحوث الجليلة في صحيفة "الفتح"- من أفاضلنا اللذين أجمع على الاعتراف بفضلهم الشرق والغرب، والعرب والعجم، والمسلمون وغير المسلمين، فهو في الحجاز نار على علم شهرة وفضلاً، وفي الهند تبوأ منصة التدريس في أرقى جامعاتها، وفي العراق معروف بدأبه على خدمة هذه الأمة وحرصه على خيرها، وهو الآن في ألمانيا موضع الحرمة من أركان جامعة بون التي يتولى التدريس فيها؛ فالأستاذ الهلالي رجل علمي واسع النظر واقف على أحوال الشرق والغرب لذلك كان ما يقرره في بحوثه من حقائق يأتي ناضجاً مفيداً ممتعاً...".

فانظروا إلى هذه الشمائل والخلال التي كان يتحلى بها قبل ٥١ سنة من وفاته!!.

ـ قوته في الحق:

كان الشيخ قوياً في الحق لا يعرف اللين فيه ولا المحاباة، وجرى له بسبب ذلك أحداث عديدة منها أنه لما سافر إلى مصر -كما بينت من قبل- قصد الإسكندرية، وفي الطريق أدركته صلاة الظهر في إحدى القرى فصلى في مسجد فرأى فيه قبراً والناس تتمسح به ويطلبون منه المدد والحوائج، فأنكر عليهم بشدة فضربوه حتى أغمي عليه، وأنقذه الله بمن رش على وجهه الماء وأخذه إلى بيته يمرضه شهراً كاملاً، ونصحه -بعد أن عاتبه على قلة مداراته- بالذهاب إلى الملك عبدالعزيز فسيجد عنده بغيته.

ــ ومن مواقفه أنه كان إماماً لمسجد بناه الوجيه مصطفى إبراهيم في منطقة الدورة بالبصرة، وفي مرة من المرات حانت صلاة المغرب فتأخر صاحب المسجد عن الحضور في موعد الصلاة فأقام الهلالي الصلاة وصلى و لم ينتظره، وبعد الصلاة عاتبه لأنه لم ينتظره، فقال له: إن وقت المغرب قصير ولا يصح التأخير، فقال: ألا تعلم يا شيخ تقي الدين أني أملك نصف منطقة الدورة؟!!

فقال: وأنا أملك النصف الآخر!! وأنا إمام المسجد.

ثم غادر المنطقة و لم يَعُد إليها.

وقد استشاره الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رحمهما الله تعالى في قطع النخلة والشجيرات وطَمِّ البئر التي في المسجد النبوي الشريف لما افتتن بها العامة فأشار عليه بصنع ذلك، فاستأذن الشيخ عبدالله بن حسن الملك عبدالعزيز في هذا الصنيع فأذن له فقطعت النخلة والشجيرات وطُمّ البئر.

ــ مروءة الشيخ:

كان الشيخ رحمه الله تعالى صاحب مروءة وشهامة، يساعد الناس ويقضي حوائجهم، وإليكم هذه القصة المعبرة التي تدل على ذلك، فقد تحدث الشيخ عن تلميذة درست عنده اسمها نـــزهة فقال:

"صارت "نزهة كويز" من تلميذاتي قبل ثلاث سنين، ولما عرفت ما أوجب الله عليها من ستر العورة والتمسك بالعفاف عزمت على أن تعصي والديها ولا تعود إلى المدرسة، فلما حان ابتداء السنة

الدراسية أخبرت أهلها بذلك، فقالا لها: أجننت؟ كيف تتركين الدراسة بعد ما نجحت في السنة الخامسة من الثانوي وتضيعيننا وتضيعين نفسك؟

فقالت لهم: إني قد علمت من دروس الدكتور محمد تقي الدين ابن عبدالقادر الهلالي الحسيني أن ما ترتكبه المدارس الثانوية من إجبار الفتيات على التجرد من ثيابهن بحيث لا تبقي إلا خرقة رقيقة تستر القبل ستراً كالعدم، وأخرى مثلها تستر الدبر ويكون ذلك أمام رجال المدرسة من معلمين وطلاب، ومن يمر بجانب المدرسة من عابري السبيل، حرام شرعاً، وهي بذلك تشير إلى ما تلبسه الطالبات إذا نزلن المسبح.

وجاءتني باكية فذهبت إلى طبيب مشهور في مكناس، والتمست منه أن يكتب لها شهادة بأنها مريضة، وأن الرياضة البدنية التي يتستر بها المجرمون في تعرية الفتيات وهن ما بين السادسة عشرة والثانية والعشرين لا تتفق مع صحتها، فلما قدمت الشهادة إلى مدير المدرسة بعثها إلى طبيب فرنسي ففحصها ووجدها صحيحة لا مانع لها من الرياضة البدنية بل التعرية الشيطانية، فرجعت إليَّ باكية أيضاً وكان عندي سبعة من المعلمين في المدارس الثانوية يتلقون دروساً من كتابي "تقويم اللسانين" فعرضت عليهم المشكلة، فقالوا: إن مدير المدرسة التي تدرس فيها نزهة متدين وقد حج بيت الله، فنحن نتوجه إليه ونسأله إعفاءها من درس الرياضة البدنية الذي يتسترون به على كشف عورات النساء وتعويدهن على الوقاحة وقلة الحياء بل عدمه فيصلن بذلك إلى الفجور.

فذهبوا إليه وإلى الحارس العام الذي يشاركه في التصرف فاعتذر المدير بأنه يخاف المفتش خصوصاً، وقد ثبت أنها تستطيع أن تلعب الرياضة، فقال الحارس العام: إذا وافقني المدير فنحن نعفيها من ذلك، فأُعفيت من تلك السنة، وكانت تحافظ على صلاة العصر في وقتها فيجتمع عليها سفهاء المدرسة من الرجال والنساء، ويقولون: هذه الجدة جاءت!! هذه الحاجة جاءت!! تقبل الله!! استهزاء بها، فلا تبالي بهم، وتؤدي صلاتها بغاية الاطمئنان، لا تألوا جهداً أن تصلي صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واتفق أني في تلك السنة اتصلتُ بصاحب الفضيلة رئيس تعليم البنات الشيخ ناصر بن حمد آل راشد، فبعث إليّ مدير التعليم سعادة الأستاذ الشيخ عبدالله العقيل وقدم عليّ في مدينة الدار البيضاء، وأقام أياماً تكرر اجتماعنا فيها، وأخبرني: بأن سماحة رئيس تعليم البنات الشيخ ناصر بن حمد آل راشد يقبل خمس طالبات كل سنة يكملن تعليمهن في دائرة تعليم البنات بالمملكة العربية السعودية، وكان في ذلك فرج ومخرج لنـزهة كويز، فكانت أولى الطالبات الخمس، وفرحت بذلك فرحاً عظيماً، وقد استجاب الله دعاءها، فأخرجها من الظلمات إلى النور.

ولما حان وقت سفرها مع سائر الطالبات ذهبت إلى المدرسة التي كانت فيها لتأخذ كتاباً أعارته طالبة أخرى، فرآها المجرم المكلف بتعرية الطالبات يوم الثلاثاء من كل أسبوع بذريعة ممارسة الرياضة البدنية فنظر إليها شَزْراً -أي من طرف عينه احتقاراً- وأوسعها هُجْراً، أي سباً مُقْذِعاً، وقال لها: لماذا غطيت رأسك أمريضة أنت؟

فأجابته: إن الإسلام أمرني بتغطية رأسي.

فقال لها بالفرنسية ما معناه "في نظري واعتقادي لا وجود للإسلام".

ولما أخبرتني بذلك استشطت غضباً، وقلت لها: هلا قلت له: وفي اعتقادي أنا: أنت لست موجوداً، وأنت تعلمين أنه لم يبق له عليك سلطان، ولكن الفتاة المسلمة غلبها الحياء، وقد درست هذه الطالبة السنة الماضية في مدارس تعليم البنات بالرياض ونجحت، وهي الآن تدرس في هذه السنة هناك.

والفتيات المسلمات الطاهرات إذا سافرن للتعلم في مدارس السعودية يتلقين تغطية الوجه مع التستر التام بغاية السرور والفرح، وقد كتبت إلي إحداهن وهي آمنة الهاشمي ممن بُعثن في هذه السنة بعدما وصلت إلى الرياض، ورأت في الطريق كيف يعامل الناس الطالبات المسلمات بغاية الاحترام والتكريم، افتتحت الكتاب بهذه العبارة: "الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور".اهـ.

ـ من عجائبه:

كان الشيخ ذا عجائب كثيرة وقعت له في حياته، ومن أكثرها وأعجبها ما وقع له حال انتسابه إلى الطريقة التيجانية وفي طريقة خروجه منها وبعد الخروج، وقد بين كل ذلك مفصلاً في كتابه: "الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية"، فلينظره من أراد الوقوف عليها فهي كثيرة يضيق المقام بذكرها.

ومن عجائبه أنه كان يعرف خمس لغات معرفة متقنة إضافة إلى إمامته في الفصحى وهي الألمانية والإنجليزية والفرنسية والعبرية والإسبانية، ويعرف البربرية، ويشارك في الأردو والسُرْيانية.

ــ وكان كثير الزواج، فقد تزوج في المملكة وله ابنتان فيها.

وتزوج في العراق وله أولاد هنالك اتصل أحدهم بالشيخ ابن باز رحمه الله تعالى أيام حرب الخليج الأولى وكان في مخيم رفحا للاجئين، فاهتم الشيخ ابن باز كعادته به وطلب من المسؤولين أن يحضر إلى الرياض هو وأولاده وأكرم وفادتهم حتى عادوا إلى العراق.

وتزوج في المغرب لكنه لم يرزق بأولاد من تلك المرأة.

وتزوج قبلها بأم شكيب وهي مغربية وله منها ابن وبنت.

وتزوج في ألمانيا بامرأة مسلمة وله ولد منها.

ــ ومما حصل له وهو يدعو إلى العجب أنه كان يتحدث مع البروفيسور شميت مدير مستشفى العيون التابع لجامعة بون بألمانيا، وهو أحد العلماء العشرة الذين يتألف منهم مجلس الجامعة الأعلى، وذلك سنة ١٣٧٤/١٩٥٤ فوجده يعتقد أن الدولة العثمانية وسلاطينها ما زالوا موجودين!! وهذا غريب من عالم كبير ومدير لمستشفى؛ فقد سقطت السلطنة العثمانية والخلافة قبل ذلك الحديث بثلاثين سنة فكيف لم يصل ذلك إلى علمه!!

ملحظ: ذكر الدكتور محمد بن لطفي الصباغ أن الهلالي قدم عليهم في دمشق سنة ١٣٧٣/١٩٥٣ وكان كفيف البصر، ويستعمل

في القراءة طريقة بريل، وهذا عجيب فإني لم أقرأ لأحد أن الهلالي كان كفيفاً.

لكني قابلت تلميذه الأستاذ محمد الموسوي صاحب مكتبة الحكمة في الدار البيضاء فأكّد لي أنه كان كفيفاً، فعلمت أن مَن ترجم له أغفل ذكر هذا الأمر وهو نقص في الترجمة ولاشك؛ لأن هذا العمى مما يزيد في التأكيد على عظمة الشيخ وعلو همته[1].

---

(١) وجدت له في كتابه "تقويم اللسانين" ص ٦١ نصاً يذكر فيه ضعف بصره وعدم قدرته على القراءة، فيبدو أنه فقد بصره تدريجاً.

٢- الشيخ القوي
محمد الحامد
١٣٢٨ – ١٣٨٩

١٩١٠ – ١٩٦٩

في التاريخ الإسلامي مشايخ كثيرون لا يُعدون ولا يُحصون لكن قليلاً من أولئك الكثير كانوا عاملين، والأقل منهم كانوا متصدين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان من هؤلاء فضيلة الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى.

ولد في حماة -مدينة أبي الفداء- سنة ١٣٢٨/١٩١٠، وهي مدينة النواعير -حاملات المياه الدائرة- قال عنها ابن بطوطة رحمه الله تعالى: "حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق والجمال الفائق، تحفها البساتين والجنات، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي".

وقال عنها ابن سعيد الأندلسي: "وفي حماة مَسْحَةٌ أندلسية".

وكان للشيخ شقيقان أحدهما أكبر منه وهو شاعر يسمى بدر الدين، والآخر أصغر منه وهو عبدالغني، ووالدهم الشيخ محمود كان شيخ النقشبندية في حماة، وكان قليل ذات اليد، حادّ الطبع، ورعاً، عفيفاً، يُعلم الأطفال في الكُتاب، ثم ما لبث أن توفي وكان عمر الشيخ محمد الحامد ست سنوات آنذاك.

وبعد سنة فقد الشيخ أمه فصار إلى اليُتم وفقد حنان الأم، وعاش الأولاد الثلاثة في محنة لأنه لا مورد لهم، ولأن الحرب العالمية الأولى ضيقت العيش على الناس جداً، وكان الولد الأكبر بدر الدين لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره آنذاك، فباع أقرباؤهم أثاث المنـــزل ثم أجّروه، وأودعوا أجرته عند بعض الثقات ليتولى الإنفاق

عليهم، وسكن الإخوة مع بعض الأسر الفقيرة يعانون من الجوع والحرمان.

ودرس الشيخ محمد وأخوه الأصغر في إحدى المدارس الابتدائية، وكانا يعانيان من مرارة الجوع والحرمان، ووصف ذلك الشيخ محمد بقوله: "كنا كثيراً ما نبقى في المدرسة أثناء فرصة الغداء دون طعام، حتى أن أخي كان يبكي أحياناً من شدة الجوع، على حين أشغل نفسي باللعب عن آلام الحرمان".

وكان أخوهما الأكبر قد اضطر لاختصار دراسته فقطع تعليمه الثانوي ليعمل وينفق عليهما بسبب ذلك الضيق فكان لهما بمثابة الأبوين؛ فقد عمل وكيلاً مزرعة، وشارك في دكان صغيرة "بقالة" وغير ذلك ليوفر بعض المال، وأخذ أخويه إلى بيت أخواله فأعطوهم غرفة عندهم، ثم لما استغنى قليلاً انتقل بأخويه إلى غرفة منفردة في دار منعزلة:

فرغ الشيخ محمد من دراسته الابتدائية لكنه لم يُرد أن يكمل الدراسة وآثر عليها حلقات العلم عند المشايخ، واشتغل في محل خياطة في النهار، وفي المساء يقصد حلقات العلم.

فلما افتتحت مدرسة "دار العلوم الشرعية" هجر العمل في الخياطة إليها سنة ١٣٤٢/١٩٢٤، واستمر في حضور الحلقات العلمية وكان في ذلك صاحب همة عالية، إذ بلغت تسع حلقات!! وكان من مشايخه خاله العلامة السلفي الشيخ سعيد الجابي، وشيخ الشافعية بحماة محمد توفيق الصباغ والعالم الورع أحمد المراد أمين الفتوى في

حماة الذي تزوج الشيخ محمد الحامد ابنته قبل أن يكون له أي مورد منتظم، والشيخ محمد سعيد النعسانيّ مفتي حماة.

وفي سنة ١٣٤٧/١٩٢٨ أنهى الشيخ محمد دراسته في المدرسة وسافر إلى حلب ليدرس بمدرسة خسرو باشا الشرعية التي كانت أرقى المدارس الشرعية في بلاد الشام لعظم مدرسيها وجودة منهاجها، وجَدّ في طلب العلم وثابر حتى نبغ، ووصفه أحد مشايخه -وهو الشيخ أحمد الشمّاع- بأنه "بحر علم لا تنــزحه الدلاء".

ولم يكتف بالمدرسة بل واظب على حضور حلقات العلم خاصة حلقة الشيخ نجيب السراج، وصار يكثر من القراءة والمطالعة لأنه كان يرى أن "المناهج الرسمية تُعنى بتكوين الشخصية العلمية، أما التضلع من العلم فطريقه المطالعة الواسعة".

ثم لما فرغ من الدراسة في حلب يمم وجهه شطر مصر وأزهرها سنة ١٣٥٦/١٩٣٧ لكنه نفر من مظاهر السفور التي انتشرت في مصر آنذاك، والاختلاط الفاحش السائد هنالك آنذاك، حتى أنه كتب لأحد مشايخه يقول له: "ماذا يأمل طالب العلم الحقيقي في مصر وهو يرى المحرمات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله".

ولم يسترح لتفلت المشايخ في الأزهر من السمت الإسلامي فيصفهم بقوله: "غير عاملين بالسنة، وليس عندهم شيء من الروحانية، وطلبة الأزهر يحلقون لحاهم وشواربهم، وكثير منهم لا يصلون!!! وهم يشاغبون أثناء الدروس، ويقرأون في الجرائد لعدم

رغبتهم في العلم وقلة تشوقهم له، ولئلا تكثر عليهم المقروءات فيصعب الفحص فهم طلاب شهادات لا طلاب علم".

ولما رأى ذلك كله سارع بالعودة إلى حماة فصار كثير من الناس يقرعونه على خروجه من مصر وتفويته تلك الفرصة فاضطر للعودة لكن الله تعالى أنجده بثلة من الشيوخ والدعاة كان على رأسهم الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، وقد تأثر به الشيخ محمد الحامد وقال عنه:

"إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين في مجموع الصفات التي تحلى بها وخفقت أعلامها على رأسه الشريف، لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبرين، وحنكة السائسين، لا أنكر هذا كله عليهم من سابقين ولاحقين، لكن هذا التجمع لهذه المتفرقات من الكمالات قَلّما ظفر به أحد كالإمام الشهيد -رحمه الله- ، كان لله بكليته بروحه وجسده، بقلبه وقالبه، بتصرفاته، وتقلبه، وكان الله له واجتباه، وجعله من سادات الشهداء الأبرار".

وقال عنه البنا أيضاً:

"والذي أثر في نفسي تأثيراً من نوع خاص وله يد في تكويني الشخصي سيدي وأخي في الله وأستاذي الإمام الشهيد حسن البنا... صحبته في مصر سنين، وحديثي عنه لو بسطته لكان طويل الذيل ولكانت كلماته قطعاً من قلبي، وأفلاذاً من كبدي، وحُرَقاً من حرارة

روحي، ودموعاً مُنهلة منسابة تشكل سيلاً من فاجع الألم وعظيم اللوعة".

ــ وكان الشيخ محباً للرحلات، فلما كان في مصر دار في بلادها وقراها حتى وصل إلى أسوان، على صعوبة نسبية في التنقل آنذاك، وزار الفيوم وشبهها بحماة خاصة نواعيرها.

وحصل في الأزهر على شهادة العالية تخصص القضاء سنة ١٣٦٢/١٩٤٢، ثم لم يرد أن يواصل الدراسات العليا وعاد إلى حماة ووُظف مدرساً في وزارة التربية والتعليم.

وهناك جلس للتعليم بدأب وهمة عالية لا ينشغل عنه إلا بضرورات الحياة وحاجاتها، أو بما ينشغل به من كتابة كتب ورد على استفتاءات، وكان قد برز وتميز في المذهب الحنفي حتى صار أحد أعمدته في بلاد الشام.

ــ جهاده:

كان الشيخ رحمه الله مشاركاً في مجاهدة الفرنسيين الذين احتلوا بلاد الشام ظلماً وعدواناً وعاثوا في أرضها الفساد ونادى بالاستقلال، وكان يُذكي بخطبه الحماسية جذوة الجهاد داعياً إلى الثورة ضد الفرنسيين.

وكان يخطب وطائرات العدو الفرنسي يوم الجمعة تقصف حماة مراراً، وتلقي بقنابلها حتى على المساجد، وكان مما يقوله آنذاك:

"أيها المسلمون: أعدوا أنفسكم للجهاد، وَطِّنوها على الموت، موت شريف خير من حياة تعيسة... ركوب الصعاب والأهوال في

ارتفاع أجمل بكثير من الراحة والدَعة في استخذاء..." ولما استقلت سوريا رفع بنفسه العلم فوق ثكنات الفرنسيين العسكرية بعد أن رفع الأذان فيها بنفسه.

ثم أراد أن يشارك أخاه الدكتور مصطفى السباعي في الجهاد في فلسطين لكن علماء حماة منعوه؛ لأنهم رأوا أن بقاءه معلماً ومهذباً وداعياً أولى من الذهاب للجهاد، فاستجاب لهم، لكنه انضم إلى اللجان التي شكلت لمساعدة الفلسطينيين وجمع المعونات لهم، وكان يطوف على الناس من أجل هذا، ولما وقع العدوان الثلاثي على مصر ١٣٧٦/١٩٥٦ انضم الشيخ إلى صفوف المقاومين الشعبيين، وحمل السلاح وكان يخرج إلى أحد الحقول للتدريب، والشيء نفسه صنعه لما وقعت النكبة الكبرى ١٣٨٧/١٩٦٧.

وكان دائماً يوصي الشباب بالدخول في الجيش.

ــ دعوته:

كان الشيخ داعية إلى الحق والخير والهدى والرشاد، مثابراً في ذلك، وقد التف عليه الناس وأحبوه، ومن جملة أعماله في الدعوة ما حكاه عن نفسه بقوله:

"لما وجهت إليّ وزارة المعارف تدريس الديانة والعربية في "تجهيز حماة" كنت كثير التشاؤم من حال الطلاب ووضعهم، ولكن بعد قليل تبدل تشاؤمي تفاؤلاً وانقباضي انبساطاً واستبشاراً؛ حثثتهم على الصلاة فصاروا يصلون، ويحضر بعضهم الدرس العام، وقذف الله تعالى النور في قلوبهم فشعروا بتفريطهم الماضي؛ فطفقوا يسألونني عن

أحكام تتعلق بقضاء الفوائت، ومن قريب سألني أحدهم عن حكم يتعلق بقيام الليل مبدياً رغبته في قيامه"، وهذا هو تأثير الداعية القوي فيمن حوله إذا أخلص واجتهد وثابر.

وكان الشيخ خطيباً قوياً مؤثراً يخطب في جامع السلطان في حماة ويوجه الناس إلى الخير والهدى، وكان فصيحاً بليغاً بعيداً عن اللحن.

ويعود له الفضل بعد الله تعالى في تهدئة مدينة حماة عند ثورة الشهيد -بإذن الله- مروان حديد، وقد اعتصم في جامع السلطان فُهدم المسجد فوق أهله وسقطت مئذنته، وجرت أحداث خطيرة، فقام على رأس وفد من أهل المدينة، يُهدئ الخواطر ويقمع الفتنة، ومنع العسكر من دخول المدينة بجرأة وقوة.

وكان له الفضل -بعد الله تعالى- في التصدي لموجات الإلحاد التي طغت آنذاك، إذ إن سوريا لما استقلت تنازعتها التيارات الضالة من كل جهة، وانتشر فيها فساد لم يُعرف من قبل، فوقف الشيخ في وجه تلك التيارات للحفاظ على عقيدة الأمة وأخلاقها.

وكان له حلقة في الجامع يؤوب إليها أهل الهوى والضلال أو أهل العصيان.

وكان له أثر بالغ في قيادة وتوجيه أهل مدينة حماة.

وكان يذهب إلى مجتمعات الناس ليعلمهم ويرشدهم فإذا ذُكِّر بتعبه ومرضه قال: ماذا أصنع هذا واجبي وهم لا يحضرون الدروس في المساجد.

وكان يرى أن سبب انتشار الفساد هو سكوت العلماء، وله في ذلك كلمة جليلة منها:

"والله ما أفشى المنكرات وعممها وجعلها ظاهرة لا يبالى بها إلا إغضاؤنا على القذى وسكوتنا على الباطل وممالأتنا لأصحابه، ما ضر الجماهير شيء كسكوت الواعظين حين يرون المخالفات العلنية فلا يزجرون عنها".

ولذلك كله فإن الشيخ لم يحج إلا حجة واحدة فقط، فكان يقول: "كيف أذهب إلى الحج وأترك البلد خالية ليس فيها من يُفتيها ويحل قضاياها الشرعية بعد أن ذهب معظم العلماء إلى الحج؟ كيف أذهب إلى حج النفل وأترك طلابي في المدرسة وهم أمانة في عنقي أسأل عنهم أمام الله تعالى".

ـــ قوته في الحق:

كان الشيخ -رحمه الله تعالى- قوياً في الحق، لا يهادن فيه أحداً؛ حتى أقرب المقربين إليه، وقد هجر أخاه عبدالغني زماناً طويلاً بسبب شذوذه في فهم آية من كتاب الله تعالى.

وكان يرفض حضور الحفلات الرسمية لما فيها من اختلاط بين الرجال والنساء.

وكان ينـــزع خواتم الذهب بيده من أيدي الكبراء والوجهاء.

وحضر مرة عند أحد أصدقائه وكان هناك شاعر حموي، وهو طبيب فتلفظ بكلام لم يَرُق للشيخ، فأنكر الشيخ ذلك وغادر المجلس.

وأثناء تداويه في بيروت قال له أحد المتصوفة إن النبي صلى الله عليه وسلم خُلق من نور، فاستتابه الشيخ -رحمه الله تعالى- وجدد إسلامه وعقد نكاحه، بعد أن أخبره أن هذا القول كفر، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خلق كما خُلق سائر البشر.

ـ صفاته:

كان جريئاً قوياً في الحق، مداوماً على الذكر وقراءة القرآن، غزير العَبْرة كثير البكاء، ناصحاً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مشفقاً على أصحابه وإخوانه، بعيداً عن النـــزاع والشقاق، مستمسكاً بالنصوص الشرعية.

وكان ورعاً، وله في الورع قصص عجيبة تذكّر بورع السلف، خاصة في طلب المال الحلال والتعامل مع الباعة والعمال، رحمه الله تعالى.

قال فيه الشيخ الطنطاوي رحمهما الله تعالى:

"كنت أخالف الشيخ في مسائل الفقه ... وأشهد مع ذلك أن الشيخ كان صادقاً مع الله، صادقاً مع نفسه، وقد جعل الله له من الأثر في الناس ما لم يجعل لعشرات من أمثالي".

وقد صحبه في مصر فوجده "صاحب نكتة، وفي روحه خفة على القلب، وفي سلوكه أنس للنفس.

ـ تنازع التصوف والسلفية في صدره وعقله:

كان للشيخ مشايخ سلفيون منهم خاله الشيخ سعيد الجابي -كما سبق ذكره- وكان قد اتجه إلى الدعوة السلفية في بداية حياته، ثم

تحول عنها إلى التصوف في حلب وناله بذلك بعض الأذى، وكان له شيخ صوفي أثير لديه وهو الشيخ أبو النصر خلف، فكان يرى في شيخه أبي النصر سمات الزهد والورع والتقوى وانضباط المسلك لكنه إذا قرأ في كتب المتصوفة مثل "الإنسان الكامل" للجيلي، وكلام ابن عربي ضاق صدره وراجع شيخه.

وفي الوقت نفسه كان يحب الكتاب والسنة ولكنه إذا رأى من بعض السلفيين الدعوة إلى نبذ كتب الفقه، والأخذ من الكتاب والسنة ونبذ آراء الفقهاء ضاق صدره، فإذا رأى جفاف قلوب بعضهم وقسوتهم وشدتهم ضاق صدره أيضاً وأخبر شيخه بذلك.

وقد ألف رسالة في الرد على هؤلاء المتفلتين من زمام الفقه والفقهاء سماها "لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية".

وكان يقول -مُوَفِّقاً بين الصوفية الصحيحة والسلفية الصادقة-:

"السلفية الحقة تجتمع مع الصوفية الصحيحة متى حسن الفهم وصح العزم على الجمع الذي هو شأن الدعوة وأَرَب الإخوان، وإذا زخرت الصوفية بالروحانية الغامرة والرقة العميقة فليست بمنكرة على أختها السلفية تحريها تنقية الإسلام مما لابسه من الغرائب عنه كي يعود إلى صفائه وخلوصه".

وكان يقول:

"العلم هو الأمير على التصوف"، وهذا ضابط حسن.

ــــ حبه للعلم :

لقد كان الشيخ -رحمه الله تعالى- متعلقاً بالعلم الشرعي مؤثراً له على كل شيء حتى أنه قال عن نفسه: "وإني أحمد الله على توفيقه وتيسيره إياي للتوسع العلمي ووضعه الشغف به في قلبي حتى أني لأوثر العلم على اللذائذ المادية التي يقتتل الناس عليها، ولو أني خُيرت بين الملك والعلم لاخترت العلم على الملك والسلطان".

وكان لا ينقطع عن مذاكرة العلم حتى في أوقات خروجه للنـــزهة.

وكان قد استفاد من الأزهر البحث العلمي الدقيق فكان يظهر في مؤلفاته أثر ذلك.

ــــ اهتمامه بأهله:

كان الشيخ رحمه الله حسن الالتفات إلى زوجه فعلمها العلم الشرعي وهذب أخلاقها، وإلى أولاده فعلمهم وهذبهم، وهذا عمل قَلّ مَن يلتفت إليه من المشايخ الذين تزدحم عليهم أعمالهم وأشغالهم فلا يلتفتون إلى أهلهم حق الالتفات ولا يحسنون القيام على شؤونهم قياماً حسناً، وهذا هو أحد الأسباب في أن أولاد المشايخ والعلماء والدعاة قَلّ منهم من يتابع مسيرة أبيه.

ــــ من مؤلفاته:

للشيخ عدد من الكتب منها "نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام" نقد فيه كتاب الدكتور مصطفى السباعي.

وكتاب "ردود على أباطيل" في جزئين.

و"حكم الإسلام في الغناء".

و"حكم اللحية في الإسلام".

وكتاب في تحريم نكاح المتعة.

و"رحمه الإسلام للنساء".

"وحكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية" وغير ذلك رحمه الله تعالى.

ـــ شعره:

كان الشيخ رحمه الله شاعراً موهوباً له شعر جيد وأخوه بدر الدين شاعر جيد، كان له شعر جهادي قوي أيام الفرنسيين، واشتهر بقصائده الوطنية:

ومن شعر الشيخ:

آهاً على وادي حما ... ة إذا نسيم الصبح هبّا

آها على تلك الربو ... ع وأهلها بعداً وقرباً

النهر يخترق الريا ... ض وقد جرى حلواً وعذباً

دولابه يبكي ويس ... قي الدمع فاكهة وأبّا

أنّى أرى ذاك الحمى ... إني رأيت البُعد صعبا

وقال -من قصيدة- عندما خرج من مصر وانتهى من الدراسة النظامية فيها:

ذُبت يا مصر مُذ عزمت رحيلاً ولو استطعت عشت فيك طويلاً

وقال أيضاً:

ياعين جُودي بدمع منك مدرارِ على زمان مضى والأهل والدارِ

أيام أرتع في ظل النعيم ومن طيب حسرة قد قضيت أوطاري

فإن ذكرت الحمى حَنّ الفؤاد له إذ في المصائب قد قضيت أسفاري

لكن الشيخ على كثرة أشعاره آثر العلم على الشعر، وقد كتب في هذا الأمر رسالة إلى بعض تلاميذه يقول فيها:

"يابني لأَن تكون عالماً فقيهاً خير لك وللأمة من أن تكون شاعراً أديباً، إننا إلى أن يكون منك عالم محقق أَحْوَجُ منا أن ينشأ منك شاعر مُفلق.. لابأس بقليل منه يُنظم في الأغراض الشريفة والمقاصد الحسنة، أما انصراف الهمة إليه فخسرانٌ أَرْبأُ بك عنه.. ".

ـــ وفاته:

توفي في حماة سنة ١٩٦٩/١٣٨٩ عن قرابة ستين سنة رحمه الله تعالى على أثر مرض في الكبد لم يمهله طويلاً، وكانت جنازته حافلة.

وكان قد تعالج في بيروت قبل أسابيع من وفاته لكن ذلك لم ينفعه، رحمه الله تعالى ونفع بعلمه.

ومن عجائبه في مرضه أنه لم يكن يقبل أن يُنقل إليه دم إلا أن يكون دم رجل صالح، ويقول: "لا أحب أن يخالط دمي إلا دم مؤمن ركع لله وسجد".

٣- رائد التجديد الشامي
طاهر الجزائري
١٢٦٨ – ١٣٣٨

١٨٥٢ – ١٩٢٠

عاش الشيخ رحمه الله في زمن عصيب، فقد كانت الأمة الإسلامية في إدبار وتراجع، وكثير من ديار الإسلام في يد الكافرين يعبثون بثرواتها ويغيرون من عقائد أهلها وأخلاقهم، وليس هنالك كبير أمل في العودة إلى السيادة والعز والتمكين، في تلك الأحوال الصعبة والدياجير المظلمة عاش الشيخ طاهر الجزائري، وحاول أن يصلح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وطرق أبواباً عدة لكنه لم يجد على الخير أعواناً كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم أهل الحق في آخر الزمان.

ولد في دمشق سنة ١٢٦٨/١٨٥٢، وأصله من الجزائر من قبيلة سمعون التي كانت تقيم في منطقة القبائل، وكان والده صالح بن أحمد السمعوني من قضاة الجزائر المالكية فخرج من الجزائر إلى دمشق واستقر فيها وأصبح مفتياً للمالكية، وذلك سنة ١٢٦٣/١٨٤٧ أي بعد احتلال فرنسا للجزائر بسبعة عشر عاماً تقريباً، وكان ذلك بسبب توقف ثورة عبدالقادر الجزائري ونفيه، فهاجر هو ومجموعة من مشايخ الجزائر في سنة عُرفت بسنة هجرة المشايخ.

درس الشيخ طاهر في المدرسة "الجُقْمُقِية" مبادئ العلوم المختلفة، وأتقن العربية والفارسية والتركية وكان ينظم بهذه اللغات الثلاث الشعر، وتعلم الفرنسية والسُريانية والعبرانية والحبشية والبربرية!!

أما العربية فقد أتقنها حتى كان يوصف بأنه "لسان العرب وخزانة الأدب".

وكان له شيخ اسمه عبدالغني الميداني قد أثر فيه تأثيراً عميقاً، وأبعده عن التعلق بالخرافات.

ـــ وظائفه:

ـــ درّس في المدرسة الظاهرية الابتدائية.

ـــ كان عضواً في الجمعية الخيرية التي أسسها هو وعلاء الدين عابدين وبهاء بك مكتوبجي سنة ١٢٩٤ التي أصبحت "ديوان معارف" في عهد الوالي مدحت باشا، وهي جمعية تُعنى بنشر العلم، وترميم المدارس والمساجد، ومقاومة النشاط التنصيري.

ـــ عين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية سنة ١٢٩٥، ثم مفتشاً عاماً للمعارف في ولاية سورية فتعهد المدرسين بالنصح والتوجيه، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل إصلاح التعليم.

ـــ عُين سنة ١٣١٦/١٨٩٨ مفتشاً على دور الكتب العامة في ولاية سورية ومتصرفية القدس.

ـــ عُين عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

حلقة دمشق الكبرى:

كان الشيخ طاهر يعقد حلقة فكرية كبرى كل يوم جمعة بعد الصلاة في منزل رفيق العظم، ويحضرها كبار المفكرين والمصلحين مثل جمال الدين القاسمي العالم المفسر المشهور، ورئيس علماء الشام سليم البخاري، وعبدالرزاق البيطار العالم المشهور صاحب "حِلْية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر"، ومنهم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر،

ومنهم سليم الجزائري ابن أخيه، ومحمد كرد علي وغيرهم، وكان يثير في الحلقة قضايا الإصلاح والنهضة والأخذ بالصالح من الحضارة الغربية، ودراسة التاريخ والتراث، واللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التمسك بمحاسن الأخلاق.

ــ لكن الشيخ طاهراً لم يستطع أن يوسع من هذه الحلقة ليجعلها بداية حقيقية لنهضة شاملة من بعده؛ أو لتكون الصلة بين المفكرين والمصلحين والمثقفين وبين سائر طبقات الشاميين، ولعل مرد ذلك إلى شدة وطأة الحكم الاستبدادي على الشاميين خاصة من قبل الاتحاديين الملاحدة الذين أمسكوا بزمام الدولة العثمانية بعد السلطان عبدالحميد، ومرد ذلك أيضاً أن البلاد لم تكد تستفيق من الحرب العالمية الأولى إلا لتجد نفسها في براثن الاحتلال الفرنسي.

وقال الأمير الشهابي في هذه الحلقة:

"في تلك المدة التي قضاها الشيخ طاهر الجزائري بالشام كان يتحلق حوله في دمشق صفوة من المتعلمين والنبهاء والمفكرين العرب فتألف من جمعهم أكبر حلقة أدبية وثقافية، كانت تدعو إلى تعليم العلوم العصرية ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي وآداب اللغة العربية والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية".

ــ أفكاره وأعماله في الإصلاح:

كان للشيخ -رحمه الله تعالى- يد طولى في الإصلاح، وكان يرى التدرج فيه، فمن أقواله في هذا الباب:

"الإصلاح -على اختلاف أنواعه- لابد أن يكون على سبيل التدرج؛ لأن ما يأتي على جناح السرعة لا يلبث أن يرجع من حيث أتى".

وقال: "إن هذه الطريق يطول أمرها ولكن يؤمن فيها العِثار والسلامة محققة".

- ومن أهم ما وضعه من قواعد إصلاحية وقام عليها بنفسه ما يلي:

١. التعليم:

وقد فتح في ذلك المدارس وألف الكتب التعليمية كما سيأتي، وكان يرى أن التعليم هو الأساس للإصلاح، وهذا حق فقد كان الجهل في أيامه منتشراً انتشاراً عجيباً.

وباشر التعليم بنفسه فقد كان مدرساً في المدرسة الظاهرية الابتدائية وهو في السادسة والعشرين من عمره.

٢. الاهتمام باللغة العربية:

وقد استطاع أن يقنع الوالي العثماني بتعليم العلوم باللغة العربية، لكن بعد عزل الوالي عاد التعليم بالتركية.

وألف بعض الكتب لتعليم العربية.

٣. الاهتمام بالعلوم العصرية:

كان الشيخ معروفاً بحبه لأخذ النافع من العلوم والفنون الغربية، وفي هذا يقول تلميذه المقرب محمد كرد علي:

"اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة إلا الموسيقى والتمثيل فلم يكن له حظ فيهما[1]... وسياسة الشيخ في التعليم محصورة في تلقف المسلمين أصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطيبة وأخلاقهم القديمة القويمة، وأن يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وطبيعي واجتماعي على اختلاف ضروبها".

وقد أرسل رسالة إلى تلميذه محمد كرد علي بيّن فيها منهجه المعتدل في هذه المسألة فقال:

"إن الاقتباس من الأمم المترقية دليل على النباهة، لا كما يظن البُله من أن في الاقتباس غضاضة، ونريد بالاقتباس ما يُشعر به اللفظ من تلقي الأمور النافعة، لا كما يظن بعضهم من أن الأمم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء، حتى أدى بهم الأمر أن يقلدوهم في الأمور التي يودون هم أن يخلصوا منها".

٤. الصلة بالمستشرقين:

كان الشيخ على صلة ببعض المستشرقين، وكانوا يسألونه عن بعض القضايا المتعلقة بأبحاثهم، وكان بينه وبين بعضهم صداقة مثل جولد زيهر اليهودي المجري، ومرغليوث اليهودي الإنجليزي، لكن لابد من ذكر أن الشيخ -رحمه الله- كان ذا دين ووعي يحميانه من شبهات المستشرقين، وكان متنبهاً إلى ألاعيبهم ومؤامراتهم وكيدهم،

---

(١) وهذا من فضل الله عليه وعنايته به.

إلى حد ما، لكن بعض تلاميذه لم يكونوا كذلك فافتقدت علاقتهم بالمستشرقين التوازن المطلوب الذي كان سِمة من سمات الشيخ طاهر -رحمه الله تعالى- فظهر هذا النقص في بعض أعمالهم وأفكارهم، حتى أن بعض أولئك التلاميذ كان يدعو إلى فصل الدين عن الدولة أي "العلمانية" ويؤيد ذلك بقوة!!

٥. إصلاح العادات ومحاربة الخرافات والخزعبلات:

ومن أجل ذلك كان ينسخ كتب المصلحين ويبيعها بثمن زهيد في سوق الوراقين، فعل ذلك بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأبي شامة وغيرهم، رحمة الله تعالى عليهم.

٦. الاهتمام بالصحافة والأدب:

وكان يشجع على إنشاء الصحف السياسية، والاجتماعية، والمجلات العلمية والأدبية.

٧. نشر الكتب المفيدة:

ومن أجل ذلك تعلم كثيراً من اللغات والخطوط القديمة ليتسنى له دراسة الآثار.

وعني بجمع المخطوطات منذ كان عمره سبع سنوات فاجتمعت له آلاف الكتب والمخطوطات النادرة.

قال تلميذه محمد سعيد الباني:

"لا أعلم أن أحداً من معاصري فقيدنا أحاط بمعرفة الكتب المدونة بلسان العرب مثل إحاطته، فما من كتاب مخطوط أو مطبوع

إلا وقد اطلع عليه، أو عرف عنه شيئاً في الجملة، فقد كان -رحمه الله- معجم كتب سيّار يضارع: "كشف الظنون" أو "فهرست ابن النديم"، فكم من كتب دفينة كالركاز أرشد إليها، وكم من كتب برزت إلى عالم الطباعة بدلالته وهديه".

٨. إصلاح السياسة:

كان الشيخ يعادي الأتراك خاصة الذين تحكموا في بلاد الشام وجهّلوها وحاربوا المفكرين والمصلحين فيها، وقد تخوف منه الأتراك فعزلوه من بعض وظائفه التي يشرف فيها على الطلاب في بلاد الشام لئلا تؤثر فيهم أفكاره الإصلاحية التي كان الأتراك يرون فيها خطورة على مصالحهم آنذاك؛ وفتشوا بيته مراراً، وحامت حوله الظنون، وأُحيط بالعيون، حتى اضطر إلى مغادرة الشام إلى مصر.

وكان يكره حكم السلطان عبدالحميد -كحال أكثر مفكري الشام آنذاك- لكنه كره مَن جاء بعده أكثر.

قال تلميذه الأستاذ محمد سعيد الباني موضحاً موقف الشيخ طاهر من جماعة الاتحاد والترقي التي سيطرت على الدولة العثمانية بعد عزل السلطان عبدالحميد:

"بعد سقوط السلطان عبدالحميد، وبينما كنا مبتهجين بهذا الانقلاب السعيد!![١] ثَمِلين بخمرة الحرية نقدس أبطالها، نقيم الحفلة بعد الحفلة أخبرنا بعض القادمين من مصر بأن أستاذنا الجزائري ناقم

---

(١) كان معظم المثقفين والمفكرين السوريين ضد السلطان عبدالحميد وذلك لأن اليهود والاتحاديين شوهوا صورته، ووصموه بأسوأ الصفات.

على هذه الحال، غير راضٍ عن جمعية الاتحاد والترقي، إذ قال: ما هذا الانقلاب الخَلاّب إلا انتقال من نِير استبداد الفرد إلى نِير استبداد الجماعات، وقد استغربنا هذا عن شيخنا، ومن ثَمّ ثبت لنا أنا كنا مخطئين بحسن الظن بالاتحاديين، وكنا نعجب بعد ذلك بقوة حدسه وصدق فراسته".

ثم كان الشيخ طاهر أول المطلوبين للإعدام في مدة جمال باشا السفاح في بلاد الشام، حيث نصب الاتحاديون المشانق لكل من كان ينادي بالإصلاح والحرية على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم، لكنه نجا فقد كان في مصر -آنذاك- وأُعدم مجموعة منهم سليم بيك الجزائري ابن أخيه، وقد كان أحد أركان حرب الجيش العثماني.

وكان الشيخ يحسن الظن بالانكليز -للأسف- ويرى أنهم مشاعل حضارة!! لذلك اتصل بامرأة تُدعى "مِسْ بِلْ" وكانت أمينة سر حاكم العراق لما سقط بأيدي الانجليز، وطلب منها إحسان معاملة العراقيين!! ولذلك كله فرح بالثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين سنة ١٩١٦ بمساعدة الانكليز، ولما دخل فيصل بن الحسين دمشق دعا إلى مناصرة الثورة والوقوف بجانبها، وهذا كله وقع فيه الشيخ لحبه الشديد للإصلاح، وضعف تقديره لخطورة الانكليز وخداعهم المسلمين.

ــ جهوده:

ــ ألف الشيخ كتب التدريس للمرحلة الابتدائية في جميع فروعها آنذاك فمنها "مدخل الطلاب إلى علم الحساب"، و"رسالة في

النحو"، و"مُنية الأذكياء في قصص الأنبياء"، و"الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام"، و"إرشاد الألبّاء إلى تعليم ألف باء" وغيرها، وهذا يدل على سعة علم الشيخ رحمه الله تعالى.

ــ كان يدعو الأكفاء لإنشاء المجلات العلمية والأدبية والصحف السياسية والاجتماعية.

ــ وكان له عناية جليلة بالتاريخ والآثار وإحياء التراث.

ــ فتح تسع مدارس في مدينة دمشق، منها اثنتان للبنات.

ــ أنشأ المكتبة الظاهرية في دمشق، وهي من أشهر المكتبات العربية، وتسمى الآن مكتبة الأسد، ثم عُين مديراً لها بعد ذلك.

وقد جمع في المكتبة كثيراً من الكتب التي تفرقت في الجوامع والمدارس، حتى أنه هُدد بالقتل من قبل أولئك المستفيدين من نهب هذه الكتب، وصارت بهذا أول مكتبة عامة في دمشق، وصنع لها الفهارس المفيدة فصار الشيخ بهذا علماً من أعلام البيبلوجرافيا في العصر الحديث، وكان يشتري للمكتبة كل ما تقع عليه يده من نفائس الكتب والمخطوطات.

وأسس مكتبات عامة في حماة وحمص وطرابلس الشام.

ــ وأنشأ المكتبة الخالدية في القدس بمساعدة آل الخالدي، عجل الله برجوعها.

أنشأ مطبعة حكومية لتطبع المؤلفات العامة والكتب المدرسية.

ـــ انتقاله للقاهرة:

كان لأنشطة الشيخ المتنوعة ولأفكاره المنوِّرة أثر ظاهر في أهل دمشق، فأثار هذا حفيظة رجال الأمن الذين لا يفهمون مغزى هذه الأعمال وأثرها الجليل فضيقوا الخناق عليه، وهجموا على بيته وعاثوا فيه فساداً فتوارى عن الأنظار، ثم آثر الانتقال إلى مصر التي وصلها سنة ١٩٠٧/١٣٢٥ وسكن فيها في بيت صغير في حي عابدين، واجتنب الناس إلا بعض العلماء الذين كانوا يترددون عليه ليستفيدوا منه.

وفي القاهرة قضى وقته في التأليف والبحث، وشارك في تحرير بعض الصحف، وكان له مراسلات مع المستشرقين.

وكان قد رفض عرضاً للتوظف في دار الكتب، وعاش في مصر زاهداً مكتفياً بالقليل.

وظل في القاهرة ثلاثة عشر عاماً حتى سقطت الدولة العثمانية في آخر الحرب العالمية الأولى وقامت الدولة العربية فيها وملكها فيصل بن الحسين، فعاد إلى دمشق، سنة ١٩١٩/١٣٣٧، وعُين مديراً لدار الكتب الظاهرية التي أسسها، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

ـــ صفاته:

كان الشيخ يسافر بين الفينة والأخرى إلى بعض البلاد الأوروبية والعثمانية فاتسع أفقه وكثرت معارفه.

ـــ ولم يتـــزوج الشيخ فتيسر له وقت طويل لم يتيسر لكثير من أقرانه ممن أثقلهم الأهل والأولاد وطلب المعيشة.

ـــ وكان زاهداً يرضى بالقليل، يقضي ليله بالمطالعة من مصباح زيتي، وكان يضع قدره التي يطبخ فيها طعامه فوق المصباح بحيث تُنضج الطعام في عدة ساعات!!

وكان يؤثر الفقراء والمساكين على نفسه ويتصدق عليهم سراً، وربما يبيت الليلة والليلتين جائعاً لأنه تصدق بكل ما لديه من طعام إلى جائع لقيه.

ـــ وكان الشيخ على قدم الجزائريين الذين عُرفوا بحدة الطبع وكراهية المجاملة والنفاق والمحاباة.

ولم يُعرف عنه مخالطة الظلمة، ولم يصحب غنياً للانتفاع بماله، وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور.

وكان يكره الغيبة ويحارب البدع والخرافات.

وكان محافظاً على وقته يغضب ممن يخلف موعده معه.

وكان لأجل إرادته الحفاظ على وقته لا يهتم بمظهره، وكان يأكل مما يحمله في جيبه من الكعك أو الخبز وهو في طريقه إلى الدرس.

ومن عجائبه في حفاظه على وقته أنه كان يلبس -إذا سافر- ألبسة داخلية بعضها فوق بعض فكلما اتسخ منها شي مما يلاصق جسمه رمى به إلى القمامة حتى يتسخ الذي يليه وهكذا دواليك!! وذلك لأنه لا يجد وقتاً لغسله وهكذا حتى تنتهي الطبقات.

ونام مرة عند بعض معارفه وقت القيلولة فرأت زوجه أن جبة الشيخ بحاجة إلى إصلاح فأخذها وبدأت في خياطتها، فاستيقظ الشيخ وطلب جبته فأخبره صاحب البيت بأن زوجه ترفوها فأعجله بطلبها حتى دفعت بها زوجه إليه ولبسها والإبرة والخيط يتدليان منها!!.

ــ وكان قوي الحافظة جداً لا يكاد ينسى ما يقرأه مهما طال به العهد.

ــ وكان يحب السباحة والمشي ومعرفة الناس، وكان نشيطاً سريع الحركة.

وكان صحب همة عجيبة في السهر فقد قال تلميذه الأستاذ محمد كرد علي:

"أِلف الشيخ مدة أربعين سنة أن يسهر مع أصحابه إلى الهزيع الثاني من الليل، ثم ينقلب إلى منـــزله يؤلف ويقرأ حتى يصلي الصبح، وينام إلى الظهر".

ــ من مواقف الشيخ رحمه الله تعالى:

ذهب إلى القاهرة فاحتاج إلى المال فباع ما عنده من كتب ومخطوطات لدار الكتب المصرية، ورفض أن يبيعها لمكتبة المتحف البريطاني بضعف الثمن؛ ضنّاً منه بالتراث الإسلامي أن يقع في أيدي أعداء الإسلام.

ــ ولما علم الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة "الفتح" المشهورة بحاجة الشيخ شفع له لدى الخديوي عباس حلمي الثاني

ليجري عليه راتباً من الخزينة الخاصة فرفض الشيخ طاهر هذا العرض بإباء وغضب غضباً شديداً -وكان فيه حدة- فقال الأستاذ محب الدين الخطيب في هذا: "ظهر لي أنني لا أزال أجهل تلك النفس الكبيرة رغم معرفتي بصاحبها منذ طفولتي؛ فقد غضب الشيخ طاهر من هذه الحادثة غضباً لم أعهده فيه من قبل".

ـــ من الأقوال في بيان عظمة الشيخ طاهر:

ـــ قال فيه المفسر العالم الشيخ جمال الدين القاسمي:

"الشيخ المفيد والمُرَقِّي الوحيد".

ـــ وقال فيه الشيخ علي الطنطاوي:

"ترك أثراً من الخير أينما حَلّ، فكان مجلسه حيثما حل مدرسة، ولقاؤه أينما لقيته درس ... وكان يعلم بفعله لا بقوله ... لم يكن يضيع من وقته لحظة في عمل غير نافع، ودعا إلى ترك المجاملات والرجوع إلى أخلاق المسلمين الأولين من الصراحة والصدق وقصد الحقائق وترك الأباطيل فكانت حياته كلها كذلك".

وقال فيه أيضاً:

"كان الشيخ طاهر من المؤلفين المكثرين إن عُد المؤلفون المكثرون، وكان من أئمة المربين إن ذكر المربون، وكان من رؤوس المصلحين ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها ونتفيأ ظلالها وننعم بخيراتها".

ـــ وقال فيه تلميذه سعيد الباني:

"جمع بين المعقول والمنقول، ومزج القديم بالحديث، أخذ من كل علم لُبابه... فكنت تجد منه العالم الديني والمدني والرياضي والطبيعي والسياسي والأديب والمؤرخ والأثري والاجتماعي والأخلاقي والكاتب والشاعر فكان عنده من كل علم خبر فهو دائرة المعارف ومفتاح العلوم وكشاف مصطلحات الفنون وقاموس الأعلام".

ـــ وقال فيه تلميذه الأثير محمد كرد علي:

"كان متضلعاً من علوم الشريعة، وتاريخ الملل والنحل، منقطع القرين في تاريخ العرب والإسلام، وتراجم رجاله ... وكان إماماً في علوم اللغة والأدب ... إنه خزانة علوم متنقلة".

ومن أجمع ما قيل فيه قول تلميذه محمد كرد علي:

"لولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في بلاد الشام أكثر من نصف قرن".

وقال فيه شيخ العروبة صديقه أحمد زكي باشا:

"كنت أرى فيه الأثر الباقي والمثال الحي، والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص".

وقال فيه الأستاذ أنور الجندي رحمهما الله تعالى:

"والحق أن الشيخ طاهر الجزائري العملاق لم يكن قويّ الأثر في هذه المجموعة من رجال الشام وحدها ولكنه كان عميق الأثر في المجموعة التي عرفها وعاشرها في القاهرة خلال حوالي أربعة عشر عاماً

أقامها في مصر، وقد ألهب وجدان من عاشره وخاصة الأحمدين أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة ليس بأسلوبه وحديثه فحَسْبُ ولكنه بأسلوب عيشه ونظام حياته".

ــ مؤلفاته:

للشيخ -رحمه الله تعالى- كتب كثيرة تبلغ أربعين منها:

"الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية" وكان على عقيدة السلف، رحمه الله تعالى.

"التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن".

"توجيه النظر إلى أصول الأثر".

"تفسير القرآن الحكيم".

"مختصر أدب الكاتب" لابن قتيبة، وقد طبع بمصر.

"مختصر البيان والتبيّن" للجاحظ، وهو مطبوع.

ــ أما أفضل أعماله فهو كتاب مخطوط في عشرين مجلداً يبحث في نوادر المخطوطات ومحال وجودها ومزاياها سماه "التذكرة الطاهرية".

ــ وفاته:

توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٣٨/١٩٢٠ بعدما اشتد به المرض، ودفن في سفح جبل فاسيون كما وَصّى.

٤- العالـم المجاهـد
عمر مكـرم
١٢٣٧ – ١١٦٤

١٨٢٢ – ١٧٥٠

هناك مئات الآلاف من العلماء على مدار تاريخ الإسلام لكن قليلاً من هؤلاء من كان يحمل هموم أمته وآلام شعبه، ويجاهد في سبيل الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحتسب على الحكام، ومن هؤلاء القليل كان الشيخ الفاضل العالم نقيب الأشراف عمر مكرم.

عاش رحمه الله تعالى في زمن الإدبار وذهاب هيبة الأمة الإسلامية، وتربص أعدائها بها الدوائر، وكانت الدولة العثمانية آنذاك في طور الانحدار فلم تستطع أن تصنع كبير شيء مع المكايد التي كانت تترى عليها في كل وقت، والمؤامرات التي تحيط بها من كل جانب، في تلك المدة المظلمة عاش سماحة الشيخ المجاهد عمر مكرم بن حسين السيوطي.

ولد سنة ١١٦٤/١٧٥٠ في أسيوط، من أسرة شريفة النسب، تنتهي إلى الأدارسة، وانتقل إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، وعُني بالفقه، وتخرج في الأزهر، واقتنى مكتبة كبيرة ما زال جزء منها محفوظاً في دار الكتب المصرية باسمه، لكنه لم يشتغل بتأليف الكتب ولا بالدروس لأنه كان بطبعه ميالاً إلى المشاركة في الشأن العام وسياسة الشعب والاهتمام بأمور المجتمع المصري.

بداية ظهور السيد وعلو شأنه:

وكانت بداية بروز السيد عمر مكرم لما اختل الأمر في الديار المصرية بوقوع التنازع بين أمراء المماليك وتسابقهم في ظلم الشعب، فأرسلت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائري لتأديب المماليك خاصة

الأميرين مراداً وإبراهيم الذين فَرّا إلى الصعيد، فلما عاد حسن باشا إلى بلاده سنة ١٢٠٥/١٧٩١ توسط الأميران لدى الحكومة العثمانية في القاهرة ليعودا إليها، وكان رسولهما في هذا هو السيد عمر مكرم لصداقة بينهم، فنجح في مهمته وعاد الأميران للحكم.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة توفي السيد محمد البكري نقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية ولم يكن له عقب فأسند الأميران نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم عرفاناً بالجميل ووفاءً له، وكان ذلك سنة ١٢٠٨/١٧٩٣، وكان هذا بداية ظهوره في المجتمع المصري.

ثم عظم شأنه بعد ذلك؛ إذ أن الأميرين عادا إلى سيرتهما القبيحة وظلمهما للشعب، فثار الشعب المصري عليهما سنة ١٢٠٩/١٧٩٥ وكادت تحدث فتنة فاجتمع الأمراء والباشا التركي في بيت الأمير إبراهيم، وتعهد الأميران مراد وإبراهيم وسائر الأمراء بكف أيديهم عن الشعب وتحري العدل ورفع المظالم وصرف الأموال إلى مستحقيها وإرسال مخصصات الحرمين، ورفع الضرائب المستحدثة وأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة، وكُتبت وثيقة بذلك وخُتمت من قِبَل الأميرين، ومن الباشا التركي، وكان السيد عمر مكرم ممن اشترك في كتابة هذه الوثيقة، وهذا مما رفع من مكانته بين قومه.

السيد عمر مكرم والحملة الفرنسية على مصر:

ولما احتل الفرنسيون مصر سنة ١٢١٣/١٧٩٩ هرب الأميران مراد وإبراهيم بعد معركة قصيرة مع الفرنسيين وتركا الشعب المصري لمصيره، وهنا نادى السيد عمر مكرم في المصريين بالجهاد، وصعد إلى

القلعة ونشر علماً كبيراً كان يُسمى "البيرق النبوي" ونـــزل من القلعة إلى بولاق -وكان حَيّاً في أطراف القاهرة آنذاك- والناس حوله ألوف مؤلفة يحملون العصي والنبابيت وهم يهللون ويكبرون وقد امتلأوا حماسة وحباً للجهاد، لكن مالذي تغنيه قوهم وعتادهم الضعيف أمام أسلحة الفرنسيين الحديثة خاصة أن جيش المماليك قد هُزم ولاذ بالفرار؟!

وهنا رأى المشايخ مثل الشرقاوي شيخ الأزهر، والشيخ السادات أن يستسلموا ويسلموا البلد للفرنسيين لكن عمر مكرم رفض أن يدخل القاهرة وآثر أن يصحب جيش إبراهيم بك في تقهقره إلى الشمال نحو المنصورة ثم إلى سيناء فالشام وجيش الفرنسيين يتبعهم.

ثم لجأ عمر مكرم إلى يافا وبقي فيها حتى فتحها نابليون، الذي حرص على إكرامه وإعادته إلى مصر عن طريق دمياط، ودخل القاهرة بعد غياب ثمانية أشهر فلم يشهد ثورة المصريين الأولى على الفرنسيين التي وقعت بعد ثلاثة أشهر من الاحتلال إنما شهد الثورة الثانية.

ولما عاد إلى مصر رفض أن يشترك في ديوان الحكم الذي أقامه الفرنسيون لتسيير أمور المصريين، ولم يطلب استرجاع مكانه في نقابة الأشراف ولا في نظارة الأوقاف اللتين كان يديرهما من قبل، ولم يرضَ أن يطلب من الفرنسيين أن يردوا له أملاكه التي صادروها عزة وأنفة ورفضاً للاحتلال.

ثورة القاهرة الثانية على الفرنسيين:

في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤/مارس ١٨٠٠ ثار المصريون على الفرنسيون ثورتهم الثانية -ولها قصة يطول ذكرها- وقصد الشعب السيد عمر مكرم ينادونه ويهتفون باسمه فلم يخيب ظنهم وسارع بالنـــزول إلى الشوارع، وقاد الثورة الشعبية ومعه بعض الأمراء والكبراء والشجعان، وأمر أهل القاهرة ببذل الأموال فسارعوا لتلبيته أمره، وتحرك السيد عمر مكرم من شارع إلى آخر، ومن موقع إلى موقع يحمس الناس ويثبتهم ويشد من عزيمتهم.

ولما وقع الصلح أخرج الفرنسيون بقايا عسكر الترك من مصر وأباحوا لمنٍ أراد من المصريين أن يخرج معهم فخرج السيد عمر فيمن خرج مؤثراً الغربة وتحمل المشاق على البقاء في بلاده وهي محتلة، وذلك هو خروجه الثاني، في أول ذي الحجة سنة ١٢١٤/٢٥ ابريل ١٨٠٠، بعد ٣٧ يوماً من الجهاد وإغلاق أبواب القاهرة في وجه الفرنسيين الذين دكوها بالقنابل من القلاع المشرفة عليها.

ولما خرج السيد من مصر إلى الشام نُهب بيته كما نُهبت بيوت سائر الأمراء الذين آثروا الخروج على البقاء.

ثم لما رجع الجيش العثماني إلى مصر بمعونة الإنجليز لطرد الفرنسيين منهاٍ رجع معهم السيد عمر مكرم، واستقبلته القاهرة استقبالاً حافلاً، وصار رجل مصر وزعيمها الشعبي، وعادت إليه زعامة نقابة الأشراف.

عمر مكرم يُنَصِّب محمد علي حاكماً على مصر:

لما خرج الفرنسيون من مصر سنة ١٢١٥/١٨٠١ عاد أمراء المماليك إلى عادتهم المذمومة في ظلم الناس واضطهادهم، وصاروا

بحيث يقاتل بعضهم بعضاً، وكان في مصر وال عثماني اسمه أحمد خورشيد باشا لكنه لم يستطع ضبط الأمور، وكان محمد علي رئيساً لجند الأرناؤوط "الألبان" وكان بين الأرناؤوط والمماليك نزاع، وبينهما وبين الوالي التركي وجيشه نـــزاع، وحدثت حوادث يطول ذكرها لكن العلماء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم رأوا أن أفضل من يلي حكم مصر هو محمد علي لما رأوا من هدوئه وحسن ضبطه للأمور ودهائه وقوته، فاستقر رأي العلماء على تنصيب محمد علي حاكماً علي مصر، فدخل عليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وعرضا عليه ما اتفقوا عليه فتردد محمد علي ثم وافق، فألبساه لباس الحاكم آنذاك، وبايعاه نيابة عن الشعب في سنة ١٢٢٠/١٨٠٥، وكانت هذه الحادثة فريدة في تاريخ مصر لم تتكرر قبل ذلك أو بعده فيما أعلم.

ولم يقبـــل الوالي أحمد خورشيد هذا الذي جرى لكنه أُجبر عليه إجباراً بعد حوادث يطول ذكرها، وتصدر السيد عمر في هذه الحوادث كلها، ومما يظهر عمق فهم السيد عمر وثقته بما صنع ما جرى بينه وبين رسول الوالي التركي أحمد خورشيد الذي أرسله ليناقش السيد عمر فيما صنعه فقال له الرسول:

ـــ كيف تثورون على مَن ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

ـــ فقال له السيد: اعلم أن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا الحاكم الذي أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم ... وقد كان لأهل مصر دائماً الحق في أن يعزلوا الوالي إذا

أساء و لم يرض الناس عنه ... إن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم خلعه وعزله.

ــ فقال الرسول: وكيف يجوز لكم حصارنا ومعاملتنا معاملة الخوارج الكفرة؟

ــ فقال السيد عمر: إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم على الحق ...

ومن هذه المناقشة يتبين عظم مكانة السيد عمر وطاعة الناس له ولجوئهم إليه.

ثم حدثت حوادث عديدة كادت تودي بمحمد علي في بدايات حكمه لكن السيد عمر مكرم استطاع أن يتجاوز عواقبها بسلام، واستطاع تثبيت حكم محمد عليٍ لمصر خاصة بعد أن عزلت الدولة العثمانية محمد عليٍ بعد سنة تقريباً من ولايته وطلبت منه أن يتولى ولاية سلانيك عوضاً عنها لكن السيد عمر استطاع أن يجمع العلماء والكبراء وكتبوا كتاباً للسلطان العثماني يخبرونه بأنهم لا يرضون لحكم مصر إلا محمد علي باشا، ورضخ السلطان لطلبهم بعد حوادث عديدة، وثبت محمد علي حاكماً لمصر.

ولما تولى محمد علي حكم مصر بمساعدة السيد عمر مكرم عظم شأنه، وقال الجبرتي في شأن علوّ مقدار السيد عمر مكرم أوائل زمن محمد علي باشا:

"وارتفع شأن السيد عمر، وزاد أمره بمباشرة الوقائع (أي الحروب) وولاية محمد علي باشا، وصار بيده الحل والعقد، والأمر والنهي، والمرجع في الأمور الكلية والجزئية".

السيد عمر مكرم والحملة الانجليزية على مصر "حملة فريزر":

نزل الانجليز على الشاطئ المصري سنة ١٢٢٢/١٨٠٧، واحتلوا الاسكندرية، وتحركوا شرقاً لاحتلال بلدة رشيد لأنهم كانوا يريدون سلوك الطريق نفسه الذي سلكته الحملة الفرنسية قبل نـــزولهم بتسع سنوات تقريباً لكن حامية رشيد والأهالي فيها قاوموا أروع المقاومة ووقفوا سداً منيعاً أمام دخول الانجليز بلدهم، وأرسلوا استغاثات للقاهرة لنجدهم.

ولما رأى عمر مكرم ذلك عمل شيئاً فريداً رائعاً عبر عنه المؤرخ المصري الجبرتي بقوله:

"نبّه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد الانكليز، حتى مجاوري الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس".

وعلق المؤرخ المصري الرافعي على ذلك بقوله:

"فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرمٍ والروح التي نفخها في طبقات الشعب فإنك لترى هذا الموقف مماثلاً لموقفه عندما دعا الشعب إلى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل دعوته الأزهريين إلى المشاركة في القتال تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الزمـــان، **فعملهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم"** وصدق الرافعي والله.

بدايات الجفوة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا:

وكان محمد علي غائباً في الصعيد فلما عاد استأذنه السيد عمر في الجهاد هو ومن معه فرفض، وأخبره بأن الواجب قد سقط عنهم وأن هذه مسؤولية الجيش وأن مسؤولية الشعب هي إعداد الأعلاف للدواب التي ستخرج إلى رشيد!! فوجم السيد عمر من هذه الكلمة غير اللائقة، وحملها بغم وهم وعاد أدراجه وهو ضيق الصدر.

ثم فترت العلاقة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا، وساعد على فتورها أكثر أن محمد علي أخذ من المصريين الضرائب الفادحة، وأنزل فيهم من المظالم شيئاً كثيراً، فغضب عليه السيد ورأى أنه قد أخَلّ بالشرط الذي أُخذ عليه يوم توليته الحكم وهو: "أن يسير بالعدل، ويقيم الأحكام والشرائع، ويقلع عن المظالم، وألا يفعل أمراً إلا بمشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه"، وبسبب هذا فترت العلاقة بينهما أكثر من ذي قبل فلم يَعُد السيد عمر يتردد على محمد علي باشا كما كان يصنع قبل ذلك.

نفي السيد عمر مكرم:

ثم صار السيد عمر مكرم يجاهر بمعارضة محمد علي باشا بين الناس، وأبدى السخط والتذمر من تصرفات محمد علي باشا، واستمرت الجفوة بينهما عامين طويلين حتى حدثت حادثتان ضخمتا الخلاف وصعدتا به إلى درجات خطيرة، وأولاهما أن محمد علي باشا كُلف من قِبل الدولة العثمانية بحرب الوهابيين -كما كانوا يسمونهم- في نجد فاقتضى هذا منه أن يجمع المال الكثير من الشعب،

وثانيهما أن أحد المشايخ سُجن ظلماً فرأى خواص المشايخ والكبراء وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم أن في هذا مساساً بالاتفاق مع محمد علي باشا وقت تنصيبه والياً على مصر بأن يسير بالعدل، وأن في هذا خلافاً للوثيقة التي وُقعت في بيت الأمير إبراهيم قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجيء محمد علي حاكماً بمدة ونصت على السير في الناس بالعدل، فاجتمعوا في الأزهر يتذاكرون في السبل الكفيلة بردع محمد علي والعامة حولهم يصيحون ويهمون بالثورة، وخلص الأمر إلى كتابة وثيقة تُضمن الشكاوى من محمد علي وترسل إلى رئيس الديوان ليسلمها إليه، فراع ذلك الاجتماع محمد علي، وعلم برئاسة عمر مكرم له فزاده ذلك تغيظاً عليه، وطلب من المشايخ الموقعين على الوثيقة الحضور عنده للمناقشة فذهبوا إلا السيد عمر رفض أن يذهب إليه، ولما ذهب المشايخ صار بعضهم يطعن في السيد عمر مكرم -للأسف- وقال عنه بعضهم: "ما هو إلا صاحب حرفة أو جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين، وليس له قدر إلا بمؤازرتنا، فإذا نحن تخلينا عنه لم يكن له بعد انصرافنا قدر ولا خطر" وهكذا يفعل الحسد والتنازع، وبهذا الموقف الذي استغله محمد علي ضُرب أول إسْفين "مِعْول" بين المشايخ وتراجع قدرهم بعد ذلك فلم يستطيعوا استعادة هيبتهم إلى يوم الناس هذا، واستطاع محمد علي أن يقلم أظافرهم جميعاً بعد خذلانهم السيد عمر مكرم، ونقض اتفاقهم معه الذي كان في الأزهر، كما ذكرت آنفاً.

وتشدد الشيخ عمر في موقفه بعد ذلك وصار يجهر بعدائه لمحمد علي ويقول:

"كما أصعدته للحكم فإني قدير على إنـــزاله منه"!!

والتمس محمد علي رضا السيد عمر بكل طريقة حتى أنه حاول أن يهديه الأموال الكثيرة ورجاه أن يعدل عن طريقته لكن السيد عمر مكرم يرفض أن يتنازل عن موقفه إلا بعد أن يعلن محمد علي عن توقفه عن جباية الضرائب بحسب إرادته ومشيئته دون الرجوع إلى زعماء الشعب.

وبينما الأمر على ذلك حدثت حادثة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وهي أن محمد علي أعدّ "كشف حساب" ليرسله إلى الدولة العثمانية ليبين لها أنه صرف الأموال التي جباها من الشعب بناء على أوامر قديمة منها منذ أن كان الصدر الأعظم -رئيس وزراء الدولة العثمانية- يوسف باشا في مصر زمن خروج الفرنسيين منها، وطلب من المشايخ التوقيع على كشف الحساب فقبلوا ورفض السيد عمر مكرم وبرر رفضه بأن الضرائب المعتادة كانت كافية لكل ما قام به محمد علي من الأعمال العامة وأنه لا يستطيع أن يشهد إلا بالحق الذي يعتقده وهو أن الضرائب التي فرضها محمد علي زائدةً على ما كان من قبل لا داعي لها، فغضب محمد علي وطلب اجتماع المشايخ فحضروا إلا السيد عمر وهناك أعلن خلعه من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط، وكان ذلك سنة ١٢٢٤/١٨٠٩، فامتثل للأمر، وللأسف فإن جماعة من العلماء قاموا بكتابة محضر إلى الدولة العثمانية يدافعون عن نفي محمد علي باشا السيد عمر مكرم واتهموه باتهامات غير صحيحة، لكنهم بعد نفيه ذاقوا وبال صنيعهم، وصدق قول الجبرتي

فيهم وفي السيد عمر :"كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلد يدافع عنهم، ولم يزالوا بعده في انحطاط".

وقضى السيد عمر مكرم قرابة ثلاث سنوات في دمياط بنى فيها نــزلاً لنــزول التجار الذين كانوا يقصدون ميناءها من سائر البلدان، ثم تحول إلى طنطا فبقي فيها خمس سنوات تقريباً، إلى أن عفا عنه محمد علي وأعاده إلى القاهرة بعد أن طلب السيد عمر منه أن يحج، ثم أرسل له محمد علي خطاباً لطيفاً قال له فيه:

"إلى مطهر الشمائل سَنيِّها، حميدَ الشؤون وسميّها، سلالة بيت المجد الأكرم والدنا السيد عمر مَكرم دام شأنه أما بعد:

قد بلغنا نجلكم عن طلبكم الإذن في الحج إلى البيت الحرام وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام للرغبة في ذلك، والترجي لما هنالك، وقد أذنّا لكم في هذا المرام؛ تقرباً لذي الجلال والإكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تَدَعوا الابتهال، ولا الدعاء لنا بالقال والحال، كما هو الظن في الطاهرين والمأمول من الأصفياء المقبولين ..." وعاد السيد عمر إلى القاهرة التي ارتجت فرحاً بمقدمه، وخرج عامة الشعب إلى بولاق لتحيته، بعد تسع سنوات من نفيه.

نفي السيد عمر مرة أخرى !!:

وبعد ثلاث سنوات من عودة السيد عمر من المنفى حدثت حادثة استدعت إعادة نفيه وهي أن الدولة العثمانية طلبت من محمد

علي تموين بعض سفنها التي تحارب اليونانيين في جزيرة كريت وذلك سنة ١٨٢٢/١٢٣٧ فاضطر محمد علي لفرض ضرائب على الشعب الذي هاج وماج، وهتف باسم السيد عمر مكرم الذي لم يكن قادراً على الاستجابة لطلبهم لكبر سنه وضعف قوته، لكن محمد علي خاف من تجدد الفتن فبادر بنفيه إلى طنطا لكنه لم يبق في منفاه طويلاً إذ توفي في السنة نفسها عن ثلاث وسبعين سنة، ودفن في قرافة القاهرة رحمه الله تعالى وغفر له.

وبتنحية السيد عمر مكرم تنتهي مرحلة من أهم مراحل مصر الحديثة، ويُجهض عمل من أهم الأعمال التي مَرّت على ديار العرب في القرنين الأخيرين، ألا وهو مشاركة العلماء الحكام في إدارة شأن العامة وتوجيههم، ومشاركة العلماء في اختيار الحكام ليكونوا معهم أولياء الأمور، ولا أعلم أنه قام في ديار العرب في العصر الحديث عمل مشابه لما كان في مصر، ولو قُدر لتلك المشاركة أن تمضي إلى نهايتها لتغير تاريخ العرب والمسلمين بل العالم كله، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ـــ وقد تمنيت أن يلاين السيد عمر مكرم محمد علي قليلاً، وأن يداريه شيئاً من المداراة حتى يحصل منه على أكبر قدر ممكن من المكاسب للبلد والشعب؛ فإن الصدام بينهما لم يكن من المصلحة أبداً لكن هكذا جرى الأمر، والحمد لله على كل حال.

وفي النهاية لابد من القول بأن العلماء اعتادوا أن يصفوا بعض المتأخرين بأنهم خاتمة الحفاظ أو خاتمة المحدثين أو غير ذلك من الألقاب، وأستطيع أن أقول إن السيد عمر مكرم كان خاتمة العلماء

المجاهدين، فإني لم أر في التاريخ المصري الحديث بل التاريخ العربي الحديث عالماً بوزن السيد عمر مكرم ومشاركته في الجهاد وتوجيه العامة مع الهيبة والمقام العالي بين سائر الناس، حكاماً ومحكومين، وقد كان خاتمة لعلماء مصريين هم كالشامة بين الناس، وكلهم كانوا مجاهدين عاملين، أذكر منهم المشايخ سليمان المنصوري، ومحمد بن سالم الحفناوي، وعلي بن موسى الحسيني المقدسي المصري، وعُرف بابن النقيب، وعلي الصعيدي، والشيخ الدردير، والشيخ العروسي، وخاتمتهم السيد عمر مكرم رحمه الله تعالى.

ولولا أن شرطي في هذه السلسلة ألا أترجم لأحد من العلماء إلا من العصر الحديث لكنت قد ترجمت لأولئك الأكابر رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

وأختم بما قاله المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي في السيد عمر مكرم فإنه معبر عن حاله أحسن التعبير:

"كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور، ولكلٍ منهم نصيبه ومنــزلته، ولكن من الإنصاف أن يُعرف للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة؛ فقد كان بلا جدال روحها وعمادها".

٥- العالم المثابر
عبدالرحمن الإفريقي

١٣٢٦ – ١٣٧٧

١٩٠٨ – ١٩٥٧

هناك أشخاص عظماء كثر في إفريقيا السوداء عاشوا في القرن الماضي، لكن عظمتهم وموهبتهم وقدراتهم كلها دفنت تحت تأثير الاحتلال الذي كان فرنسياً في الأغلب ، وبعض هؤلاء العظماء أتيح للناس أن يعرفهم، وقد كانوا قسمين: قسماً جاهد الاحتلال فذاع اسمه وشاع عمله مثل ساموري توري ومحمد عبدالله حسن وعمر الفوتي، وكل هؤلاء ذكرتهم من قبل.

وقسماً آخر خرج من دياره متجهاً إلى الحرمين غالباً، وكان منهم آل الأنصاري من مالي، وبعضٌ من الفلاته، وكان من هذا القسم العَلَم الذي أترجم له في هذه الحلقة وهو الشيخ عبدالرحمن بن يوسف الإفريقي، وهو من مالي.

ولد سنة ١٣٢٦/١٩٠٨ في قرية "ففا" من مالي، التي كانت قد ابتليت بالاحتلال الفرنسي الذي امتص ثروتها وحطم قوتها، ونشأ كما ينشأ الصبيان آنذاك فدرس في كُتّاب القرية، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره مَرّ بالكُتّاب مفتش فرنسي فحاوره الطلاب واطلع على كراريسهم فوجد من عبدالرحمن نباهة وفهماً ومعرفة بالواقع حوله تفوق ما يمكن أن يحصله صبي في سنه، فأعجب به وطلب من والده أن يسمح بتحويله إلى إحدى المدارس العصرية التي تدرس على الطريقة الفرنسية، ففعل الوالد، وهذا يقتضي الخروج من القرية إلى بلدة أكبر، وهكذا كان وخرجت القرية لتودعه، وسط دموع الحزن ولوعة الفراق، والعجيب أن والده قال له وهو يودعه: أوصيك بتقوى الله والحفاظ على دينك في تلك المدرسة التي لم تنشأ إلا للقضاء على عقيدتك الإسلامية، ووجه العجب أن الوالد فاهم لمراد أولئك لكنه

استجاب لنداء العاطفة في داخله، ويبدو أنه رجح بين المصالح والمفاسد فاختبار ذهاب ابنه، والله أعلم.

قضى الفتى ثمان سنوات في المعهد التنصيري الصارم، وكان من الأوائل حتى نال الشهادة الثانوية ثم لما تخرج عين معيداً في المدرسة نفسها معلماً للغة الفرنسية وبقي فيها ثلاث سنوات، لكن كل تلك السنوات لم تنل من عقيدة الفتى، ولم تستطع أن تنـــزع الإسلام من نفسه فبقي على فطرة نقية، هذا من عناية الله تعالى به؛ إذ كم من مسلم ضاع وماع في تلك المدارس الخطيرة.

ثم تقدم لوظيفة في مصلحة الأرصاد الجوية في العاصمة باماكو فكان أول المقبولين، ثم بعد أشهر قلائل ترقى إلى وظيفة سكرتير المصلحة ولقد كانت كلمة والده "إنهم يريدون القضاء على عقيدتك الإسلامية" ترن في أذنه في المعهد والوظيفة حيث رأى حملات تشويه الإسلام تشتد في كل مكان كان فيه، إضافة إلى تعظيم أوروبا وأهلها وتحقير الإفريقيين، ودينهم وتاريخهم.

ولم يكن عبدالرحمن مقتنعاً بصحة أقوال المنصرين لكنه لم يكن قد حاز من العلم آنذاك ما يمكنه من الرد عليهم رداً مُفْحماً.

ولما مضى عليه عامان في الوظيفة استدعاه رئيسه الفرنسي ليشكره على ضبط العمل وحسن الإدارة ثم فاجأه بالقول:

ــ يؤسفني يا عبدالرحمن أن يظل مثلك متشبثاً بتقاليد المتخلفين.

ــ لو أوضحت ما تريد.

ـــ ألاترى أنك تلتـــزم بالإسلام أكثر مما هو ضروري!! إن الملونين من زملائك يكتفون بالانتساب لهذا الدين، أما أنت فلا ترضى إلا أن تربط تصرفاتك بقيوده الثقيلة الجامدة.

ـــ الإسلام دين رباني سمح لا يقيد المؤمن به إلا عن المفاسد، ثم يطلق مواهبه في ميادين الخير والعمل الصالح إلى أقصى حدود الإمكان.

ـــ هذا دفاع عاطفي لكنه لا يستطيع تغيير الحقيقة؛ وهي أن الإسلام دين المتخلفين، بقدر ما يعلم الناس أن النصرانية دين المتقدمين والمتفوقين!!

ـــ ولم لا يكون كلام الرئيس هو العاطفي، لقد درست الكثير من تعاليم النصرانية ووقفت على أصولها فلم أجد فيها ما يخاطب العقل بل هي مجرد استسلام لأقوال رجال يمثلون سلطة الكنيسة.

ـــ نعم نعم وهذا سر تفوقها!! لأن هذه الأقوال لا تحمل طابع الإلزام، فأنت تستطيع أن تكون نصرانياً دون أن تدخل الكنيسة أو تتقيد بسلوك معين.

ـــ لكن هذه ليست ميزة يا حضرة الرئيس؛ إنها تأكيد على أن النصرانية ليست وحياً إلهياً بل هي مجرد اجتهادات شخصية يقوم بتحضيرها طائفة من ذوي الاختصاص كأي شأن بشري آخر.

ـــ حسناً أليس الاجتهاد المتطور أَبْعَثَ على التقدم من الجمود على أحكام لا تسمح للإنسان بالتحرك إلى أبعد من حدودها المغلقة.

أجل يا سكرتيري العزيز: إن الإسلام محاولة صارمة لتجميد الحياة فأين هو من نصرانيتنا التي لا تعرف الحدود ولا تسمح بالجمود.

ثم أنهى الفرنسي المقابلة تاركاً عبدالرحمن الإفريقي مليئاً بالانفعالات والأفكار.

وهذه المناظرة دالة بوضوح أن أقطاب الاحتلال كانوا يتخذون من النصرانية مادة يتكئون عليها في إخراج المسلمين من دينهم حتى لو كان أولئك قد كفروا بالنصرانية منذ زمن بعيد أو على الأقل نَحّوها جانباً بعيداً عن الحياة، بمعنى أن النصرانية عند أولئك صارت حمية وتُكَأة وقنطرة لمصالح الغرب ومطامعه.

ثم جاء وقت الحج فشق عبدالرحمن الإفريقي طريقه إلى مكة في قافلة عبر السودان، وهي رحلة شاقة وصل بعدها إلى مكة سنة ١٩٢٦/١٣٤٥ وكان في نيته أن يحج ويعود لكن دروس المسجد الحرام والمسجد النبوي أغرته بالبقاء حتى يتفقه ويزداد علماً.

ــ وأقبل على العربية يغترف من مَعِينها، ثم لزم أحد فقهاء المالكية في المسجد النبوي حتى فقه في مذهب مالك، وبعد أربع سنوات قرر أن يعود إلى بلاده، وذهب إلى جدة ليركب البحر، وفي أحد الفنادق اجتمع بأحد أهل العلم الذي حثه على البقاء لطلب مزيد من العلم والتضلع من عقيدة السلف الصالح فعاد الشيخ عبدالرحمن إلى المدينة النبوية المنورة ولزم شيخه سعيد بن صديق -وهو إفريقي أيضاً- و لم يكن له أولاد فصار الشيخ عبدالرحمن مثل ولده.

أقبل على دراسة الحديث النبوي الشريف، والتحق بدار الحديث طالباً ودرس في الحرم النبوي الشريف، ثم صار مدرساً في دار

الحديث سنة ١٣٥٠/١٩٣١، وهي التي أنشأها الشيخ أحمد بن محمد الدهلوي.

من المواقف التي حصلت له:

كان يدرس في حلقة الشيخ ألفا هاشم، وهو أحد المشايخ الأفارقة الذين كان لهم أثر في المدينة النبوية المنورة، فوصلت للشيخ رسالة باللغة الفرنسية فأسف الشيخ أنه لم يجد من يترجمها له، فلما انفضت الحلقة قال الشيخ عبدالرحمن لشيخه: هل يسوغ لمسلم أن يستعمل لغة أعداء الإسلام في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فضحك الشيخ وقال له : أنسيت يا عبدالرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى بعض صحابته بتعلم لسان يهود؟

وعندئذ طلب عبدالرحمن من شيخه أن يترجم له الرسالة، فانتشر خبر إجادته للفرنسية حتى أنه طُلب في وظيفة مترجم لكنه اعتذر لأنه يريد التفرغ للعلم.

ومن المواقف أيضاً أن أحد الطلاب استهزأ أمامه بأحد المشايخ وقال: ومن يكون هذا الرجل وما هي منـــزلته؟

فغضب الشيخ وقال له :

هو ممن أمرك الله بالدعاء والاستغفار له في قوله : "والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا" والله يقول: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" ثم وعظه بأمثال هذا الوعظ.

ـــ ومما حصل له مما يدل على سماحة نفسه أن أحد أعدائه شج رأس ابن له انتقاماً منه فسُجن هذا الجاني وكان فقيراً، فشفع الشيخ فيه فلم تُقبل شفاعته، فأنفق الشيخ على عائلة الجاني حتى خرج من سجنه، فلما عرف ذلك ثاب إلى نفسه وعاد إلى الحق.

همته:

لاشك أن الشيخ ذو همة عالية دعته لترك المنصب في مالي، وترك الأهل والوطن والتغرب من أجل طلَب العلم، وقَلّ من الناس من يقدر على هذا، بل إنه لم يعد لوطنه أبداً بعد مفارقته إياه.

وكان محتاجاً إلى المال أيام الدراسة في المدينة النبوية المنورة فتارة كان يحمل الماء بأجرة، وتارة كان يؤجر نفسه في بعض المخابز، وتارة يساعد الخياط، وهو مع كل ذلك مكب على طلب العلم بنشاط وهمة حتى صار أستاذاً في دار الحديث التي درس فيها سنة ١٩٤٥/١٣٦٤، وصار مدرساً في الحرم النبوي الشريف سنة ١٩٤١/١٣٦٠، وعاش حتى صارت الاستفتاءات ترد إليه من أنحاء العالم الإسلامي.

ثم صار مدرساً في المعهد العلمي في الرياض ثم مدرساً في كلية الشريعة فيها ١٩٥١/١٣٧٠.

ثم اختاره الملك عبدالعزيز -رحمه الله- ليكون داعية في ينبع فنفع الله به.

وكان ذا همة في التدريس يمكث فيه الساعات الطوال بدون ملل ولا كلل.

ـــ ومن همته العالية إنفاقه الدائم بعد أن فتح الله عليه ورزقه، فكان يعطي الفقراء فإذا قيل له: دع بعضاً من مالك لأهلك قال: إني تارك لهم خيراً من ذلك: الله جل جلاله.

ـــ ومن حسن أخلاقه ما حكاه تلميذه الشيخ عمر بن محمد فلاته -رحمهما الله تعالى- فقال: ولا أحصي عدد ما سمعته رحمة الله علينا وعليه يدعو إلى الاعتدال والإنصاف.

مؤلفاته :

له عدة كتب منها: "الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية".

و"توضيح الحج والعمرة".

و"جواب الإفريقي" رسالة فيها إجابات على أسئلة وردته من مليبار سنة ١٣٦٦/١٩٤٧.

ـــ توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٧٧/١٩٥٧.

٦- شيخ الأزهر التونسي
محمد الخضر حسين
١٢٩٣ – ١٣٧٧
١٨٧٦ – ١٩٥٨

قد ولي الأزهر في العصر الحديث شيوخ كثيرون كانوا ملء السمع والبصر لكن قليلاً منهم كان مثل الشيخ محمد الخضر حسين علماً وعملاً وحرصاً على المسلمين، هذا ولم يَلِ الأزهر غير مصري في العصر الحديث إلا الشيخ محمد الخضر حسين فيما أعلم.

وقد عاش الرجل في مدة مليئة بالأحداث منذ بدايات القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي.

ولد -رحمه الله تعالى- في مدينة نَفْطة بتونس في ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣/١٦ أغسطس ١٨٧٦، وأصل أسرته من الجزائر، من عائلة العمري، من قرية طولقة، وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري، وأصل أمه من وادي سوف بالجزائر أيضاً وأبوها هو الشيخ المشهور مصطفى بن عزوز وخاله الشيخ المشهور محمد المكي بن عزوز.

واسم الشيخ هو محمد الأخضر بن الحسين بن علي بن عمر، فلما جاء إلى الشرق حذف "ابن" من اسمه على الطريقة المشرقية، وغلب عليه الخضر عوضاً عن الأخضر.

ونشأ الشيخ في أسرة علم وأدب من جهتي الأب والأم، وكانت بلدة نَفْطة التي ولد فيها موطن العلم والعلماء حتى أنها كانت تلقب بالكوفة الصغرى، وبها جوامع ومساجد كثيرة، وهي واحة بها زرع وفيها فلاحون.

ونشأ الشيخ في هذه البيئة طالباً للعلم فحفظ القرآن، ودرس العلوم الدينية واللغوية على يد عدد من العلماء منهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز الذي كان يرعاه ويهتم به، وحاول الشيخ منذ سن الثانية عشرة أن يقرض الشعر، ثم برع فيه بعد ذلك.

ولما بلغ الشيخ سن الثالثة عشرة انتقل إلى تونس مع أسرته ودرس في جامع الزيتونة -فك الله أسره وأعاد مجده- وهناك درس على خاله محمد المكي بن عزوز الذي كان له شهرة كبيرة بالجامع ويدرس فيه مجاناً، ودرس على يد مشايخ آخرين أبرزهم الشيخ سالم بوحاجب الذي كان من أعمدة الإصلاح في تونس، درس على يديه صحيح البخاري، وقد تخرج الشيخ في الزيتونة سنة ١٣١٦/١٨٩٨، وألقى دروساً في الجامع في فنون مختلفة متطوعاً، وبقي كذلك مع حضور مجالس العلم والأدب المختلفة.

وفي شهر محرم سنة ١٣٢٢/ إبريل ١٩٠٤ أنشأ مجلة "السعادة العظمى" وهي أول مجلة عربية ظهرت في تونس، وكانت تصدر كل نصف شهر، ولم يصدر منها سوى ٢١ عدداً ثم انقطع صدورها، وقد كان الشيخ يكتب أغلب مقالاتها.

وقد وُجهت بنقد من قبل بعض الجامدين لأن الشيخ أيد فيها بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً، وكانت المجلة تتسم بالنقد الهادف واحترام التفكير الجيد.

رحلتاه إلى الجزائر:

ــ وفي سنة ١٣٢١/١٩٠٣ ارتحل إلى الجزائر، وفي السنة التي تليها ارتحل إليها أيضاً، وزار معظم المدن الجزائرية، وقصد العاصمة

الجزائر فزار المساجد والمكتبات، وحضر بعض الدروس الدينية واللغوية، كما شارك في بعض المجالس الأدبية وألقى بعض الدروس الشرعية.

مناصبه في تونس:

١. توليه منصب القضاء:

تولى منصب القضاء في بلدة بنـــزرت، ولم يكن يريده لكن الشيخ الإمام العلامة محمد الطاهر بن عاشور أقنعه بالقبول واشتد عليه فيه، لكنه بقي أشهراً قليلة ثم استقال، وعاد إلى تونس ليعاود التدريس في الزيتونة، وكان أثناء بقائه في بنـــزرت مباشراً الخطابة والتدريس في جامعها الكبير، وكان له فيها دروس شرعية وأدبية.

٢. عضوية الجمعية الزيتونية:

كان عضواً في الجمعية الزيتونية التي يرأسها الإمام العلامة محمد الطاهر بن عاشور، وهي خاصة بمشايخ جامع الزيتونة، فك الله أسره وأعاد مجده.

٣. التدريس في جامع الزيتونة والقيام على خزانة كتبه.

٤. التدريس بمدرسة الصادقية، وكانت الثانوية الوحيدة في تونس.

ـــ رحلته إلى بلاد الشام:

للشيخ ثلاثة إخوة أدباء فضلاء تركوا تونس واستقروا في الشام، وكان منهم زين العابدين أخوه العالم الذي كان يلقي الدروس في الجامع الأموي فأراد الشيخ زيارتهم، فغادر الشيخ تونس إلى الشام

سنة ١٩١٢/١٣٣٠ عن طريق البحر، ومر بمالطة والاسكندرية ثم القاهرة وألقى درساً في الأزهر، ثم ترك القاهرة إلى بورسعيد فيافا وحيفا، وفي كل مدينة من المدن كان يزور الأدباء والعلماء ويطلع على الكتب.

ثم دخل الشام فاستقبل استقبالاً حافلاً، وألقى دروساً في الجامع الأمويّ في الحديث، واتصل بالعلماء والأدباء، وبقي شهراً ونصفاً فيها ثم غادرها إلى بيروت في شوال سنة ١٩١٢/١٣٣٠، ثم غادرها إلى اسطنبول ليزور خاله الشهير محمد المكي بن عزوز الذي اتخذها موطناً له، و لم يلقه منذ خمس عشرة سنة، وبقي فيها شهرين ثم غادرها إلى تونس.

انتقاله إلى الشام:

بقي في تونس أسابيع قليلة ثم خرج منها -إلى غير رجعة- لما ضيق الاستخراب الفرنسي عليه تاركاً زوجه التي رفض أهلها أن يأخذها معه، وكان ذلك في سنة ١٣٣١/ ديسمبر ١٩١٢، فوصل دمشق ثم غادرها إلى الحجاز بالسكة الحديد للحج، وزار ألبانيا ودار في البلقان، ثم ذهب إلى الأسِتانة -اسطنبول- ثم وصل دمشق واستقر فيها بحي الميدان ببيت إخوته الذين سبقوه إلى هنالك.

ودرّس في دمشق بالمدرسة السلطانية، واستمر كذلك حتى سجنه جمال باشا السفّاح والي الشام العثماني سنة ١٩١٦/١٣٣٥ متهماً إياه بالتآمر على السلطة الحاكمة، وبقي في السجن ستة أشهر -وقيل أكثر من ذلك- فلما خرج منه عاد إلى التدريس بالمدرسة السلطانية والجامع الأموي.

ثم طلبته وزارة الحربية العثمانية -أثناء الحرب العالمية الأولى- للعمل فيها مُنشئاً للرسائل العربية فغادر دمشق إلى اسطنبول، ومن هنالك أرسلته الدولة العثمانية إلى ألمانيا مع مجموعة من المشايخ في مهمة سياسية تتمثل في تحريض المغاربة هنالك ضد الوجود الفرنسي في شمال افريقيا وضد الإيطاليين في ليبيا، فبقي ٩ أشهر تعلم فيها اللغة الألمانية واطّلع على عادات المجتمع الألماني، ثم عاد إلى اسطنبول فبقي فيها قليلاً، ثم عاد إلى برلين ليقيم فيها سبعة أشهر أخرى إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى وسقطت اسطنبول بأيدي الحلفاء.

وقد شارك أثناء إقامته في ألمانيا بكتابة تقرير مفصل عن مطالب الشعب الجزائري والتونسي وقد رُفع هذا التقرير إلى مؤتمر الصلح المنعقد في فرنسا.

وحضر سنة ١٣٣٦/١٩١٧ فتح مسجد للجنود المسلمين في برلين، وألقى فيه محاضرة عن الحرية.

ـــ ولم يأكل أثناء إقامته في ألمانيا اللحم لأن الألمان لا يذبحون بالطريقة الشرعية وإنما يضربون الحيوان على رأسه حتى يموت أو يخنقونه.

وقد أُعجب بحب الألمان العمل وإقبالهم عليه حتى عَجَزتُهم.

عودته إلى دمشق:

لما سقطت اسطنبول بأيدي الحلفاء عاد من هامبورج بألمانيا إلى اسطنبول بباخرة أقلّته ومن معه من العثمانيين، ومنها عاد إلى دمشق التي كانت قد خضعت للحكم العربي -بعد زوال العثمانيين- بقيادة فيصل بن الشريف حسين.

وفي دمشق انضم إلى المجمع العلمي العربي عضواً عاملاً، ثم لما استقر بمصر بقي عضواً مراسلاً.

انتقاله إلى مصر واستقراره فيها:

لما سقطت الشام في أيدي الفرنسيين ١٩٢٠/١٣٣٩ ما وسعه المقام فيها؛ وذلك لأن الفرنسيين كانوا قد حكموا عليه غيابياً في تونس بالإعدام لاتهامه بالمشاركة في تحريض المغاربة بألمانيا وتركيا على الثورة ضد الفرنسيين في شمال افريقيا، فهرب إلى مصر، وبقي فيها إلى نهاية حياته المباركة.

وعمل في مصر مصححاً بدار الكتب المصرية بشفاعة أحمد تيمور باشا الذي عرف قدره، وكان يلقي المحاضرات والدروس في مساجدها، ويكتب المقالات المتنوعة الكثيرة.

وفي القاهرة أنشأ "جمعية تعاون جاليات افريقيا الشمالية" التي تهتم بالمغاربة من الناحيتين الثقافية والاجتماعية؛ وذلك سنة ١٩٢٤/١٣٤٢، وبعد عشرين سنة ألف جمعية "جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية".

وفي تلك المدة أسقط الهالك أتاتورك الخلافة الإسلامية، ومن ثم تطلع الناس إلى بلد آخر ليكون مهداً للخلافة فاتجهت الأنظار إلى مصر، وآنذاك كتب الشيخ علي عبدالرازق كتابه المشؤوم "الإسلام وأصول الحكم" أنكر فيه أن يكون للإسلام سلطة ودولة إنما هو سلطة روحية فقط، فقامت عليه قيامة العلماء والمفكرين بمصر، وفصل من هيئة كبار العلماء في محرم سنة ١٩٢٥/١٣٤٤ واتهم بالزندقة

والإلحاد، وحينئذ ألف الشيخ محمد الخضر حسين كتابه الشهير الذائع الصيت "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" ونال به حظوة عند الملك فؤاد الذي -كان يطمع بالخلافة- وجَمْعٍ من العلماء والأدباء والمفكرين والمثقفين، وعظمت به شهرته، وطار به صيته، وقد أهدى الكتاب لخزانة الملك فؤاد.

ـــ وفي مصر اختلف مع طه حسين عندما ألف كتابه "في الشعر الجاهلي" وكان في الكتاب انحراف خطير واتباع لأقوال المستشرق الانجليزي مرجليوث وطعن في القرآن، فاشتد غضب علماء الأزهر حين صدر هذا الكتاب، وحاكموا صاحبه إلى محاكم مصر التي كانت تحت التأثير الانجليزي فبرأته، وهنا ألف الشيخ محمد الخضر كتابه "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" الذي كان باعتراف طه حسين من أهم الردود عليه وأشدها حجة.

وفي سنة ١٣٤٦/١٩٢٨ شارك في تأسيس "جمعية الشبان المسلمين" ووضع لائحتها مع صديقه محب الدين الخطيب.

ـــ وفي مصر أنشأ "جمعية الهداية الإسلامية" مع بعض المشايخ منهم شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي، وذلك في سنة ١٣٤٦/١٩٢٨ لمّا رأى التفسخ الخلقي آخذاً في الانتشار بين كثير من شباب مصر آنذاك، وكان من أهداف الجمعية محاربة الفساد والإلحاد، والتعريف بالإسلام، والسعي لتمتين الصلات بين الشعوب الإسلامية والسعي لإصلاح شأن اللغة العربية وإحياء آدابها، وأصدر مجلة "الهداية الإسلامية" لتكون لسان حال الجمعية، وأُلقيت المحاضرات في المساجد

والنوادي خاصة التي تتبع هذه الجمعية، وقد رَأَس الجمعية الشيخ محمد الخضر حسين، وفيها بعض الأعضاء البارزين مثل الشيخ علي محفوظ، والشيخ عبدالوهاب النجار، وفتحت الجمعية فروعاً في مصر وسوريا والعراق.

وقد توقف صدور المجلة بعد ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية.

مناصب الشيخ في مصر:

ـــ التدريس في الأزهر:

اختير الشيخ محمد الخضر حسين للتدريس في قسم التخصص بالأزهر، وهذا دال على مدى علمه؛ إذ لا يدرس في الأزهر آنذاك إلا كبار العلماء.

ـــ رئاسة تحرير مجلة الأزهر:

ـــ اختير الشيخ محمد الخضر لتولي رئاسة تحرير مجلة الأزهر التي صدرت في بداياتها باسم "نور الإسلام" وذلك سنة ١٩٣١/١٣٤٩ ثم تحولت إلى مجلة الأزهر، وما زالت تصدر إلى يومنا هذا، وبقي الشيخ فيها إلى أن عزل عنها بعد أربع سنوات.

ـــ وتولى رئاسة تحرير مجلة "لواء الإسلام" سنة ١٩٤٦/١٣٦٦.

وفي القاهرة اختير عضواً بـــ "مجمع اللغة العربية الملكي" عند إنشائه سنة ١٩٣٢/١٣٥١.

ــ واختير عضواً لهيئة كبار العلماء سنة ١٩٥٠/١٣٧٠.

ــ ثم اختير شيخاً للأزهر بعد ثورة يوليو في سنة ١٩٥٢/١٣٧١ وفي عهده أرسل وعاظاً أزهريين إلى السودان، ثم استقال منه بعد أقل من سنتين، وفي ولايته للأزهر دلالة على رفعة شأنه عند العلماء والساسة، فقد كان الأزهر أعظم مؤسسة إسلامية في العالم الإسلامي وقد قال الشيخ العلامة الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور التونسي عند اختيار الشيخ محمد الخضر شيخاً للأزهر: "ليحق لهذه الحقبة من التاريخ التي تُظِلُّنا أن تفخر بأنها بلغت فيها الصِلات بين الأزهر والزيتونة أوجها؛ فقد احتضن الأزهر إماماً من أئمة الأعلام، كان أحد شيوخ الزيتونة العظام".

وقد أحسنت مصر وفادته منذ نزل إليها سنة ١٩٢٠/١٣٣٩ وتجنس بجنسيتها وبقي فيها إلى وفاته، ودفن فيها.

علاقته بالسياسة:

كان للشيخ -رحمه الله تعالى- بعض الأفكار في باب السياسة وخاض في شيء منها فقد كان مهتماً بالاتحاد الإسلامي، حريصاً على تفقد أحوال المسلمين، متألماً مما نزل بهم، وكان -رحمه الله تعالى- حسن الصلة بوطنه تونس، حريصاً على تتبع أحواله، وإعانة أبنائه في كل الميادين، وكان بيته قبلة للتونسيين القادمين إلى القاهرة، وسخر مكانته العلمية والدينية من أجل مساعدة المدافعين عن قضية تونس خصوصاً والمغرب العربي الكبير عموماً فعرف بهم السلطات والهيئات والمسؤولين في مصر، وأنشأ جمعيتين لهذا الغرض كما ذكرت آنفاً.

وقد ذكرت من قبل أن الدولة العثمانية ابتعثته إلى ألمانيا في مهمة سياسية حكمت عليه فرنسا من أجلها بالإعدام.

لكن الشيخ لم يكن يحب الحديث في المجالات السياسية في مجلته "الهداية الإسلامية" ولا في مجلة "نور الإسلام" التي أصبحت الأزهر فيما بعد، حتى أنه قد جرت أحداث مهمة في تونس والمغرب في ذلك الوقت لكن الشيخ لم يكن يذكرها، ولعل مرد ذلك إلى تخوفه من الدخول في غمار شيء لا يدري ما عواقبه في مصر، وهذا السبب غير مقنع لي، والسبب الأقوى -عندي- هو أن الشيخ كان مهتماً بالإصلاح التربوي والاجتماعي والديني أكثر بكثير من اهتمامه بالسياسة التي أكد على البعد عنها في افتتاحية العدد الأول من مجلة "الهداية الإسلامية" ومجلة "نور الإسلام" في عددها الأول أيضاً، وهي التي أصبحت مجلة "الأزهر" فيما بعد، وهذا مما أثار عليه حفيظة الشيخ محمد رشيد رضا فجرى بينهما ما لا أحب ذكره، عفا الله عنهما وغفر لهما، وعلى كل حال فلا يعني عدم تعرضه للسياسة في المجلتين أنه بعيد في حياته العملية عنها بل قد كان بها ذا صلة كما بينت آنفاً لكنه آثر لسبب لا أدريه -على وجه القطع واليقين- أن يبتعد عنها في المجلتين، والله أعلم.

صفاته:

كان الشيخ -رحمه الله تعالى وإيانا- مؤثراً للهدوء في النقاش والحديث، عَفّ اللسان، جريء الجنان، محباً للإصلاح، عاملاً على جمع الكلمة، ومن أبرز صفاته الزهد فقد كان ظاهراً فيه طوال حياته،

وكان يردد كثيراً: "يكفيني كوب لبن وكسرة خبز وعلى الدنيا بعدها العَفاء".

وهو -بلا شك ولا ريب- صاحب همة عالية أهّلته للوصول إلى ما وصل إليه، رحمه الله وإيانا.

من مواقفه:

ــ عندما كان في ألمانيا حضر عند مدير الاستخبارات الألمانية وكان معه سكرتيره، وذلك أثناء سفرهم إلى قرية ألمانية، وفي نهاية الحديث سأله المدير: أليس كذلك يقرر ابن خلدون؟

فقال له: وماذا يقرر؟

قال: إن العرب لا يصلحون لملك ولا يحسنون حكماً للأمم.

فقال له: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية، وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة وقاموا بأعباء الملك خير قيام، وقد بين ذلك غاية البيان في فصل عقده في مقدمته.

وهذا يدل على أن مدير الاستخبارات الألماني كان متابعاً لأحوال العرب، وأن الشيخ محمد الخضر كان قارئاً جيداً واعياً حاضر الذهن.

ــ ومن مواقفه الجيدة أن السلطات الفرنسية الاستخرابية في تونس دعته ليكون عضواً في المحكمة المختلطة التي يكون فيها قضاة مسلمون وأجانب فرفض لأن المحكمة تحكم بغير ما أنزل الله، ولأن المحكمة قائمة في ظل الاحتلال وستخدم مصالحه.

ــ ومن مواقفه الجريئة أنه حاضر في تونس عن الحرية في الإسلام أثناء وجود الاستخراب الفرنسي فيها، وذلك في نادي قدماء مدرسة الصادقية الثانوية، قال فيها:

"إن الأمة التي بُليت بأفراد متوحشة تجوس خلالها، أو حكومة جائرة تسوقها بسوط الاستبداد هي الأمة التي نصفها بصفة الاستعباد، وننفي عنها لقب الحرية" ثم بين الآثار السيئة للاستبداد في شجاعة وجرأة، وقد تناقل الناس مضمون المحاضرة ووصلت أخبارها إلى الشام وغيرها.

ــ وفي مصر كان له موقف مشرف حين طلب أحد أعضاء مجلس الثورة مساواة الجنسين في الميراث، ولما علم الشيخ بذلك أنذرهم إن لم يتراجعوا عن هذا فسيلبس كفنه ويدعو الشعب إلى زلزلة الحكومة والقيام عليها لاعتدائها على حكم من أحكام الله، فكف ذلك العضو عما نواه من تغيير حكم الله تعالى، فما أحوجنا اليوم لمثله.

ــ وقد استقال من الأزهر عندما حدثت الحادثة العظمى بضم القضاء الشرعي إلى القضاء الأهلي الذي اخترعه الاستخراب الانجليزي، وكان يرى -كما يرى كل مسلم- بوجوب حدوث العكس وهو إلغاء القضاء الأهلي وتثبيت الشرعي، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان يقول عن وظيفته في الأزهر قولاً لابد أن يسمعه شيخ الأزهر اليوم:

"إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأتّ أن يحصل للأزهر مزيد الازدهار على يدي فلا أقل من ألا يحصل له نقص"، وهي مقولة جليلة.

ومن شعره:

للشيخ شعر جيد كثير ضمن بعضه في ديوان منشور، سماه "خواطر الحياة"، فمنه في ذم الكماليين الذين ألغوا الخلافة:

ما خَطْبُ قومٍ – طالما وصلوكِ　　　واعتز باسمكِ عرشُهم- هجروكِ
حرسوك أحقاباً وحَلّق صيتهم　　　في الخافقين لأنهم حرسوكِ

ومنه حين نصحه بعض أصحابه بالرجوع إلى الشام وترك مصر:

يقول: تقيم في مصر وحيداً　　　وفقد الأُنس إحدى الموتتين
ألا تَحْدو المطية نحو أرض　　　تعيد إليك أنس الأُسرتين
وعيشاً ناعماً يدع البقايا　　　من الأعمار بِيضاً كاللُجين
فقلت له: أيحلو لي إياب　　　وتلك الأرض طافحة بغَيْنِ
وما غينُ البلاد سوى اعتساف　　　يدنسها به خُرْق اليدين

والغين هو الغيم، والمقصود به الاستخراب الفرنسي الذي خرب الشام آنذاك.

وقال يمدح الأمير محمد عبدالكريم الخطابي يوم جاءت السفينة به من منفاه واستطاع بعض المخلصين تخليصه في السويس وهو في طريقه إلى سجنه بفرنسا، فقال على الباخرة مرحباً به:

قلت للشرق وقد قــام علــى قدم يَعِــرض أربــاب المزايــا
أرني طلعـــة شـــهم ينتضـــي سيفه العَضْب ولا يخشى المنايــا
أَرِنيهـــا إنـــي مـــن أمـــة تركب الهول ولا ترضى الدنايا
فأراني بطـــل الريـــف الـــذي دحر الأعداء فارتـــدوا خزايـــا

من الأقوال في مدحه:

ـــ قال فيه العلامة عبد المجيد اللبان رئيس لجنة امتحان شهادة العالمية بالأزهر يوم تقدم إليها للاختبار:

"هذا بحر لا ساحل له فكيف نقف معه في حِجاج".

ـــ وقال عنه الشيخ العلامة محمد علي النجار:

"إن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره، إلا في النُدْرَى؛ فقد كان عالماً ضليعاً بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصد الناس ومعاقد شؤوهم، حفيظاً على العروبة والدين، يردّ ما يوجه إليهما وما يصدر من الأفكار منابذاً لهما، قوي الحجة، حسن الجدال، عف اللسان والقلم".

ـــ وقال عنه العلامة الضخم الجليل الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور:

"إنه من أفذاذ علماء الإسلام، وقد كان قليل النظير في مصر".

ـــ زواجه:

تزوج الشيخ أربع مرات، مرة بتونس وقد ترك زوجه عند خروجه من تونس لرفض أهلها أن يصحبها معه، وتزوج في سوريا ثم طلق، ثم تزوج في مصر امرأة عاشت معه ثلاثين سنة ثم ماتت، فتزوج من امرأة من أهل زوجه المصرية.

ولم يرزق الشيخ بأولاد من أي من زوجاته.

ـــ مؤلفاته:

للشيخ عدة كتب منها:

"وسائل الإصلاح" ثلاثة أجزاء.

وفي الكتاب نقد للأوضاع القائمة، وتقويم لها، وفيه ردٌ على بعض الضلال الفكري الذي كان سمة من سمات ذلك العصر، وفيه تركيز على أثر العلماء والعناية بهم وحثهم على القيام بوظائفهم.

"بلاغة القرآن".

"أديان العرب قبل الإسلام".

"تونس وجامع الزيتونة".

"حياة ابن خلدون".

"دراسات في العربية وتاريخها".

"تونس: ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي" أصدره سنة ١٩٤٨.

"أدب الرحلات".

"الحرية في الإسلام".

"آداب الحرب في الإسلام".

"تعليقات على كتاب الموافقات" للشاطبي.

إضافة إلى مئات المقالات والمحاضرات.

ـــ وفاته:

توفي -رحمه الله تعالى وغفر لنا وله- في رجب مضر سنة ١٣٧٧/١٩٥٨ عن أربع وثمانين سنة، ودفن في القاهرة في مقبرة أصدقائه آل تيمور، وأهدى مكتبته العلمية النادرة الضخمة لزوجه الأخيرة.

وقد احتفلت تونس رسمياً بالذكرى الخمسين لوفاته وأبرزت أعماله، وهذا منهم عجيب؛ إذ يحتفلون بالشيخ الذي يناقضون عمله وسعيه واتجاهه في كل نواحي الحياة في تونس اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٧- العالم السياسي
الحاج محمد أمين الحسيني

١٣١٥ – ١٣٩٤

١٨٩٧ – ١٩٧٤

أكثر العلماء في العصر الحديث كانوا عن السياسة بمعزل، بل بعضهم لعن فعل ساس ويسوس واستعاذ منهما وبرئ من تبعاتهما فصار في معزل عن آمال الجماهير وآلامهم، لكن الشيخ محمد أمين الحسيني كان -على علمه وفضله- رأس ساسة فلسطين، ومن السياسيين الكبار المعدودين في عهده.

ولد -رحمه الله تعالى- في القدس سنة ١٨٩٧/١٣١٥ في أحوال صعبة، والأمة الإسلامية قد بلغت درجة مؤسفة من الضعف والهوان على الله وعلى الناس، وكانت أسرته أسرة علم وفضل تنتسب إلى بيت النبوة الطاهر، ووالده طاهر الحسيني كان مفتياً للقدس ونقيباً للأشراف وتوفي سنة ١٩٠٨/١٣٢٦، وتلقى الشيخ محمد القرآن وعلوم الدين والعربية على أبيه وعلى آخرين جاء بهم والده إلى بيته لتعليمه، ودرس في الكتّاب أيضاً، وحفظ القرآن وهو في العاشرة، ثم أرسله والده إلى مدارس القدس الابتدائية ثم الثانوية -ولم يكن آنذاك نظام الإعدادية المتوسطة قائماً- ثم أدخله مدرسة "الفرير" لتعلم الفرنسية، ثم أرسله والده للأزهر فدرس فيه وفي كلية الآداب في الجامعة المصرية، ودرس أيضاً في مدرسة الأستاذ محمد رشيد رضا "دار الدعوة والإرشاد".

دراسته في الكلية العسكرية في اسطنبول:

عاد إلى القدس في إجازة سنة ١٩١٤/١٣٣٢ فعَلِق هناك لقيام الحرب العالمية الأولى فلم يعد يستطيع العودة، فذهب إلى اسطنبول ليكمل دراسته لكنه آثر أن يدرس العسكرية ففعل وتخرج في

الكلية العسكرية ضابطاً ليكون أحد العلماء القلائل جداً الجامعين بين الدراسة العسكرية والدينية في العصر الحديث، وقد تنقل في عدة مراكزَ عسكرية في الدولة العثمانية، ثم ترك العسكرية في نهاية الحرب العالمية الأولى بعد اكتسابه خبرة جيدة ساعدته بعد ذلك في العمل العسكري والسياسي.

وكان يقول عن خبرته تلك:

"إنني ضابط قديم، لي خبرتي في الحرب، وليس الدم الذي يجري في عروقي دم العلماء فحسب، وإنما دم المجاهدين".

وجاءت شهرته بالحاج لذهابه إلى الحج مع والدته سنة ١٩١٣/١٣٣١ في وقت عَزّ فيه حج العلماء والمشايخ فاشتهر بالحاج ولصق به اللقب طوال حياته.

أعماله ومناصبه ووظائفه:

كان الشيخ محمد أمين الحسيني مِلء السمع والبصر في فلسطين وغيرها، وله أعمال كثيرة جداً، وتولى الشيخ رحمه الله تعالى عدة مناصب ووظائف، سأسردها هاهنا قبل ذكر تفاصيل عمله حتى يكون ذلك معيناً للقارئين على فهم تلك التفاصيل.

ـــ تأسيس ورئاسة "النادي العربي"، وهو أول منظمة سياسية في فلسطين، وكان من مبادئه العمل على استقلال البلاد العربية والعمل على اتحادها، وكان الحاج أمين يؤمن بسوريا الكبرى وفلسطين جزء منها.

ــ عمل مدرساً بمدرسة روضة المعارف الوطنية، وكانت المدرسة تموج بالحركة القومية والإسلامية، ودرّس في المدرسة الرشيدية في القدس.

ــ رأس أول مجلس للشؤون الإسلامية والأوقاف والمحاكم الشرعية وهو "المجلس الإسلامي الأعلى لفلسطين" سنة ١٣٤٠/١٩٢٢.

ــ تولى منصب مفتي القدس بعد أخيه الحاج كامل الحسيني.

ــ أعاد تنظيم ١٨ محكمة شرعية في فلسطين.

ــ تولى ولاية الأوقاف الإسلامية في فلسطين بعد أن انتزعها من اليهودي الانجليزي بنتويش.

ــ أسس عدة مدارس إسلامية في فلسطين.

ــ أسس الكلية الإسلامية سنة ١٣٤٢/١٩٢٤ في القدس.

ــ تولى رئاسة لجنة ترميم المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

ــ تولى رئاسة المؤتمر الإسلامي العام الذي ابتدأ سنة ١٣٥٠/١٩٣١ في القدس، ثم تكرر انعقاده في مكة وبغداد وكراتشي وغيرها.

ــ كون جمعية "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في فلسطين للإصلاح ومقاومة شراء اليهود للأراضي.

ــ تأسيس ورئاسة "اللجنة العربية العليا" في فلسطين.

ـــ الإشراف على إنشاء "جيش الجهاد المقدس" سنة ١٩٣٥/١٣٥٤ بقيادة الشهيد بإذن الله تعالى عبدالقادر الحسيني.

ـــ المشاركة في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الانجليز سنة ١٩٤١/١٣٦٠.

ـــ إنشاء مكاتب للحركة العربية والقضية الفلسطينية في برلين وروما وغيرهما في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

ـــ رئاسة "الهيئة العربية العليا لفلسطين" التي كُونت بقرار من جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٦/١٣٦٥.

ـــ رئاسة وفد فلسطين في مؤتمر باندونج بإندونيسيا بصفة مراقب سنة ١٩٥٥/١٣٧٤.

ـــ رئاسة المؤتمر الوطني الفلسطيني الذي أعلن حكومة عموم فلسطين ووضع دستورها وبرنامج الحكومة سنة ١٩٤٨/١٣٦٧.

وغير ذلك من الأعمال والمناصب والوظائف التي تدل على همة الرجل العالية، وعمله الدائب من أجل قضية فلسطين وغيرها من بعض قضايا المسلمين الأخرى.

جهاد الحاج أمين الحسيني من أجل فلسطين:

لم يأل الحاج أمين الحسيني جهداً في سبيل إنقاذ فلسطين، وسافر من أجلها إلى سوريا وتركيا وأفغانستان وألمانيا وإيطاليا ومصر، وبدأ حياته العملية في فلسطين مدرساً ببعض مدارسها، ثم شارك في الأعمال الجهادية وفي المظاهرات التي قامت سنة

١٩٢٠/١٣٣٩ وقد اضطربت الأوضاع بسبب تحرش اليهود بالفلسطينيين، وقتل فيها بعض المسلمين واليهود، فاتهم اليهود الحاج أمين بأنه كان المحرض لأهالي القدس فحاولوا اغتياله فنجا، وحكم عليه الانجليز بالسجن واقتادوه إليه، وفي الطريق هجم على الجنود بعض الشباب وخلصوا الحاج من بين أيديهم، فهرب عبر البحر الميت إلى الكَرَك -في الأردن اليوم- ومنها إلى دمشق ليكون بجوار فيصل بنِ الحسين الذي كان ملكاً على سورية، فحكم عليه الانجليز غيابياً بخمس عشرة سنة سجناً، وعندما حلت الإدارة المدنية مكان الإدارة العسكرية في فلسطين عفت عنه بضغط الفلسطينيين وعاد إلى القدس.

ثم عين مفتياً للقدس في السنة التي تلت المظاهرات فعمل على تحسين أحوال أهالي فلسطين الاقتصادية والتعليمية، ورعى الأوقاف الإسلامية.

ـــ وأسس مكتبة المسجد الأقصى التي حوت آلاف الكتب.

ـــ وفي سنة ١٩٢٢/١٣٤٠ انتخب رئيساً لـــ "المجلس الإسلامي الأعلى" في فلسطين، وكان هذا المجلس قد أسسه المسلمون ليتولوا بأنفسهم إدارة أوقافهم ومساجدهم، وعَدّ الإنجليز تأسيس هذا المجلس إنشاءً لحكومة ثالثة في فلسطين بجوار الحكومة البريطانية والعصابات اليهودية، وذلك لعظم المؤسسات والجهات التي يقوم عليها هذا المجلس؛ فهو مسؤول عن ثماني عشرة محكمة شرعية، وجهازٍ مكون من ٢٥٠ معاوناً وست دوائر للأوقاف، فيها ٥٩٢ موظفاً، وعشر مدارس، وكلية إسلامية، وعدة مؤسسات أهمها دار الأيتام الإسلامية الصناعية في القدس.

وبعد انتخاب الحسيني رئيساً للمجلس بزغ نجمه، وعده الفلسطينيون رئيساً "روحياً" لهم، وبسبب ذلك نازعه الحُسّاد منصبه، وشكوه إلى الحاكم البريطاني مراراً، وجمعوا آلاف التواقيع ضده ورفعوها إلى الحاكم البريطاني!! وهذا يُظهر بجلاء أن المشكلة الدائمة هي اختلاف المسلمين فيما بينهم، وأن هذا الاختلاف هو الممكّن للأعداء من رقاب المسلمين لكن قومي لا يتعظون!!

ولما انتخب الشيخ رئيساً للمجلس سافر على رأس وفد من رجال فلسطين سنة ١٣٤١/١٩٢٣ إلى دمشق زمن استيلاء الفرنسيين على بلاد الشام، وأقام بفندق فكتوريا فجاءت فرقة من الجيش الفرنسي فطوّقت الفندق ومنعت الناس من السلام على الحاجٍ أمين ومَن معه، وطلب قائد القوة من الحاج مغادرة دمشق فوراً فرفض وقال للقائد الفرنسي: إن دمشق بلدي ولي حق الإقامة فيها، أما أنتم فغرباء عنها، دخلاء عليها، وليس من حقكم منعٍي من الإقامة في وطني، وقامت في دمشق مظاهرة شعبية كبيرة استياءً من صنيع فرنسا، ووقعت بعض الصدامات العنيفة بسبب ذلك، ففرق الفرنسيون المظاهرة، ثم حملوا المفتي بالقوة ونقلوه في دبابة فرنسية إلى الحدود العراقية.

ـــ وأسس كلية إسلامية في ساحة المسجد الأقصى المبارك لتهيئة الطلاب للعمل في المراكز الدينية في المساجد والقضاء وغير ذلك.

ـــ وفي سنة ١٣٤٣/١٩٢٥ أسس فرقاً كشفية كانت عسكرية في تدريبها وتشكيلها لكنها كشفية في ملابسها وزيها، وهذا من أجل الإعداد للجهاد.

وفي سنة ١٩٢٥/١٣٤٣ زار المشؤوم بلفور صاحب الوعد الظالم فلسطين من أجل افتتاح الجامعة العبرية في القدس فأضربت البلاد إضراباً شاملاً عاماً، وصدرت الصحف مجللة بالسواد، فأمر الحاج أمين -من خلال المجلس الإسلامي الأعلى- بأن تُغلق في وجهه جميع الأماكن الإسلامية المقدسة ومنعه من زيارتها أو الدخول إلى ساحاتها، فطلب المندوب السامي هربرت صموئيل من الحاج أن يزور بلفور الأقصى الشريف فلم يرض الحاج أمين، وأقفل أبواب المسجد وطلب من الحراس عدم فتحها لبلفور ومرافقيه، فلما جاؤوا وجدوا الأبواب مغلقة فعادوا، وهذا صنيع جليل من الحاج دال على عِزة؛ فإن بلفور وُصف بأنه أشد صهيونية من هرتزل!!

ـــ وفي سنة ١٩٢٩/١٣٤٧ بعد أحداث حائط البراق أسس جمعية "حماية البراق الشريف" لتقوم في وجه اليهود الذين أسسوا جمعية "أنصار حائط المبكى"، ونقل مكان سكنه من خارج القدس إلى بيت يشرف على الحائط مباشرة ليراقب الوضع هنالك.

ـــ وأسس أيضاً منظمة "الكف الأخضر" العسكرية التي تقف في وجه اليهود وتحمي المقدسات، وتقتل العملاء الخونة.

وفي سنة ١٩٣١/١٣٥٠ دعا الحاج أمين الحسيني زعماء العرب والمسلمين إلى عقد مؤتمر عام في القدس للدفاع عن قضية فلسطين، فلُبيت دعوته وحضر زعماء وقادة وعلماء من الدول العربية ومن أفغانستان وإيران والهند والملايو ونيجيريا وغيرها، وانتخب الحاج أمين رئيساً لذلك المؤتمر، وبهذا يكون الحاج محمد أمين الحسيني

قد نقل القضية الفلسطينية من المحلية إلى العالمية، ووجه المؤتمر بعقبات عديدة من حُسّاد الداخل وجُهّال الخارج لكن الحاج الحسيني تمكن من تذليل تلك العقبات، وعقد المؤتمر سبع عشرة جلسة في عشرة أيام وتمخض عن قرارات مهمة لكن ريا السياسة العالمية والإسلامية غير المواتية عطلت تلك القرارات.

ـــ وأسس منظمة "الجوال المسلم" التي انتسب إليها أكثر من ألفين من الشباب، وكان منهم عُدة للشيخ بعد ذلك في بعض الحوادث.

وقد ذكرت من قبل أنه أسس سنة ١٩٣٥/١٣٥٤ منظمة الجهاد المقدس واختار الشهيد -إن شاء الله- عبدالقادر الحسيني قائداً لها، وكانت تحت إشراف الحاج ورئاسته سراً، وكان لهذه المنظمة يد طولى في الجهاد في فلسطين إلى أن سقطت سنة ١٩٤٨/١٣٦٧.

وفي عام ١٩٣٦/١٣٥٥ حصل الإضراب العظيم في فلسطين، فاجتمع ممثلو الأحزاب السياسية في فلسطين وقرروا تأسيس "اللجنة العربية العليا" لفلسطين برئاسة الحاج أمين الحسيني، فاجتمع له بذلك القيادة الدينية والسياسية برئاسة هذه اللجنة ورئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وهذا لم يتيسر لعالم في العصر الحديث، فيما أعلم، إلا لقلة قليلة جداً منهم عثمان بن فودي في نيجيريا والسنوسي في ليبيا وعبدالكريم الخطابي في الريف المغربي.

وصار الحاج أمين بذلك رئيساً للفلسطينيين بلا منازع.

وألّف الحاج أمين عدة لجان سرية لشراء السلاح من فلسطين وخارجها، وأقام مراكز للتدريب على السلاح وحرب العصابات على يد الضباط العرب المتقاعدين من الجيش العثماني السابق.

وأصدر فتوى بعدم دفن من يبيع أرضه لليهود في مقابر المسلمين، وأنه خارج عن الإسلام.

ورفضت اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الوعد بقرار التقسيم الصادر سنة ١٩٣٧ فرأى الإنجليز في الحاج أكبر عقبة أمامهم.

ولما عَظُم نشاط الحاج أمين وظهرت نيته في جهاد اليهود والإنجليز ضيق عليه الانجليز، خاصة بعد اغتيال حاكم لواء الجليل آندروز بيد المجاهدين سنة ١٣٥٦/١٩٣٧، فأراد الإنجليز اعتقاله ففر إلى لبنان، وفي ذلك قالت جريدة "التايمز" الانجليزية في عددها الصادر في ١٦/٧/١٩٣٧:

"إن المفتي هو العقبة الوحيدة أمام حل القضية الفلسطينية والتفاهم مع اليهود، فيجب على حكومة بريطانيا ألا تترك الساحة خالية لنشاطه، بل عليها أن تقيله من مناصبه وأن تبطش به وبالفريق المتصلب العنيد من المتطرفين".

وكان الشيخ -قبل تضييق السلطات البريطانية الخناق عليه وفراره إلى لبنان- يريد الجهاد، وقد كتب في مذكراته شارحاً لهذا الأمر فقال:

"وقد كنت أبديت رغبتي لصفوة من قادة المجاهدين في الخروج من القدس عام ١٩٣٧ إلى إحدى المناطق الجبلية المنيعة في فلسطين للمشاركة الفعلية في الجهاد؛ إذ كنت قد مارست الجندية عندما كنت ضابطاً في الجيش العثماني طول مدة الحرب العالمية الأولى، ولكن أولئك القادة -بعد دراسة عميقة للموضوع- عارضوا هذه الرغبة بقوة قائلين: إن وجودي في أي منطقة من مناطق الثورة يجعلها هدفاً مركزاً للأعمال العسكرية البريطانية، ومهاجمتها بالطائرات والمدافع والمصفحات حتى يقضوا عليها".

وفي لبنان ضيق عليه الفرنسيون وحددوا إقامته في بلدة سكانها نصارى وهي جونية ليحدوا من نشاطه، وكان ذلك قُبيل الحرب العالمية الثانية، وحاولوا اغتياله، وسجنوا عدداً من المجاهدين.

وبعد أن مكث سنتين في لبنان فرّ إلى العراق فأسس فيه "حزب الأمة العربية" برئاسته وكان حزباً سرياً انضم إليه رشيد عالي الكيلاني صاحب الثورة المشهورة سنة ١٣٦٠/١٩٤١ ضد الإنكليز في العراق، وغيره من العسكريين وقد ساعده المفتي في ثورته هذه وأمده بالرجال.

وطلب المفتي من السلطات العراقية تدريب الفلسطينيين الموجودين في العراق تدريباً عسكرياً فوافقته، وأصلح بين فريق نوري السعيد وفريق رشيد عالي الكيلاني فقد كان الأول يرى التعاون مع الإنجليز بينما كان رشيد ثائراً ضدهم، واستطاع أن يحسن العلاقات

بين السعودية والعراق، وكل ذلك أثار عليه حقد الإنجليز وغضبهم، فحاولوا اعتقاله فهرب إلى إيران.

فلما احتلت روسيا وبريطانيا طهران استطاع الهرب إلى إيطاليا عبر تركيا، ومنها إلى بلغاريا، وقد وصلها من طهران في اثنين وعشرين يوماً في رحلة برية عسيرة، فلما وصل إلى بلغاريا اشتد حزنه لأنه شعر بالأمان من الانجليز في تلك الديار بينما كان مطارداً في بلاد الإسلام، وكان يردد في سره: أين هي دار الإسلام؟

ثم سافر إلى ألمانيا فحلّ ضيفاً على الحكومة الألمانية، وحاول استمالة الألمان والطليان إلى مطالب الدول العربية والاعتراف باستقلال الواقع منها تحت الاحتلال البريطاني، وحاول مع الألمان أن يعملوا على القضاء على الوجود اليهودي في فلسطين، وحصل من ألمانيا وإيطاليا على تعهد رسمي بذلك لكن كانت تلك مناورات سياسية من قبل ألمانيا لم تُعطِ مقابلها شيئاً حقيقياً للحاج أمين ومَن وراءه، والدليل على ذلك أنها رفضت طلباً منه بإيقاف هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين.

قابل الحاج أمين هتلر في سنة ١٣٦٠/١١/١٠-١٩٤١/١١/٢٨، وطلب منه المساعدة في القضاء على الصهاينة، فأخبره هتلر أن هدفه هو القضاء على الشيوعيين واليهود، وأن هذا سيوئد المشروع الصهيوني، وطلب منه الاعتراف باستقلال البلاد العربية لكن هتلر لم يفعل بحجة أن الوقت ليس مناسباً لمثل هذا الإعلان.

والعجيب ما حكاه الدكتور فهمي الشناوي في جريدة اللواء الأردنية بتاريخ ١٩٨٤/٩/١٢ أن المفتي عرض على هتلر "أن يقوم بتجنيد جيش من متطوعي العرب في الشمال الإفريقي يشعلون ثورة وطنية تمنع هبوط الخلفاء فكان رد هتلر عجيباً ومثيراً حيث قال: لا، إنني لا أخشى الشيوعية الدولية، ولا أخشى الامبريالية الأمريكية البريطانية الصهيونية ولكنني أخشى أكثر من كل هذا الإسلام السياسي الدولي!!".

وهذا يبين بجلاء أن الكفر ملة واحدة.

وأنشأ في ألمانيا إدارة سميت "مكتب المفتي" وكان لها نشاط جيد ضد اليهود والإنجليز، وأنشأ إذاعة، وصار يجند مسلمي أوروبا وجنوب روسيا في وحدات حربية مسلحة، وكون نواة جيش عربي، وأسس لذلك مدرستين حربيتين في برلين، وأقام دورة في هولندا لتدريب ستين من "المغاوير" دخلت الحرب في فلسطين بعد ذلك.

ولما هزمت ألمانيا في الحرب قبض عليه الفرنسيون وحددوا إقامته في فرنسا لكنه هرب إلى القاهرة التي استضافته رغم أنف الإنجليز الذين اعترضوا على قرار الحكومة المصرية، وكان قرار الاستضافة ناشئاً من ضغط من الإخوان المسلمين -وعلى رأسهم الإمام البنا- وغيرهم من القوى الإسلامية والوطنية.

وفي مصر ألف الحاج أمين "الهيئة العربية العليا لفلسطين" برئاسته، ونظم الحركة الوطنية الفلسطينية، وألف لجنة من قادة المجاهدين الفلسطينيين وغيرهم لإنقاذ فلسطين من قرار التقسيم الذي كان صدوره متوقعاً آنذاك، وأعاد تنظيم جيش الجهاد المقدس وأسند

قيادته إلى الشهيد -بإذن الله- عبدالقادر الحسيني، وأنشأ منظمة الشباب الفلسطيني التي ضمت فرق الجوالة والكشافة والفتوة وأسند قيادتها للصاغ محمود لبيب أحد الإخوان المسلمين المصريين المجاهدين، وكلفه بتدريب الشباب على القتال، وكان المفتي يهرب الأسلحة إلى داخل فلسطين، ويوجه المجاهدين ويمدهم بالمال والسلاح.

وساعده الإخوان في مصر بالسلاح والمال والرجال، وكان الأستاذ البنا قد أرسل وفداً إلى فلسطين سنة ١٣٥٤/١٩٣٥، فصلته -إذن- بالمفتي قديمة.

وفي سنة ١٣٦٧/١٩٤٨ بعد الهزيمة ضيق عليه في مصر تحت ضغط الإنكليز لكنه تمكن من الخروج منها، وعقد الحاج أمين الحسيني في غزة في ١٩٤٨/١٢/١ مؤتمراً فلسطينياً كبيراً سُمي "المجلس الوطني الفلسطيني" انتخب الحاج فيه رئيساً له، وأعلن هذا المؤتمر استقلال فلسطين ووضع دستوراً لها، وشكل لها وزارة دعيت بحكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد عبدالباقي لكن المؤامرات على هذه الحكومة أرغمتها على الانتقال إلى مصر، ولم يكن المفتي يريد الانتقال إلى مصر التي ألحّت عليه كثيراً لكنه كان يرفض فقام اللواء حسين سري بنقله قسراً في قافلة عسكرية، فلما وصل إلى القاهرة وضع تحت رقابة شديدة ومُنع من العودة إلى فلسطين.

وحُرمت "الهيئة العربية العليا" من العمل والنشاط وأغلقت في وجهها الصحف والإذاعات، ونقلت القضية الفلسطينية من يدها إلى يد الجامعة العربية.

ولما قامت ثورة يوليو استبشر بها المفتي حيث إن بعض ضباطها ساعدوه في أيام نكبة فلسطين في تهريب الأسلحة، لكن هيهات للناصريين أن يستقيم أمرهم مع رجل إسلامي مجاهد كالحاج أمين الحسيني، فضيقوا عليه، ومنعوه من الاتصالات، وراقبوا كل من يزوره، وأخمدت قضية فلسطين وحولتها إلى قضية لاجئين إعلامية، فاضطر لمغادرة مصر سنة ١٩٥٩/١٣٧٨ إثر مؤامرات على "الهيئة العربية العليا" ورجالها وتشويه إعلامي لأعمالهم، وذلك عقب الإعلان عن قبول الجمهورية العربية المتحدة برئاسة عبدالناصر لمشروع أمين عام هيئة الأمم المتحدة هامر شولد القاضي بتعويض الدول العربية التي فيها فلسطينيون وتصفية القضية الفلسطينية بما يسمى بالحل السلمي، ففرّ الحاج من القاهرة إلى بيروت حيث ساهم في إفشال المشروع هنالك، فكان لابد من إنشاء قيادة بديلة للشعب الفلسطيني تكون خاضعة لمصر وتوجهاتها، وتكون قابلة للاحتواء والتدجين، فاختارت الناصرية قيادة علمانية لفلسطين سنة ١٩٦٣/١٣٨٣-١٩٦٤، ونحّت عمداً الحاج محمد أمين الحسيني الذي لا يستقيم تصوره الإسلامي مع تُرّهات الناصريين آنذاك وتلاعبهم بمصير القضية الفلسطينية، وأُنشئت منظمة التحرير الفلسطينية التي حادت عن مسارها وساهمت بقوة في كل النكبات التي نزلت بفلسطين بعد ذلك بسبب بعدها عن منهج الله تعالى وارتمائها في أحضان الشرق ثم الغرب وتضييعها الجهاد.

وفي لبنان كان ينبه المسؤولين العرب إلى الخطر الصهيوني، والمطامع اليهودية ليس في فلسطين وحدها بل في البلاد العربية المجاورة.

وفي بيروت أصيب بأزمة قلبية لما سمع بنكبة سنة ١٩٦٧/١٣٨٧؛ إذ عَزّ عليه أن تُساق الجنود إلى هزيمة مذلة بدون تخطيط ولا تنسيق، وقد كتب الله له السلامة من هذا المرض فبقي على جهاده وحماسه حتى رأى انتصار رمضان سنة ١٩٧٣/١٣٩٣.

وأصدر في بيروت مجلة "فلسطين" الشهرية.

وقبل وفاته بأشهر قليلة زار الرياض فتحدث عن قضية فلسطين ثلاث ساعات، وكان يبكي أثناء حديثه ويوصي الحاضرين ألا يصالح العرب اليهود مهما طالت مدة الاحتلال، وليس هناك حل إلا بالجهاد.

وقبل وفاته بقليل قال:

"كنت أتمنى لو مت قبل أن أسمع فلسطينياً يحمل السلاح ويسير في درب الجهاد ثم ينخدع بفكرة الحلول السلمية".

وظل في بيروت إلى وفاته، فلما مات قالت عنه بعض الصحف البريطانية: "مات عدو الصهيونية والإمبراطورية البريطانية".

ـــ من مواقف الحاج محمد أمين الحسيني إضافة إلى ما سبق:

من مواقفه وهو طفل أن هرتزل رئيس الحركة الصهيونية العالمية أراد أن يؤسس مُغتصبة "مستوطنة" قرب قرية فالونيا، وهي التي كان يتعلم بها الحاج أمين في طفولته، وغرس هرتزل شجرة لهذه المغتصبة فذهب الحاج وأصدقاؤه فقطعوا هذه الشجرة، وهذا منه في طفولته دال على استعداد فطري للمقاومة والجهاد.

ــ ومن مواقفه أنه جمع ٣٠٠٠ متطوع من القدس والخليل وسافر معهم إلى الأردن للانضمام إلى جيش فيصل بن الحسين الذي كان في العقبة يتأهب للدخول إلى دمشق وإعلان الحكومة العربية فيها بعد زوال الحكم العثماني عنها في نهايات الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، وكان الحاج أمين يحارب مع فيصل بن الحسين.

ــ وفي سنة ١٩٢٥/١٣٤٣ قامت مظاهرات في سوريا ضد الفرنسيين فقابلوا هذا بالعنف -على عاداتهم في الهَوَج والشدة- وضربوا دمشق بالمدفعية، ورموا عليها القنابل بالطائرات، فأرسل الحاج مئات البرقيات إلى زعماء العالم الإسلامي مبنياً صنيع الفرنسيين ومشتداً عليهم، وأسس "اللجنة المركزية الفلسطينية لإغاثة السوريين المتضررين"، وأوصل المساعدات من أنحاء العالم إلى الثوار السوريين، وقال الأستاذ نويهض في هذا "رأيت وسط الثوار مسلمين مقاتلين من السنغال انضموا إلى إخوانهم بتشجيع من المفتي الحاج أمين الحسيني عندما كان في مكة للمشاركة في المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٢٦".

ــ ومن مواقفه المضيئة أنه أثناء وجوده في ألمانيا سمع بالمآسي التي حلّت بالبوسنويين عندما تآمر عليهم الصرب والكروات فاتفق مع الألمان على تجنيد الشباب البوسنويين وتسليحهم للدفاع عن أنفسهم، واتفق مع الألمان على إنشاء معهد للأئمة ليرعى المتخرجون منه شؤون العسكريين البوسنيين الذين بلغ عددهم مائة ألف مقاتل، وكذلك أنشأ معهداً آخر في درسدن بألمانيا لتخريج الأئمة الأذربيجانيين وغيرهم من القوقاز، وبذلك استطاع بفضل الله عليه أن يحمي الوجود الإسلامي في البلقان وشرق أوروبا من المجازر المتوقعة في الحرب العالمية الثانية.

وهذه المواقف الثلاثة السابقة توضح بجلاء أن الحاج أمين الحسيني لم يكن لفلسطين فقط بل كان أينما حَلّ مدافعاً عن قضايا المسلمين، عاملاً على إنقاذهم من أعدائهم، وهكذا ينبغي للزعيم السياسي المسلم أن يكون مهتماً بقضيته الكبرى ولا ينسى القضايا الإسلامية الأخرى.

ـــ ومن مواقفه المهمة أنه اشترى الأراضي التي كانت مهددة بالتسرب إلى يد اليهود، اشتراها بوساطة المجلس الإسلامي الأعلى الذي كان يرأسه، وأرسل الوعاظ إلى الناس ليبينوا لهم حرمة بيع الأراضي لليهود أو لسماسرة اليهود وتكفير من يصنع ذلك، وعدم دفنه في مدافن المسلمين، وحث الفلاحين على التمسك بأراضيهم، وهذا الموقف ساهم بقوة في منع كثير من الفلسطينيين من بيع أراضيهم لليهود أو لسماسرة اليهود.

نقد لمسيرة الحاج أمين:

هناك بعض الانتقادات لمسيرة الحاج أمين السياسية منها أنه لم يُعن بجوانب التربية الإسلامية لأتباعه كما ينبغي، وأنه لم يهتم بتنظيم أتباعه تنظيماً قوياً قائماً على أسس إسلامية صرفة، وأنه كان يولي النصارى اهتماماً أكبر مما ينبغي لهم فقد كانت نسبتهم في الحزب العربي الذي أسسه ٣١% بينما نسبتهم في فلسطين لا تتجاوز ١١%.

ومن الانتقادات أيضاً أن الإسلام لم يكن الركيزة الوحيدة للطرح والتصور عند الحاج أمين.

وغير ذلك من الانتقادات التي أوردها الأستاذ محمد الناصر في كتابه "علماء الشام في القرن العشرين" نقلاً عن الأستاذ محسن صالح وبيان الحوت، ثم دفع عنه الأستاذ محمد الناصر بعض ذلك بنقله عن أحد معاصري الحاج أمين أنه كان يعتمد على الشيخ حسن البنا وجماعته ليسدوا ثغرة القضايا التربوية، وأنه تعاون مع البنا ومع قيادات إسلامية كثيرة في العالم الإسلامي.

ودفع عنه الأستاذ محسن صالح بعض الانتقادات الأخرى بتقريره أن الحاج أمين كان زعيم الشعب بمختلف فئاته فهذا أداه إلى أن يطرح فكره بمرونة تستوعب الاتجاهات الإسلامية والقومية والعلمانية، كما أن انشغاله منعه من التنظيم القوي لأتباعه.

وأرى والله -تعالى أعلم- أن الحاج أمين كان مسلماً صحيح الإسلام، مجاهداً، غيوراً على الإسلام والمسلمين، واعياً، عالماً بما ينبغي أن يقوم به، فاقهاً لواقعه، لكنه أراد أن يستفيد من كل شخص مهما كان اتجاهه، ولا يعني هذا أنه تنازل عن مبادئه لكنه ينبئ أن الشيخ لم يلتفت -كما ينبغي- لما التفت إليه غيره من إنشاء تنظيم إسلامي صلب متين يقي الله به فلسطين من عوادي الجاهلين الذين أقصوه بسهولة وأمسكوا بالقضية مفرطين، ضائعين ومضيعين.

وفاته:

توفي الحاج أمين الحسيني في بيروت سنة ١٣٩٤/١٩٧٤، وقد بقي على حماسه إلى وفاته رحمه الله تعالى فقد قال الأستاذ الفاضل عبدالله العقيل:

"زرته في أواخر أيامه في بيروت مع بعض الإخوة الكويتيين والسوريين والمصريين فوجدت هذا الشيخ المهيب والكهل الوقور يتوقد حماساً يفوق حماس الشباب، ويعرض الأمور ويحلل الأحداث بعين الناقد البصير والسياسي المحنك، الخبير المجرب، وكانت وصيته ألا نقطع الأمل، وأن نبقى على العهد في مواصلة الجهاد".

ولما مات رفض اليهود السماح لجثمانه بالدخول إلى بيت المقدس ليدفن هناك حسب وصيته.

من الأقوال المثنية عليه:

ـــ قال الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى:

"رحمك الله يا مجاهد فلسطين، إن حادثة وفاة سماحة المفتي الأكبر حادثة عمت العالم الإسلامي كله وهزته، وقد فقد العالم الإسلامي في شخصه أقدم زعيم وأكبر مجاهد وأعظم بطل من أبطال قضية المسجد الأقصى والقدس الشريف.

لقد خُتم بوفاته كتاب في الجهاد والإخلاص للعقيدة والفكرة والوفاء للمبدأ و الغاية، وانتهى به عهد يمتد على أكثر من ستين سنة لم يهدأ له فيه بال ولم يقرّ له قرار، ولم يضع فيه السلاح، ولم ينسحب فيه من ميدان الكفاح".

ولما قامت الحرب الأهلية في لبنان بعد وفاة الحاج أمين بشهور هجم مجموعة من العملاء على دار المفتي واقتحموا مكتب "الهيئة العربية العليا" القريب من الدار، ودمروا كل شيء ثم أحرقوا

الدار والمكتب!! ولم يكن في الدار سوى بعض النساء، وكان في المكتب بعض الموظفين، وقد هرب كل أولئك بعد أن شهدوا احتراق المكتب والدار واحتراق مئات الكتب النادرة والوثائق والمراسلات التي كانت فيهما، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي النهاية أقول:

يكفي الحاج محمد أمين الحسيني شرفاً وفخراً أنه ظل على الولاء لإسلامه وأمته إلى حين وفاته، وأسلم الروح غير مبدل ولا مغير، وسط ركام هائل من الأهواء والضلال العقدي والفكري والتنازلات التي لا حصر لها، وأرجو أن يكتب الله له أجر جهاده ويلحقه بالصالحين في عليين.

ـــ وهناك ملحظ مهم أختم به، ألا وهو:

قد كان الحاج محمد أمين الحسيني ومن معه من أبطال فلسطين بدون سند حقيقي من الحكومات العربية والإسلامية، وكانوا يصارعون تياراً أقوى منهم بكثير، تيار الصهيونية العالمية مدعوماً بالصليبية البريطانية وغيرها، ومع ذلك فقد عمل المجاهدون الأبطال كثيراً من الأعمال المشرفة، ولولا الخيانات العربية والتخاذل الإسلامي لكان لهم شأن آخر، وإنما أقول ذلك حتى تعلم حماس ومن معها اليوم من أبطال المجاهدين في فلسطين أن التاريخ يعيد نفسه، وأنه ليس لهم سند حقيقي ولا ركن شديد يأوون إليه سوى الله -تعالى- فليحكموا أمرهم، وليتوكلوا على الله ربهم، وليقطعوا الأمل من كل ما سوى الله

تعالى، وهو سبحانه ناصرهم إن شاء وممكنهم في الأرض، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، والله أكبر[1].

---

(١) اختلفت الأقوال في علاقة الحسيني بالقسام، فمِن قائل إن الذي بينهما كان فاسداً وسيئاً، ومِن قائل إن الذي بينهما كان عامراً وصالحاً إنما أظهرا الاختلاف في العلن للتورية والتعمية وتنسيق المواقف، وقد أورد كل فريق حججه لكني لم أر من درس الأمر دراسة وافية وخرج برأي تسنده الأدلة والوثائق، فالله أعلم، فقد كان الحسيني شمساً في سماء فلسطين والقسام قمرها، رحمهما الله تعالى رحمة واسعة.

٨- إمام أهل السنة

محمود عبدالوهاب فايد

١٣٣٩ – ١٤١٨

١٩٢١ – ١٩٩٧

زمن الطغيان الناصري، والاستكبار العاتي، والجبروت الشديد كان هناك علماء قلائل جداً استطاعوا الوقوف أمام الطاغية وقول كلمة الحق، ومن هؤلاء وربما على رأسهم الشيخ العالم العامل محمود عبدالوهاب فايد، رحمه الله تعالى.

ولد سنة ١٩٢١/١٣٣٩ في قرية "دمينكة" وهي تتبع محافظة كفر الشيخ، وأسرته معروفة بالعلم والدين؛ فوالده معروف بالعلم والصلاح، وجده الشيخ مبروك كان عالماً شرعياً، وأخوه الأكبر مأذون القرية ومعروف بتدينه وورعه، وأخوه الذي يلي الأكبر هو د.عبدالوهاب، وهو مدرس في كلية أصول الدين بالجامع الأزهر، وابن عمه الشيخ محمد عبدالغني كان واعظاً بالأزهر ومعروفاً بالصلاح، وغير هؤلاء مما يدل على صلاح الأسرة في الجملة، وتعلق عدد من أفرادها بالعلم الشرعي.

حفظه والده القرآن العظيم، ثم ألحقه بمعهد دسوق الديني الابتدائي التابع للأزهر، وحدثت له حادثة فيه ففصل ثم أعيد، وبعد فراغه من الدراسة في المعهد قصد معهد طنطا الثانوي للدراسة فيه، وفصل وسجن بسبب حادثة عرضت له سيأتي ذكرها، إن شاء الله تعالى.

ومن لطائف ما جرى عليه أنه قال:

"صليت بالناس إماماً في مسجد كبير بالأرياف صلاة المغرب ولم أجهر بقراءة البسملة في الفاتحة، وبعد الصلاة نادى أحدهم بالناس

إن صلاتكم باطلة، وأمر بإعادها، فأقيمت الصلاة وصلى الشيخ خلف هذا المنادي، وبعد الصلاة ذهب إليه وقال: أحب أن أعلم الخطأ الذي استوجب بطلان الصلاة فقال: لأنك لم تُبسمل أول الفاتحة !!

ــ من مواقفه المشرفة:

عقب الهزيمة المذلة سنة ١٩٦٧/١٣٨٧ طالب بمحاكمة الرئيس المصري عبدالناصر، فعزله من مناصبه بقرار جمهوري، وحاول بعض العلماء التدخل لدى الرئيس فأجابهم بشرط أن يحضروا منه التماساً بذلك، فذهب إليه الشيخ عبدالحليم محمود ليعرض عليه هذا الأمر فرفض الشيخ بإباء، وقال:

"أنا طالبت بمحاكمته ولم أطالب بإدانته، وفي المحكمة تنكشف الحقائق، ثم قال: عندما أُخبرت بقرار الفصل بالهاتف صليت ركعتين لله، ثم قلت: اللهم فارزقني وأنا من اليوم عبد خالص لك، وقد استجاب الله لي وأراحني من الذهاب والإياب، وأنا لدي مكتبة عامرة بالكتب ورثتها عن آبائي وأجدادي واشتريت المزيد فأنا أعكف على المطالعة والتأليف، ويأتيني من الرزق أضعاف ما كنت أتقاضاه من الوظيفة، وأحمد الله على نعمه، إنني أقول وقد وسّع الله علي، يالله: لقد أرادوا أن يذلوني فأعزتني، لا أذل وأنا عبدك؛ عبدالعزيز، وأرادوا أن يضعفوني فقويتني، لا أضعف وأنا عبدك؛ عبد القوي، وأرادوا أن يفقروني فأغنيتني، لا أفتقر وأنا عبدك؛ عبدالغني".

وهذا موقف جليل منه في زمن الطغيان.

ـــ ومن المواقف المضيئة ما حدث حين أساء شيخ الأزهر عبدالرحمن تاج إلى منصبه وإلى الأزهر بممالأته للثوريين الناصريين وتقصيره في شأن الأزهر والأزهريين بل الإسلام والمسلمين، فهاجم شيخ الأزهر على سكوته وكتب مقالاً شهيراً سماه: "بسم الله والله أكبر فليستقل شيخ الأزهر"، ووجد المقال قبولاً كبيراً ورضى لدى جمهرة الأزهريين، فنقل الشيخ محمود نقلاً تأديباً من معهد منوف إلى معهد قنا، ثم أوقف راتبه وأحيل إلى مجلس تأديبي، وفي ذلك المجلس نجاه الله تعالى ونصره على من عاداه، وعاد إلى معهده.

وقد شجعه والده في ذلك الموقف بقوله له لما استشاره:

"أنا لا يعنيني أن تُنقل إلى قنا أو تبقى هنا إنما يعنيني فقط أن تلزم جانب الحق في كل ما تقول".

ـــ ومن مواقفه ما حدث له أثناء الدراسة في معهد طنطا الثانوي، فقد اعترض الطلاب على كتاب يدرس في كلية الآداب فيه مساس برسول الله صلى الله عليه وسلم فثاروا وأضربوا عن الحضور إلى المعهد فبادر شيخ المعهد بفصل نفر منهم، فقام الشيخ محمود فايد بإلقاء قصيدة يعترض فيها على الفصل، فعوقب بالفصل والسجن !!

ـــ ومن المواقف أنه كان قد تخرج في كلية أصول الدين في الأزهر سنة ١٣٧٦/١٩٤٦، وكان الأول على الطلاب، فدعي الطلاب الأوائل إلى حفلة يحضرها الملك فاروق ويصافح فيها الخريجين، وأُمر الجميع بالانحناء عند المصافحة لكن الشيخ أبى وصافحه وهو منتصب القامة مرفوع الرأس، وبسبب هذا الموقف صدر الأمر بتعيينه في سوهاج بالصعيد خلافاً لما جرى عليه العرف من تعيين الأوائل في القاهرة.

ـــ ومن مواقفه العظيمة أن عبدالناصر استهزأ مرة بالعلماء وهون من شأنهم، واتهمهم ببيع الفتاوى بالفراخ وأعلن ذلك في إحدى الخطب، فما كان من الشيخ محمود فايد إلا أن كتب مقالاً في مجلة الاعتصام عدد ربيع الأول سنة ١٩٦١/١٣٨١ في أوج الطغيان والخوف قال فيه بعد كلام غمز فيه من جانب الجيش واتهمه بموالاة الملك السابق يوم كان الشيخ يحارب الفساد:

" ... هل يجوز يا سيادة الرئيس أن يذاع على العالم وبجميع اللغات ومن رئيس الجمهورية العربية نفسه مثل هذا الكلام ؟!

لقد فاتك أن تعقب بأن كثيراً من ذوي العمائم كان لهم مواقف كريمة وغيرة مشكورة، وإحساس مرهف، وإنك لتعرف بعضهم، ولبعضهم عليك فضل، ومن فضل الله أن شعبنا فاضل واع ذكي أريب، يعرف مقاييس الرجال، ويميز الخبيث من الطيب.

وختاماً:

يكفي العلماء العاملين شرفاً وفخراً أن أحكم الحاكمين زكاهم ورفع قدرهم وخلد ذكرهم فقال سبحانه: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر: "العلماء ورثة الأنبياء".

وهذا الكلام خطير وصعب أن يواجه به زعيم طاغية ظالم مثل عبدالناصر لكن الشيخ محمود فايد كان من طراز فريد من العلماء.

ـــ ومن مواقفه المشرفة مقالان نشر أحدهما أيام فاروق والآخر أيام عبدالناصر، قال في الأول يصف حال المسلمين:

"ملوكهم وحكامهم معنيون بمناصبهم، همهم أن تَسْلم لهم ... يسالمون عِداهم، ويذلون رعاياهم، يجمعون المال من دم الفلاحين وعرق الكادحين لينفقوه على ملذاهم، ويبعثروه على شهواقم، طوراً ينثرونه على موائد القمار ودور اللهو وكؤوس الشراب، وحيناً يبذلونه في مخاصرة النساء وسماع الغناء وما تتطلبه الليالي الحمراء، والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم أو يزجي النصح لهم فجزاؤه السجن وإن شئت فقل الإعدام".

وفي النص الآخر أيام عبدالناصر قال مخاطباً له:

"يا سيادة الرئيس: هذه الأموال الباهظة التي تنفق في غير موضعها، هذه المكافآت السخية التي تصرف من مال الدولة على الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، والمغنين والمغنيات.

قلت يا سيادة الرئيس إنك تريد أن تطهر المجتمع من عوامل الحقد والأنانية والفساد والبغضاء، ومقتضى هذا المنطق أن تُقلم أظافر أولئك المترفين".

ــ ومن مواقفه القوية أن فرقة راقصة من بلد شيوعي أرادت أن تقيم حفلاً في ميدان الحسين!! في رمضان سنة ١٣٨٧، فانتهز الشيخ محمود فرصة إقامة الجمعية حفلاً في ذكرى غزوة بدر فتكلم قائلا:

"أخزى الله هؤلاء السفهاء، لقد بلغ بهم السخف أن يحيوا رمضان بالمنكرات، وفي أي مكان ؟ في ميدان الحسين بين مسجده وبين إدارة الأزهر ومشيخة الطرق الصوفية، يالها من إهانة متعمدة

توجه لعمّار هذه المؤسسات الإسلامية، يا لها من إهانة توجه إلى شهر القرآن".

وكان أحد المسؤولين حاضراً لذلك الحفل فأبلغ الخبر إلى حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية فأصدر أمره بالغاء الحفل، فكم نحن -اليوم- بحاجة إلى أمثال هؤلاء العلماء.

ــ ومن مواقفه المشرفة رده على الأديب أحمد حسن الزيات عندما كتب مقالاً افتتاحياً في مجلة الأزهر الذي كان يرأس تحريرها، وكان في المقال كُفر واضح ظاهر ألا وهو تفضيل الوحدة الناصرية على الوحدة المحمدية!! وثار الصالحون في العالم الإسلامي ومنهم الأستاذ أبو الحسن الندوي، وثار الشيخ محمود فايد وكتب مقالاً شديداً رد فيه على الزياد، نسأل الله العافية من الضلال.

ــ الجانب الذي تميز به الشيخ رحمه الله تعالى:

تميز الشيخ محمود فايد بميزة لم تكن لعالم في زمانه فيما أعلم، والله أعلم ألا وهي اطلاعه الواسع على أحداث بلاده في زمانه، وفقهه واقعَ قومه، وقد جعله هذا يسارع إلى الرد على المخالف أو المفسد، أو الضال، وذلك من خلال المنبر الذي سخره الله له وهي مجلة "الاعتصام"، وهي على أنها محدودة الانتشار لكن كان لها من يتلقف مقالاتها المهمة فيعيد نشرها في بعض الصحف السيارة الذائعة، وبعض تلك المقالات نشر في صحف المعارضة بعد توقيف مجلة "الاعتصام".

ولم يستثن الشيخ في رده أحداً، فهو يرد على كل من يرى وجوب الرد عليه أو مناقشته، فقد ر على عبدالناصر في أوج طغيانه،

وعلى السادات، وعلى حسني مبارك، ورد على بعض الوزراء والكبراء، وعلى بعض المشايخ الضعاف أو أصحاب المواقف المنحرفة أو المتخاذلة.

ولقد جُمعت هذه الردود والمناقشات في كتاب ضخم اسمه صيحة الحق، وبعض هذه الردود والمناقشات آتت أكلها وثمارها فحصل بها تغيير ولله الحمد، إذن لم تكن كل تلك المقالات صرخة في وادٍ، ومن أهم ماجاء في الكتاب من ردود ومناقشات في ظني هو التالي، وأنصح القراء بقراءتها لأنها تعد مثل الوثائق التي تبين الأوضاع في أكبر بلد عربي وإسلامي رمته سهام الأعداء من كل جانب:

١. ردوده على الرئيس المصري أنور السادات في عدة مقالات، ومن أهم مارد عليه فيه مقولة السادات الشهيرة: "لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين".

٢. مقال يدعو فيه لعدم ترخيص الحزب الشيوعي.

٣. مقال فَنّد فيه معاهدة الصلح بين مصر ودولة الصهاينة، ورد على العلماء الذين أيدوها.

٤. عدة مقالات طالب فيها رؤساء مصر بتطبيق الشريعة الإسلامية وعدم التلكؤ في هذا الأمر العظيم، ورد على بعض أعمالهم المنافية للإسلام، وكان يسمي ثورة يوليو بالثورة المشؤومة، وقد شن حملة هائلة على عبدالناصر ووصف مخازيه وسيئاته على وجه مفصل.

٥. مجموعة مقالات يرد فيها على العلمانيين الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة، ويهمزون الشريعة ويلمزونها كعادتهم، ومِن أبرز تلك المقالات ردوده على أمينة السعيد ومحمد أحمد خلف الله وأمثالهما من المنحرفين والضالين.

٦. مناقشاته لكبار العلماء فيما رأى أنهم قد أخطأوا فيه، فلم يترك أحداً منهم دون أن يرد عليه، فقد رد على عدد من شيوخ الأزهر، وكبار علماء عصره، ورد على المفتي محمد سيد طنطاوي فيما ذهب إليه من تحليل أنواع من الربا.

ومن أهم تلك الردود رده الرائع على شيخ الأزهر عبدالرحمن تاج، وقد ذكرت ذلك في ثنايا ترجمته، وأنصح كل عالم وشيخ وطالب علم بقراءة هذا المقال الجليل الذي كان له آثار ضخمة في مصر آنذاك.

ورد على د.محمد البهي الذي كان وزيراً للأزهر، ولم يمنعه ذلك الرد القوي من الثناء عليه وبيان محاسنه، وهذا من إنصافه.

ميزات مقالاته:

كان لمقالات الشيخ محمود فايد مزايا مهمة منها:

١. التوسع والإطناب في العَرْض بما يقتضيه المقام فيوفيه حقه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يريد إيراده إلا ويوردها.

٢. مزَج كلامه بالآيات الجليلة والأحاديث الشريفة وكلام الفقهاء الضابطين، وهذا مما يُكسب مقالاته الهيبة والقوة.

٣. والشجاعة الظاهرة الواضحة في الرد والنقاش، والقوة في تقرير ما يريده، وبمعنى آخر إن مقالاته تخلو مما يُسمى بـــ"المجاملة" التي جنت على كثير من الحقائق.

٤. المعاصرة لأحداث في البلاد ووقائع العباد، فمقالاته تعالج القضايا في وقتها وبالسرعة اللازمة للتأثير في نفوس قارئيها.

٥. الشمول في الردود فلا يترك حاكماً أو محكوماً يرى أن يرد عليه إلا ويبادر للرد فلا يخص بمقالاته طائفة أو طبقة من الناس، وهذا مما يضفي على مقالاته أهمية وجودة.

ــ وظائفه ومناصبه:

ــ عين وكيلاً عاماً للجمعية الشرعية.

ــ عُين رئيساً للجمعية الشرعية بمصر وذلك بعد وفاة الشيخ العالم عبداللطيف المشتهري، وظل في رئاستها منذ ١٤١٦/٣/١ – ١٩٩٥/٨/٢٨ إلى ١٤١٨/٢/٦ – ١٩٩٧/٦/١١، وذلك تاريخ وفاته رحمه الله تعالى.

وكان كل من يلي رئاسة الجمعية يلقب بإمام أهل السنة، وكان ذلك الوصف -في ظني- منطبقاً على الشيخ محمود فايد إلى درجة كبيرة من الانطباق، وذلك أن من أعظم خصائص أئمة السنة في كل زمان ومكان هو قول الحق وعدم خشية أحد فيه، وأحسب أن الشيخ كان من هؤلاء والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً.

ــ وقد عُين أيضاً رائداً دينياً لمدينة البعوث في الأزهر، وكان مؤثراً على الطلبة الوافدين إلى الأزهر لكن الشيخ عُزل عنها، إذ لم يحتمل الطغاة له ذلك.

ــ وعين أستاذاً في التفسير في كلية الدعوة وأصول الدين، وكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة النبوية.

عضو لجنة السنة بمجمع البحوث.

مؤلفاته:

للشيخ -رحمه الله تعالى- عدد من المصنفات منها:

كتاب "المنطق الواضح" في علم المنطق، في جزأين.

"التربية في كتاب الله".

"الإسلام والصحة".

"الإسلام وأثره في نهضة الشعوب".

"الرسالة المحمدية وشواهدها" ويعده أهم مؤلف له.

"صيحة الحق".

وحقق مجموعة من كتب التراث.

وللشيخ شعر منشور في بعض الكتب والمقالات، ولا بأس به.

وفاته:

توفي الشيخ رحمه الله تعالى سنة ١٩٩٧/١٤١٨ ودفن في مصر، رحمه الله تعالى وغفر لنا وله.

ملحظ:

أرسل لي الأخ علي حمدون أحمد رسالة على بريدي الإلكتروني يذكر فيها أن للشيخ مأثرتين جليلتين، أولهما أنه حقق كتاب "تهذيب الكمال في أسماء الرجال" للحافظ المزي، ولم يذكر أنه نُشر، والأخرى أنه أهدى مكتبته القيمة قُبيل وفاته إلى مكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية في فرع جامعة الأزهر بدسوق، فجزاه الله خيراً.

فهرست الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمــة	٥
١. "الداعية الرحلة" تقي الدين الهلالي	٩
٢. "الشيخ القوي" محمد الحامد	٢٩
٣. "رائد التجديد الشامي" طاهر الجزائري	٤٣
٤. "العالم المجاهد" عمر مكرم	٥٩
٥. "العالم الثابر" عبدالرحمن الافريقي	٧٣
٦. "شيخ الأزهر التونسي" محمد الخضر حسين	٨١
٧. "العالم السياسي" الحاج محمد أمين الحسيني	٩٩
٨. "إمام أهل السنة" محمود عبدالوهاب فايد	١٢٢
فهرست الموضوعات	١٣٥